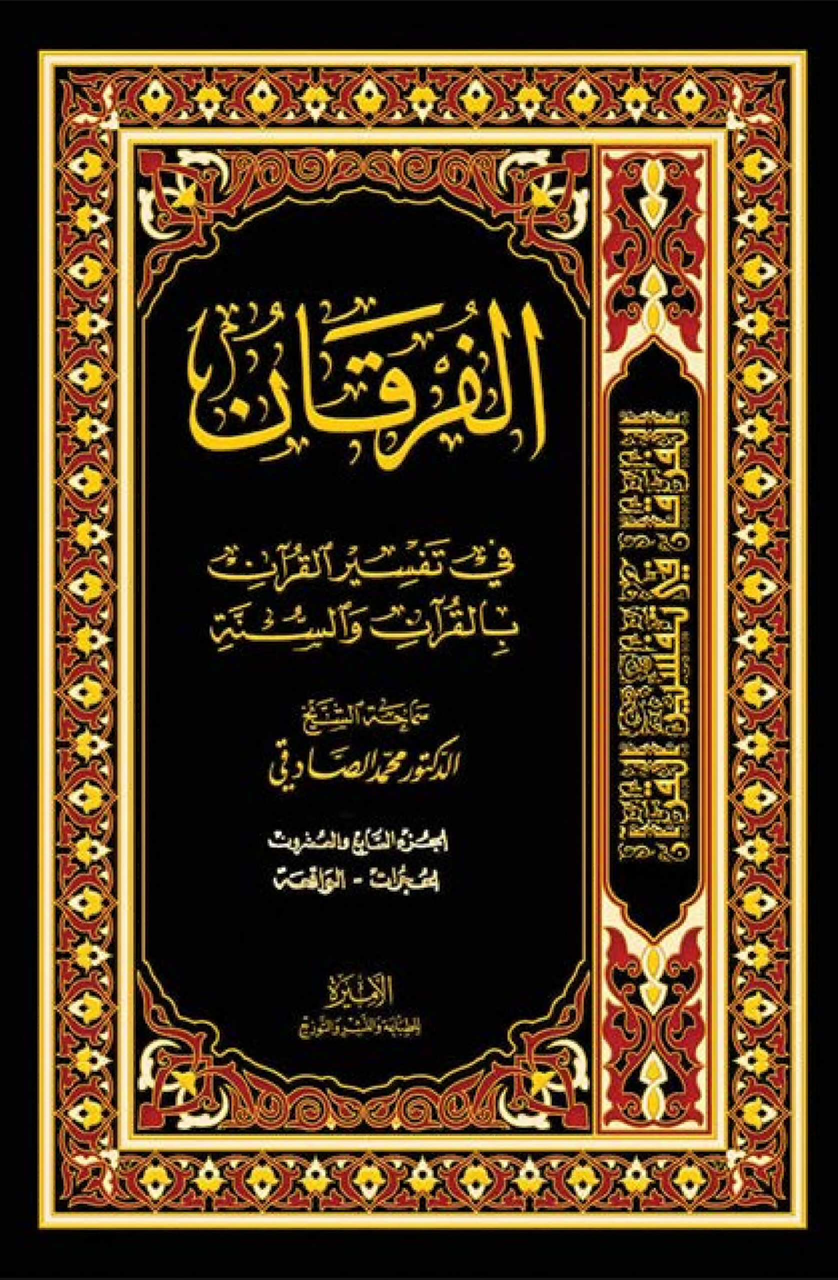

الفرقان
في تفسير القرآن
بالقرآن والسنة
سماحة الشيخ
الدكتور محمد الصادقي
الجزء السابع والعشرون
الحجرات - الواقعة
الأميرة
للطباعة والنشر والتوزيع

# الفرقان
# في تفسير القرآن
# بالقرآن والسُّنة

# الفرقان

## في تفسير القرآن

### بالقرآن والسُّنة

الجزء السابع والعشرون

سماحة الشيخ

الدكتور محمد الصادقي



٤٨

# سُورَة الفَتْح




**مدنية – وآياتها تسع وعشرون**

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾

. . . إنها سورة الفتح أوّلاً بفتح مكة وأخيراً بفتح دائب لا قبل له لو ظلّوا مسلمين، تحمل بشارة الفتح المبين، تنزل سادسة الهجرة - عقيب صلح الحديبية وبيعة الرضوان - في كراع الغميم بين مكة والمدينة[1]، بعد ما يرجع الرسول والمؤمنون عن الحديبية.

وقبل فتح مكة بعامين، في حين كانت هجمات المشركين تترى عليهم في كل عام مرة أو مرتين. فالمؤمنون صامدون في حربهم، والذين في قلوبهم مرض حائدون: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾[2].

وبطيّات هذه المناوشات بشارات الفتح تترى هنا وهناك تلو بعض، فالمؤمنون يستبشرون والمنافقون يسارعون بغية ما يبغون: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾[3].

وفي حين أن فرض القرآن نشراً وتطبيقاً لزامه فتح مبين، أن يرجع الداعية إلى معاد الدعوة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[4] وكما يرى رؤياه المبشرة

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٧٤ أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: انصرف رسول الله ﷺ من الحديبية إلى المدينة حتى إذا كان بين المدينة ومكة نزلت عليه سورة الفتح «و مثله ما أخرجه ابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن مروان والمسور بن مخرمة».

(٢) سورة التوبة، الآيات: ١٢٣-١٢٦.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٥٢.

(٤) سورة القصص، الآية: ٨٥.

بما وعد ويصدقها الله: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾(١).

وإن هذا الفتح المبين هو المحبّب للمؤمنين: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٢) كما وإنها منتظَرة لبعض الكافرين، فلقد كانت أحياء العرب تنتظر بإسلامها فتح مكة قائلين: (إن ظهر محمد على قومه فهو نبي) فلما فتح الله مكة دخلوا في دين الله أفواجاً، فلم تمض من فتح مكة سنتان حتى استوثقت الجزيرة إيماناً ولم يبق في سائر العرب إلا مظهر للإسلام والحمد لله.

ولقد نزلت سورة الفتح قبل سورة النصر، ويعد بشارات الفتح والنصر، بشارات وإشارات تتلاحق منذ الهجرة في طياتها، وإلى صلح الحديبية وإلى أن فتحت مكة فكان ما كان.

ترى أن سورة الفتح - إذاً - تحمل بشارة فتح خيبر؟ وما هو بجنب فتح الفتوح إلّا قطرة في يم، أو حلقة في فلاة فيّ!؟ وإن كان له موقعه في الجزيرة، فإن اليهود هناك كانت البقية الباقية من كفار الجزيرة، سوى مشركي مكة.

أم إنه صلح الحديبية، رغم أنه صلح وليس حرباً، خلاف ما زعمه الخليفة عمر، إذ يواجه رسول الهدى في حمية بعد الصلح، بقوله: «فلِمَ تعطي الدنية في ديننا؟!» فيجيبه الرسول ﷺ قائلاً: «أنا عبد الله ورسوله لن أُخالف أمره ولن يضيعني» ويجابهه مرة أخرى بقولته: «والله ما هذا بفتح لقد صددنا عن البيت وصُدَّ هدينا» - ومعه من معه من أضرابه - فقال رسول

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٧.
(٢) سورة الصف، الآية: ١٣.

الله ﷺ : «بئس الكلام هذا أعظم الفتح، لقد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادكم ويسألونكم القضية ويرغبون إليكم في الإياب وقد كرهوا منكم ما كرهوا وقد أظفركم الله عليهم وردكم سالمين غانمين مأجورين، فهذا أعظم الفتح، أنسيتم يوم أحد إذ تُصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم في أُخراكم؟ أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا؟ قال المسلمون: صدق الله ورسوله هو أعظم الفتوح، والله يا نبي الله ما فكرنا فيما فكرت فيه ولأنت أعلم بالله وبالأمور منا، فأنزل الله سورة الفتح»(١).

---

(١) الدر المنثور ٦: ٦٨ - أخرجه البيهقي عن عروة ﷺ.

وفيه أخرج ابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي عن مجمع بن جارية الأنصاري (و ذكر قصة نزول السورة ثم قال) فقال رجل: يا رسول الله ﷺ أو فتح هو؟ قال: والذي نفس محمد بيده إنه لفتح.

وقد يلمح لنا تكرار هذا السؤال بعنف وإهانة من عمر قبل نزول السورة أيضاً لحد يعرض الرسول ﷺ عن جوابه في بعض ما سأل وهو يحسبه غضباً منه ﷺ.

كما أخرج أحمد والبخاري والترمذي والنسائي وابن حبان وابن مردويه عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فسألته عن شيء ثلاث مرات فلم يرد علي فقلت في نفسي: ثكلتك أمك يا بن الخطاب نزرت رسول الله ﷺ ثلاث مرات فلم يرد عليك فحركت بعيري ثم تقدمت أمام الناس وخشيت أن ينزل فيَّ قرآن فما لبثت أن سمعت صارخاً يصرخ بي فرجعت وأنا أظن أنه نزل فيَّ شيء فقال النبي ﷺ: لقد أنزلت علي الليلة سورة أحب إلي من الدنيا وما فيها ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا...﴾ [الفتح: ١].

أقول ولأن السورة نزلت بعد صلح الحديبية وهي أحب إلى رسول الله من الدنيا وما فيها، نعرف انها تحمل بشارة لمستقبل سار، أما أنها تخبر بما حصل فليس فيه أمر جديد حتى يستسر بها الرسول ﷺ من جديد.

وحيث إن الرسول ﷺ أجاب عمر بعد تركه ثلاث مرات - أجابه بنفس السورة - نتأكد هذا الأمر، وإن عمر كان قبل هذه الأسئلة يخاطب الرسول ﷺ في حمية وتعنت.

وقد أخرج ابن أبي شيبة والبخاري في تاريخه وأبو داود والنسائي وابن جرير والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن مسعود ﷺ قال: أقبلنا من الحديبية مع رسول الله ﷺ فبينا نحن نسير إذ أتاه الوحي وكان إذا أتاه اشتد عليه فسرى عنه وبه من السرور ما شاء الله فأخبرنا أنه أنزل عليه ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾.

وفي الحق إذ ننظر إلى جوِّ الحديبية نرى الانتصار ظاهراً في صلحها، حيث المشركين - وهم أكثر بكثير - هم المقدمون على ذلك الصلح، الواعدون الرسول - ضمن ما وعدوه في وثيقة الصلح - أن يزوروا البيت في العام القابل ثلاثة أيام، ولم يخطر بخَلدهم أنهم على قلَّة عَددهم وعُددهم يرجعون عن هذه السفرة سالمين: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ وقد رجعوا منتصرين.

وإنها لموقف القوة والشوكة الإسلامية، الشائكة كالنيازك النارية في عيون المشركين، التي تبشر بفتح مكة لهم ﴿ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ إذ اعترفت حينها قريش بالنبي والإسلام، والقوة الهائلة لنبي الإسلام، والتماسك المتين بينه وبين المؤمنين، فاعتبرت المسلمين أنداداً لهم، فدفعتهم بالتي هي أحسن، في حين أنها غزت المدينة قبلها في سنتين مرتين.. فهذا فتح مبين للمؤمنين، مهما خفي على سواهم.

وفتح آخر هو أقوى: تفتُّح قلوب كثير من المشركين بقبول الإسلام، فتحاً للدعوة والداعية، حيث أمن المتحاربون بعضهم بعضاً، فالتقوا وتفاوضوا، فأسلم في هذه الفترة القصيرة طوعاً، أضعاف ما كان مع الرسول ﷺ في الحديبية، إذ كانوا ألفاً وأربعمائة، ثم خرجوا عام الفتح وهم عشرة آلاف، إسلام خلال عامين يربو إسلامهم خلال تسع عشرة سنة، في عدد المحاربين، فقد والله - وعلى حدِّ تعبير رسول الله ﷺ - كان أعظم فتح أو أعظم الفتوح![1]

ولكنه مع كل هذه المواصفات لا يبلغ مدى فتح الفتوح: فتح مكة المكرمة، وإنما له نصيبه من معنى الفتح قدر ما فتح السبيل إلى فتح مكة، وكما يروى عن الرسول ﷺ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ قال: فتح مكة[2].

(١) كما مضى في المتن - عن الدر المنثور ٦: ٦٨ ما أخرجه البيهقي عن عروة..

(٢) الدر المنثور ٦: ٦٩ - أخرج ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: إنا =

فصلح الحديبية فتحٌ إذ فتح مجالاً واسعاً موفقاً محبوراً لفتح مكة، حيث أمِنوا به بأس قريش فاتجهوا إلى تخليص وتطهير سائر الجزيرة عن سائر الكفار بفتح خيبر، فقسم الرسول ﷺ غنائمه بين من حضر الحديبية.

فلا تصدق رؤيا الرسول ﷺ: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ ولا وعده برده إلى معاد، ولا دخول الناس في دين الله أفواجاً، ولا ظهور الإسلام على الكفر ظاهراً باهراً، ولا فتح مبين، إلّا في فتح مكة المكرمة: عاصمة الرسالة الإسلامية ومنطلق الدعوة ومولدها.

وفي الحق إنه فتح الفتوح، كأنه الفتح لا سواه، ولأنه غاية الفتوح وبُغية المسلمين لا سواه، إلّا كذرائع إليه، ولحدٍّ تراه أحب إلى قلب الرسول ﷺ من الدنيا وما فيها.

وهل هنا وجه للجمع بين الفتحين أن تحملهما سورة الفتح كما يروى، مع أنها تحمل بشارة بفَتحٍ واحد ﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾؟

أقول: نعم، إنه صلح الحديبية كذريعة، وهو فتح مكة كأصل، فهما واحد كياناً رغم أنهما اثنان كوناً، فصيغة الماضي هنا نبأ بمضيِّها لفتح مضى، وبشارة بتحقيقها بفتح يستقبل، فتحقق الوقوع في بشارة يجعلها كأمر مضى أو آكد وأقوى، كما أن وقوعه أيضاً أمر مضى، وهنا أمران ماضيان: فتح مضى زمناً وكذريعة، وفتح مضى كياناً وإمضاءً في وعده تعالى، فماض

---

= فتحنا لك فتحاً مبيناً: قال: فتح مكة.

وفي نور الثقلين ٥ : ٤٨ في حديث عن الإمام الرضا عليه السلام فلما فتح الله على نبيه مكة قال له يا محمد: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١].

أقول: لعله يعني بما فتح الله فتحها في الإمضاء كما مضى، ثم وكافة الأحاديث الواردة في نزول السورة متفقة أنها نزلت بعد الحديبية وان الرسول ﷺ سرَّ بها سروراً بالغاً، وليس ذلك إلا لأنها بشارة لمستقبل هو - طبعاً - فتح مكة وإن كانت - أيضاً - إشارة إلى صلح الحديبية الذي هو فتح قبل الفتح - تأمل.

واحد هنا ﴿فَتَحۡنَا﴾ يشير إلى اثنين، ثانيهما رغم استقباله أعلى وأولى، من أولاهما رغم مضيه فإنه كذريعة له أدنى.

وآيات من السورة نفسها تبين هذا التلاحم الوطيد بين الفتحين فتجعل فتح مكة - المستقبلة - إثابة للمبايعة تحت الشجرة: ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا﴾[1] كذلك وصدقاً لرؤياه وجعلاً لفتح قريب: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحٗا قَرِيبًا﴾[2].

فالفتح القريب المستقبل مجعول عند الله في الماضي وممضىً إثابةً لمبايعة مرضية مضت، مجعول ممضى لحد يعبر عنه بـ ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا﴾ كأنه أمر مضى، لأنه ماض في الجعل والتقدير، مهما كان مستقبلاً، ولأنه ماض - كذلك - في التحضير، حيث الصلح فتح لهذا الفتح مجالاً واسعاً ما له من نظير.

لهذا يحق أن يكون صلح الحديبية فتحاً إذ فتح سبيلاً إلى فتح مكة، ومبيناً، حيث أبان كونه فتحاً عندما فتح مكة، ومن ثم الفتح المبين والمبان هو فتح مكة فتح الفتوح!.

وقد تصرح أو تلمح آيات من السورة أنها نزلت بعد فتح مكة: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾[3] كما الأخرى تشير إلى جو الحديبية: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ...﴾[4] مما يدل أن السورة امتدت منذ الحديبية حتى فتح مكة، ولكي تشمل بشارة الفتحين كوناً وكياناً، دلالة وزماناً!.

---

(١) سورة الفتح، الآية: ١٨.
(٢) سورة الفتح، الآية: ٢٧.
(٣) سورة الفتح، الآية: ٢٤.
(٤) سورة الفتح، الآية: ٢٥.

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾:

إِنَّا - هنا - تلمح إلى جمعية الصفات رحمانية ورحيمية، دون الذات المقدسة الإلهية، وإنما هي الصفات الفائضة بها الخيرات، الممكن إفاضتها ﴿لَكَ﴾ في فتوحات، وقد برزت هنا ﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾: أبانت وبينت شوكة الإسلام، شائكة في عيون المناوئين المحتلين عاصمة الرسالة ومركز الدعوة الأصيلة، وأبانت وشيكة ومهانة للمشركين، ﴿فَتْحًا﴾ هو فتح الفتوح، فإنه بوحدته كل الفتوح، حيث ترجع به العاصمة إلى زعيم الدولة فهذا الفتح ﴿لَكَ﴾ كمتن في الرسالة، وإن كان لكافة المسلمين كهوامش فيها. ﴿مُّبِينًا﴾ يبين ما خفي من حق أو باطل، يبين وعد الله المتين لرسوله الأمين: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾[(١)] و﴿مُّبِينًا﴾: يفصل ويبين بين الدوائر المتربصة بالرسول وبالمؤمنين، حيث انخمدت به نيران الهجمات والهمجات عليه، وانجمدت كافة الحركات الثورات والعرقلات ضدَّه، ﴿فَتَحْنَا﴾ فيه كل خير فائض لحدٍّ يعتبره الرسول خيراً من الدنيا وما فيها ومما طلعت عليه الشمس وغربت، وليس تنوين التنكير هنا توهيناً وتنكيراً لمحتد الفتح، وإنما تعظيماً له بحيث لا يُعرف موقفه إلّا أن يعرِّفه فاتحه كما عرف في مواصفات أربع:

﴿فَتَحْنَا﴾ يدعم لصاحب هذه الرسالية السامية قوائم أربع لعرش الدعوة والدعاية:

﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾:

وهنا يبرز ذنب الرسالة كأول دعامة من هذه الدعائم، نتيجة الفتح المبين،

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٧.

أتراه عصياناً منه لربه يستحق به فتح الفتوح، فما هي الصلة القريبة أو البعيدة بين عصيانه هو وأن يفتح الله له مكة؟ إن هي إلّا مثل ما يزعمه الصليبيون بحق المسيح أنه صُلب وبصَلبه لُعن وبلعنه تحمّل جميع لعنات الناموس، فإن أباه الإله لم يجد بداً في سبيل غفران ذنوب أمته إلّا تفدية الصلب!.

فهلّا يقدر الإله القدير أن يغفر ما تقدم من ذنب رسوله وما تأخر إلا بفتح مكة؟ لا نجد أية صلة بين غفر الذنب العصيان وفتح الفتوح!

ترى وما هو هذا العصيان الذي لا يُغفر له إلّا بفتح مكة؟ وكيف يغفر الله ذنباً هكذا عظيماً من عبده بما يفعل الله ودون استغفار؟ ودون أن يقف لحد الغفر عما تقدم، بل وما تأخر؟ وهو ذنب واحد[١] شامل حياة الرسول ﷺ ما تقدم وما تأخر، ذنب عاش حياته وعاشته حياتُه فما أعظمه!

أسئلة لا جواب عنها ما دام الذنب عصياناً، اللّهم إلّا أن يتحول إلى أعظم الطاعة والإيمان، وأنعم النعم في تقدم الإسلام نتيجة الفتح المبين!.

في الحق أن الذين فسروا الذنب هنا بالعصيان أخطؤوا في تفسيرهم لغوياً وتفسيرياً معاً فابتلوا بفرية العصيان على رسول الهدى وهو أوّل العابدين ثم تفرقوا في الذود عنه أيادي سبأ[٢] أو صمد الأجهلون منهم على فريتهم قائلين: إنه ﷺ لم يخل عن أخطأ! أم ماذا؟.

---

(١) تستفاد وحدة الذنب من ﴿مِن ذَنۢبِكَ﴾ [الفَتْح: ٢] فلم يقل «من ذنوبك».

(٢) من قائل: إنه يعني ذنب أمته أو شيعته، وهل من فصاحة اللفظ أو بلاغة المعنى أن ينسب الله ذنب أمته اليه ﷺ ثم يغفره بفتح مكة الذي لا صلة بينه وبين غفر الذنب.

ومن قائل: إن ما تقدم ذنب أبويه آدم وحواء ببركته وما تأخر مغفرة ذنوب أمته بدعائه، وآيات عدة تنص أن الله غفر لهما قبل الفتح بألوف من السنين!

وقائل بالتقدير: إن لو كان لك ذنب قبله أو بعده لغفر الله لك.

وقائل: إنه دعاء له بالغفر، وهل أن الله يدعو لعبده أن يغفر ذنبه ومن يغفر الذنوب إلا الله؟!

وقائل: إنه ترك الأولى، والحق أن تركه وما سبقه من تأويل أولى، فإنها تأويلات رديئة تشوه وجه القرآن!.

وليتهم فكروا في محتد الرسول ﷺ، على ضوء القرآن نفسه، وآية الذنب نفسها، ولغة الذنب وبيئته، لكي يعرفوا أنه ذروة الطاعة هنا لحدٍّ يحققها كمُرامها الفتحُ المبين.

فإنه أمر أن يكون أوّل من أسلم، أوّلية الأولوية في الإسلام: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ... قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[1] فهل خالف ولم يخف؟ كلّا فإنه أوّل العابدين: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾[2] وهل ينسب هكذا عصيان إلى أول العابدين؟ وكل عصيان غواية: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾[3] وقد نفيت عنه الغواية: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾[4] وكل عصيان من سلطان الشيطان: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾[5].

.. ثم وهو شهيد الشهداء يوم الدنيا ويوم الدين: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾[6] وأخيراً ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[7] وترى الخلق العظيم عند الله وهو إله العظمة في الخلق، هل يناسبه العصيان العظيم؟! ووحدة الذنب: ﴿ذَنۢبِكَ﴾ تلميحة أو تصريحة بوحدة العصيان - لو كان - عصيان بوحدته يشمل زمن الحياة الرسالية أو حياة الرسول ﷺ: ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ كائن معه عائش إياه قبل الفتح وبعده، وحتى بعد غفره له، فما هذا العصيان العظيم الذي عاشه الرسول دون استغفار، ما أعظمه وأطوله وأعضله، لحد لا يغفر إلا بفتح مكة دونما أية صلة بينه وبينه؟!

ثم ولا تجد أيَّ عاص في العالمين يعيش عصياناً لربه دون مهل حتى

---

(١) سورة الأنعام، الآيتان: ١٤، ١٥.
(٢) سورة الزخرف، الآية: ٨١.
(٣) سورة طه، الآية: ١٢١.
(٤) سورة النجم، الآية: ٢.
(٥) سورة الحجر، الآية: ٤٢.
(٦) سورة النحل، الآية: ٨٩.
(٧) سورة القلم، الآية: ٤.

المشركين، فهل ينسب هكذا عصيان إلى أفضل الخلق أجمعين، فما أخطأه تفسيراً وألعنه بحق أوّل العابدين!

في الحق أن الذنب كذنب ليس عصياناً ولا أي خطأ ولا تركاً للأولى، فهو لغوياً في الأصل الأخذ بذَنَب الشيء، ويستعمل في كل ما يستوخم عقباه، فإن كانت هي عقبى الآخرة فشر عصيان وأعضله، أو كانت هي عقبى الدنيا فخير طاعة وأفضله، إذا كانت عقبى يستوخمها أهل الدنيا، ممن يحاربون دعاة الحق، فالرسالة الإلهية هي أخطر ذنب، إذ تستوخم عقبى الدنيا، وتجند الطاقات الشيطانية ضد صاحب الرسالة، يرصدون كل مرصد لخفق صوتها ومحق صيتها.

فكلما كانت الرسالة أشمل، وصاحبه أصمد وأنبل، كان ذنبها: تبعتها وعقابها في الدنيا، أشكل وأعضل، كما والحفاظ عليها، وصدّ العراقيل عنها، وغفْر ذنبها - طبعاً - أصعب وأفضل.

والرسالة الإسلامية هي أشمل الرسالات في الطول التاريخي والعرض الجغرافي، وحاملها أسمى وأنبل حملة الرسالات، وإنها تشكل خطراً حاسماً لجذور الكفر والطغيان، مما يبعث العصاة والطغاة أن يجندوا كافة الطاقات لإماتتها في نطفتها، وإماطتها وحطِّها عن درجتها وفاعليتها، وقد فعلوا ما فعلوا، وافتعلوا ما افتعلوا، فرموه بالسحر والشعر والكهانة والجنون، وسخروا منه وممن يؤمن به، وآذوه ما لم يؤذَ أحدٌ من النبيين: ضربوه وأدموه وكسروا رباعيته وحاصروه وأهليه والمؤمنين، ثم اضطروه للهجرة من عاصمة الرسالة إلى ما هاجره، وإن كان أسس فيها دولة الإسلام فأصبحت مبدأ التاريخ ومنطلق الدولة.

فهل من غفرٍ لهذا الذنب، وصدٌّ لهذا الطغيان، وحدٌّ لذلك البأس الدائب إلا فتح العاصمة، إذ فتحت به حصون الضلالة، فلم تبق بعد في

الجزيرة أية قائمة من قوائم الشرك والإلحاد، ومن ثم انتشرت وتوسعت دولة الإسلام من عاصمتها أم القرى، إلى كل القرى.

فقد كان للرسول ﷺ كرسول ذنب واحد، ومن ثم غفر واحد، فذنبه الوحيد رسالته العالمية الخالدة، الأكيدة الوطيدة، وهي التي عاشها وعاشته ﴿مَا تَقَدَّمَ﴾ على فتح مكة ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ عن فتح مكة، لكنها كانت محظورة مخطورة قبله، فأصبحت مغفورة مستورة بعده، غفر الإزالة للتبعات ممن آمن، وغفر الستر لها لمن أسلم منافقاً ألاّ تظهر رغم كامنه، وغفر الجبران عما سلف من كل ما أصابه قبل الفتح أن يتناساه الرسول ويستهينه وجاه الفتح المبين.

فأصبحت هذه الرسالة محفوظة عن كيد الكائدين بذلك الفتح المبين، ذنب واحد فتحه فتح واحد: ذنب بوحدته يشمل كل ذنب: فرسالته ودعوته ودعايته وهو بجملته، كان ذنباً كله بحساب الكافرين، فأصبح الفتح المبين غفراً له كله ﴿مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾: فتحاً لقوائم الإسلام الأربع: ﴿لِيَغْفِرَ ... وَيُتِمَّ ... وَيَهْدِيَكَ ... وَيَنصُرَكَ...﴾.

ومن قبل كانت تنزل عليه آيات تترى بهذا الشأن، آمرة له بالصبر: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾[1] ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾[2] ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾[3] وواعدة له الحكم: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[4] أو آمرة له بالاستغفار لذنبه وللمؤمنين: لرسالته الخطيرة وإيمانهم الخطير: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٣٥.
(٢) سورة القلم، الآية: ٤٨.
(٣) سورة الزمر، الآية: ١٠.
(٤) سورة الطور، الآية: ٤٨.

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾[1] ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾[2].

حيث النبي والمؤمنون معه كانوا في خطر المشركين طيلة العهد بمكة، وبعد الهجرة إلى فتح مكة، وقد أمر الرسول ﷺ أن يطلب هنا وهناك الفرج العظيم والغفر العميم، أن يذاد عنهم كوامن الشر، غفراً لهم وستراً عما كان يتهددهم بالانهيار، وقد استجاب له ربه فأنجز له وعده ونصر عبده وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده في فتح مكة، ليشيد له أركان الدعوة: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾ ومن ثم: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ . . . وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ. . .﴾!

وما ذنب الرسول محمد ﷺ هنا إلّا كذنب الرسول موسى: ذنب الرسالة وتطبيقها: ﴿وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾[3] فإن قتل القبطي المشرك، المقاتل للسبطي الموحد، لم يكن ذنب العصيان في دين الله، وإنما في دين الطاغية فرعون، ومن عقباه في الدنيا أن عقّب الرسالة الموسوية إلى أمد بعيد، إلا أن ذنب الرسالة الإسلامية عجل في تقدمها وشمولها بالفتح المبين.

فالذنب إذاً له مصداقان: أعلى الطاعة وأطغى العصيان، وإنما فاعله وقرائنه ومواصفاته، هي التي تقرر موقف الطاعة أو العصيان، وموقف الرسول الرسالي، ومواصفات الآيات لهذا الرسول الألمعي، ووحدة الذنب هنا طيلة الرسالة أو الحياة، ولزوم رباط وطيد بين فتح مكة وغفر ذنبه ما

---

(١) سورة محمد، الآية: ١٩.
(٢) سورة غافر، الآية: ٥٥.
(٣) سورة الشعراء، الآية: ١٤.

تقدم منه وما تأخر، أنها عساكر أقوياء أمناء تذود عن ساحة الرسول وصمة العصيان، وتختصه بأفضل مراحل الرسالة والإيمان!

إن الرسول محمد ﷺ - كان بهذا المعنى - من أذنب الخلق، ذنب العصيان عن ميول الطغاة بما جاء به في دعوته الباهظة لأهوائهم، الجاهزة لاجتثاث جذورهم، الدافعة عن حوزة الإسلام، التي أرغمتهم وحطتهم عن جبروتهم وطاغوتهم.

وما استعمال الذنب كثيراً في موارد العصيان[1] بالذي يحوله دوماً إلى العصيان، كما الإنسان لو استعمل كثيراً في الأشرار، لا يحُول ذلك دون استعماله في الأخيار، وإنما يتبع القرائن في مواردها، فيُعطى الحق في معاني هذه الألفاظ كما تعنى.

﴿... مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ فما كانوا يكمنون له من قبل ومن بعد صار مبتوراً بالفتح، وما أصابوه من قبل أو أرادوه من بعد صار مجبوراً بالفتح، فأصبح الفتح له مفتاحاً محبوراً لكل فتح.

ورغم ما فسر به الجاهلون ذنبَ الرسول ﷺ أخذ بعد الفتح في تعبده لربه أكثر مما مضى، فلو كان هو ذنب العصيان لعكس أمر الطاعة وتساهل عنها إذ غفر له ما تأخر كما تقدم، لكنه كان يجيب السائلين: «أفلا أكون عبداً شكوراً»؟ تفسيراً لذنبه خلاف ما فسروه واستغلوه، وتبكيتاً لمن يستغل سوء التفسير ذريعة للإباحية واللامبالاة، كلا فإنه ﷺ استفاض بعد ذلك

(١) الحق أن تفسر لغات القرآن كما كانت تُعنى منها وقت النزول، حيث اللغات قد تجر معها معانٍ أخرى على طول الزمن وتختلف الاستعمالات، وقد ذكر الذنب في القرآن بمختلف الصيغ ٣٧ مرة والذنب مرتين وهذا هو أصل الذنب كما عن الراغب في غريب القرآن، والأول قد يعنى منه الطاعة أو المعصية وقد تعمهما، وكل حسب القرائن الدالة، وما المستعمل في العصيان هنا أكثر من غيره مهما كانت الاكثرية الساحقة يعنى العصيان في غير القرآن.

من معين الرحمة أمعن مما مضى وأمتن، إذ «صام وصلى حتى انتفخت قدماه وتعبد حتى صار كالشن البالي فقيل له أتفعل هذا بنفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً»[1] وليست شاكرية العبد في عبادته بالتي تجعله كالشن البالي ومتورم القدمين، لو كان غفر ما تأخر من ذنبه، عفواً عن مطلق عصيانه، كضمان له فيما يأتي كما ضمن ما مضى، إلا عند من غرب عقله وعزب لبّه!.. وإنما زاد في شكره لربه لنعمة الفتح المبين.

﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ وهذه هي الدعامة الثانية لعرش الدولة الإسلامية: «إتمام النعمة» فإن النعمة ابتدأت بالإسلام منذ بزوغه، ولكنها كانت سجالاً: خليطة بالغُمة للأمة والنقمة لرسول الأمة، إذ كانت الغوائل من هنا وهناك تترى عليه وعليهم تباعا تلو بعض، وإن كانت في المدينة أقل.

إنه كان نعمة التأليف والوحدة فأكملت بفتح مكة الذي وحّد الجزيرة عن آخرها ثم إلى غيرها: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾[2].

---

(١) الدر المنثور ٦: ٧١ - أخرج ابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات وابن عساكر عن أبي هريرة أن النبي ﷺ لما نزلت ﴿إِنَّا فَتَحْنَا...﴾ صام و..

ومن طريق أهل البيت عليهم السلام عن الإمام الرضا عليه السلام في جوابه للمأمون إذ سأله: يا بن رسول الله ﷺ! أليس من قولك إن الأنبياء معصومون؟ قال: بلى - قال: فما معنى قول الله - إلى أن قال -: فأخبرني عن قول الله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾؟

قال الرضا عليه السلام: لم يكن أحد عند مشركي مكة أعظم ذنباً من رسول الله ﷺ لأنهم كانوا يعبدون من دون الله ثلاثمائة وستين صنماً فلما جاءهم بالدعوة إلى كلمة الإخلاص كبر ذلك عليهم وعظم وقالوا: اجعل الآلهة إلهاً واحداً... فلما فتح الله على نبيه مكة قال له: يا محمد! ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ١-٢] عند مشركي أهل مكة بدعائك توحيد الله فيما تقدم وما تأخر، لأن مشركي مكة أسلم بعضهم وخرج بعضهم عن مكة ومن بقي منهم لم يقدر على إنكار التوحيد إذا دعى الناس إليه، فصار ذنبه عندهم في ذلك مغفوراً بظهوره عليهم فقال المأمون: لله درك يا أبا الحسن عليه السلام!.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

وكان نعمة الغلبة أحياناً وسجالاً فأصبحت الآن تامة لا تفسح لأحد مجالاً في حربهم: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾(١) وأما الآن فلا أيدي معادية تبسط أو تهم، إذ قطعت بفتح مكة، ومن قبل كانت تهم وتبسط، وإن كانت تكف بجنود إلهية غير مرئية أم ماذا: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾﴾(٢) كما كان يوم الأحزاب.

وأخيراً إكمال الدين أحكامياً، وتخليداً للدولة الإسلامية بتأبيد زعامة سليمة تقطع طموح من كانوا يتحينون فرصة الانقلاب بموت الرسول، تخليدها بذلك الانتصاب الكبير يوم الغدير، راجعاً عن حجة الوداع: ﴿... الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا...﴾(٣) إكمالاً في جانبي الشريعة وزعامتها الخالدة، فيأساً للذين كفروا من إفنائها أو اغتصاب واحتلال زعامتها، اللهم إلا تدخلاً جانبياً لا يجتثها من جذورها، إلا أن يخرجوا عن الدين، ولكنه مدعم بهاتين الدعامتين مهما تركته حملته، فبناية الدعوة مدعمة بما يضمن بقاءها كما فعل الله، ولكنها لا تضمن إلا لمن تضمنها كما أراد الله، ثم تتهدم في نفوس صغار صغار لا يتضمنونها، وهي باقية في كتاب الدعوة، في ضمير الكون وعمقه! مجالاً واسعاً لمن يتحملون ويتضمنون: تطبيقاً لها بزعامتها السليمة كما بدأت بالبشير النذير، وكما تخلدت يوم الغدير.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١١.
(٢) سورة الأحزاب، الآيتان: ٩، ١٠.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٣.

﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾: كدعامة ثالثة لعرش الرسالة، وترى أن صاحب الرسالة لم يكن على صراط مستقيم منذ الدعوة إلى ثامنة الهجرة التي فيها فتحت مكة، ومن ثم اهتدي إلى صراط مستقيم؟!، وهو أول معتصم بالله ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[(١)] وهو أفضل مهدي إلى صراط مستقيم طول الرسالة: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ...﴾[(٢)] بل وهو على صراط مستقيم محيطاً عليه لزاماً به: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾﴾[(٣)] كيف لا ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[(٤)]!.

في الحق أن الصراط المستقيم له درجات وجنبات، فأولى الدرجات هداية الدلالة له وقد هدي صاحب هذه الرسالة منذ البدء، وقبل الرسالة كان مهدياً إليه خاصاً لنفسه حتى تهيأ للعالمين، ثم الهداية الثانية هي الاستمرار عليه مستزيداً فيه بعصمة إلهية، بعد محاولات بشرية ورسولية، وهو دوماً دون انقطاع بحاجة ماسة إلى هذه العصمة،: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾[(٥)] وهذه الدرجة هي التي يطلبها هو والمؤمنون - على درجته ودرجاتهم - في صلواتهم ليل نهار: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[(٦)] ثبتنا وأدم لنا توفيقك، فلو شاء الله لذهب بالذي أوحى إليه فإنه ليس لزاماً للرب إلا بما كتب على نفسه الرحمة: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾[(٧)].

هذا - ولكنما الدرجة هذه لا تختص بما بعد الفتح، فإنه مهدي بها

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠١.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٦١.
(٣) سورة يس، الآيات: ٢-٤.
(٤) سورة الشورى، الآية: ٥٢.
(٥) سورة الإسراء، الآية: ٧٤.
(٦) سورة الفاتحة، الآية: ٦.
(٧) سورة الإسراء، الآيتان: ٨٦، ٨٧.

على طول الخط، فإنما الاختلاف قبل الفتح في الجنبات لا الدرجات: صراطاً مستقيماً للداعية في الدعوة، حيث أزيلت الشبكات والأشواك والعقبات عن طريقها بفتح مكة، وصراطاً مستقيماً لتقبل الدعوة الإسلامية، حيث الفتح فتح سبيلاً واسعاً لمن كانوا في شك من صاحب الدعوة، وصراطاً مستقيماً في تكميل الدين وإتمام النعمة وكما حصل بفتح مكة، وصراطاً مستقيماً في العبادة وتطبيق الشريعة إذ زالت عنهم التقية، وانقلبت على المشركين، إذ أسلم كثير منهم، مهما نافق آخرون عائشين تحت الرقابة الإسلامية ورايتها ورعايتها.

﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ كدعامة رابعة لهذه الدولة السامية، نصراً في كافة الميادين، وإلا فإنه والنبيون معه منصورون ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾[1] لا هم فحسب، بل والمؤمنون أيضاً، ولا في الآخرة فحسب بل في الأولى أيضاً: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾[2].

هذا - ولكنما النصر الموعود عزيز، مهما كان سواه له ولسواه سجالاً قبل الفتح: قد يَغلبون وقد يُغلبون هنا في الأولى، مهما كانوا غالبين معنى وفي الآخرة، فكل نصر لكل منصور قبل الفتح المبين كان عضالاً وسجالاً فيه مجال قل أو كثر لأطراف النضال، وأما بعد الفتح فنصر عزيز يتغلب كافةَ الحركاتِ المضادة في الجزيرة وحولها زمن الرسول، والزمن التي كانت الدولة الإسلامية - أو تكون - ناحية منحى الرسول، اللهم إلا في فيما شذَّت عنه فتشذ عن النصر العزيز ولحد قد يتغلب العدو الكافر المستعمر فلا نصر فضلاً عن العزيز فـ ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[3].

---

(١) سورة الصافات، الآيات: ١٧١-١٧٣.
(٢) سورة غافر، الآية: ٥١.
(٣) سورة محمد، الآية: ٧.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾:

ما هي السكينة وعلى من تنزل؟

إنها حالة روحانية إيمانية[1] تنزل على قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم واطمئناناً مع اطمئنانهم، تستكن فيها فتُطَمئنها وتسكنها[2] عما ربما تردها من فورات واضطرابات تجيش بشتى المشاعر وتستجيش مختلف المظاهر، إذ تلقي ظلالاً كريمة على هذه القلوب من نور، فتصبح نوراً على نور فتظل في ظلها طمأنينة وراحة، يقيناً وثقة، زيادة عما كان من الإيمان.

فلا مهبط - إذاً - لسكينة الإيمان إلا الإيمان على درجاته وجنباته وحالاته، ويشترك فيها المؤمنون أجمع، كلٌّ حسب قابلياته ومتطلباته، نزولاً من أعلى الإيمان كما للرسول ﷺ إلى أدناه كما لأدنى المؤمنين، وصعوداً من أدناه إلى أعلاه وبينهم متوسطات، فلا تشذ قلباً من هذه وتلك إلا وتنزل فيه ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ﴾.

إن السكينة في القرآن نجدها في صنوف مثلثة من الآيات: بين نازلة على المؤمنين كما في ثلاث: هذه، وأخرى هنا ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[3] وثالثة: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ...﴾[4].

وبيّن شاملة للرسول والمؤمنين في اثنتين: هنا وفي التوبة: فأنزل الله - ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[5].

---

(١) تظافرت الأحاديث عن الصادقين ﷺ بكلمة واحدة أن «السكينة هي الايمان».

(٢) هي الفعلية بمعنى الساكنة أو المسكونة لأنها تلازم القلب وتسكن فيه لتسكُنه عن اضطراب.

(٣) سورة الفتح، الآية: ١٨.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٤٨.

(٥) سورة التوبة، الآية: ٢٦.

وبيّن خاصة بالرسول ﷺ في التوبة - أيضاً - تاركة صاحبه في الغار دون أية سكينة: ﴿... إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾[1].

ترى لماذا يحرم هذا اليتيم في هذه اليتيمة عن السكينة وهو صاحبه ﷺ في الغار، وعلى أمسّ الحاجة إليها إذ حزن لحد نهاه الرسول ﷺ عنه: «لا تحزن» في حين تنزل على الرسول ﷺ ولم يحزن؟![2] أنا لا أدري!

ثم: الإيمان عمل كله والقول بعض ذلك العمل.. حالات درجات وطبقات ومنازل، فمنه التام المنتهي تمامه، ومنه الناقص المبيَّن نقصانه،

(١) سورة التوبة، الآية: ٤٠.

(٢) قد يذاد هنا عن ساحة الخليفة بأنه النازل عليه السكينة هنا فإنه الذي حزن ولكي تكمل صحبته بإيمانه - وترى كيف يختص الله أبا بكر بسكينته وإنزال جنود عليه غير مرئية وجعله كلمة الله العليا - ثم يحرم رسوله عن هذه وتلك، وهو الذي تنزل عليه سكينة العصمة والطمأنينة دوماً - مع المؤمنين ومنفرداً كما مضت آياته.

ثم ترى من هو المضمر في «إلا تنصروه» إلا الرسول ﷺ فهو هو إذاً المنصور في الغار «من داخل قلبه»: بإنزال السكينة عليه «و من خارجه» بتأييده بجنود غير مرئية، وجعله كلمة الله العليا: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ...﴾ [التوبة: ٤٠] ولم يأت ذكر الخليفة أبي بكر إلا هامشياً ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ﴾ [التوبة: ٤٠] ثم نرى أن الرسول هو ركن الكلام هنا وهناك « - إلا تنصروه ٢ - فقد نصره الله ٣ - إذ أخرجه.. ٤ - ثاني اثنين ٥ - إذ يقول ٦ - لصاحبه».. وبعد هذه الستة الصريحة في الرسول ﷺ ما هذا الذي يحول وجه الكلام ونتيجة النصرة: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا... وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا...﴾ [التوبة: ٤٠] يحول هذا المثلث البارع من نصر الله الموعودة المحققة - عنه إلى صاحبه، أتحويلاً لمهمة الرسالة عن الرسول ﷺ إلى صاحبه في الغار ترفيعاً لساحة الخليفة، وتخفيضاً لساحة الرسالة.

أو تحفظ الكرامتين أن «عليه» هو صاحبه الذي نزلت عليه السكينة ثم ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا...﴾ هو الرسول المؤيد بجنود مرئية - ولكنك تحط من كرامة الفصاحة القرآنية: إن ضميرين تلو بعض كل يرجع إلى كل منهما دون قرينة تدل! أللهم إلا أن تحسبهما واحداً كأن الرسول هو صاحبه، فليفرد ضميرهما ويردفا؟ أنا لا أدري! ولا يمكن تفهم معنى الآية إلّا بعد التحلل عن التعصبات الراسبة!.

ومنه الراجح الزائد رجحانه: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ...﴾[١] ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾[٢] فبتمام الإيمان دخل المؤمنون الجنة، وبالزيادة في الإيمان تفاضل المؤمنون بالدرجات عند الله، وبالنقصان دخل المفرطون النار»[٣].

إذاً فالسكينة النازلة على الرسول عصمة وتسديد يحتاجه الرسول دوماً كبشر وكرسول، مهما كان في أكمل الإيمان، والنازلة على من دونه لاستكمال الإيمان، أو الحفاظ على الإيمان في هجمات الاضطراب التي تهدد كيان الإيمان، ومن ثم إذ لا سكينة فلا إيمان، وإنما كفر أو إسلام نفاق أو ما لم يصل بعد إلى إيمان: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾[٤].

وواقع السكينة في صلح الحديبية هي مجمع حفاظ الإيمان وزيادته - وإن كان النص أجمل عن حفاظه إلى زيادته - إذ كان البعض في ذلك الجو الخطير في خطر الخروج عن الإيمان، كمن يخاطب الرسول بحمية: «لِمَ تعطي الدنية في ديننا»؟ فيجيبه الرسول ﷺ: «أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني»! ثم الآخرون تزدادهم السكينة إيماناً على إيمان حيث صمدوا وصابروا على عضال المحنة فلم يشكوا، وأما الرسول فهو القمة في الإيمان، فلا يحتاج هنا إلى سكينة، اللهم إلّا عصمة وتسديداً يحتاجه في كل زمان ومكان، ولذلك لا يردف هو بالمؤمنين هنا.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٤.

(٢) سورة الكهف، الآية: ١٣.

(٣) ملتقطات من حديث مفصل حول مراتب الإيمان عن الإمام الصادق عليه السلام (نور الثقلين ٥: ٥٩ عن أصول الكافي).

(٤) سورة الحجرات، الآية: ١٤.

لقد مرت على المؤمنين في الحديبية مواقف مُرة عملت في قلوبهم ما عملت، من تطلُّع إلى تصديق رؤيا الرسول ﷺ: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ. . .﴾ إذ حسبه بعض أنه الآن، وكما يروى عن الخليفة عمر أنه جاء الخليفة أبا بكر مهتاجاً ثائراً بقوله: أليس كان يحدثنا أنه سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى! أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قال: لا . . فتركه إلى النبي ﷺ فسأله سؤاله فأجابه: أفأخبرتك أنك تأتيه العام؟ قال: لا . . قال رسول الله ﷺ: «فإنك آتيه ومطوف به».

فهذه الصورة التي تزعزع أركان إيمان الخليفة عمر، ترى ماذا تفعل بمن دونه، فإنما السكينة في قلبه وأمثاله حفاظ على الإيمان، وفي قلوب المؤمنين فوقه ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ. . .﴾ ولم يكن الأمر - الذي انتهى إلى الصلح الفتح - لم يكن هيناً على نفوسهم، فأصبحوا - على درجات إيمانهم أم ماذا - في تضيُّق من صدورهم وقلوبهم، وضغط على نفوسهم، حتى أنزل الله السكينة في قلوبهم فارتاحوا إلى طمأنينة والحمد لله!.

وإضافة إلى السكينة الإلهية النازلة في قلوب المؤمنين كجند إلهي في دواخل ذواتهم، التي تطمئنهم في الهزاهز، فجنود السماوات والأرض كذلك مجندة من خارج ذواتهم لنصرتهم: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فما هي جنود السماوات والأرض، أو مَن هم؟

ليس الله سبحانه كمن يجند من لا طاقة له بمُرامه، أو لا يمشي إلى مَرامه، أو يقلُّ بجنب عدوه، فالكون كله جنوده، مما يُرى وما لا يرى، من سماوات وأرض ومَن أو ما فيهما أو بينهما، فلا يملك أعداءُ الله على كثرتهم في حسابنا، لا كثيراً ولا قليلاً من عِدة أو عُدة، بجنب ما يملكه الله من جنود، تكفي طيرهم الأبابيل أن ترمي أصحاب الفيل بحجارة من سجيل، تجعلهم كعصف مأكول! ولكنما السُّنَّة الإلهية جارية في نطاق

الأسباب، فلا يرسل جنوده إلا لنصرة من جنّد طاقاته كلها في سبيل الله، دونما كسل ولا زحف ولا فشل، وبعد إذ كلّت قواهم، فقد يبعث جنوداً: إلى قلوبهم كالسكينة، وإليهم كجنود مرئية وسواها بما نبه عليها في طيات آيات تتحدث عن النصر الآية الكرامة، في ميادين النضال الكرامة: ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾[1] ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا...﴾[2] ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا...﴾[3]!.

وتُرى مَن الذي يعلم جنود الرب إلّا هو، بعدَدهم وعُددهم؟: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾[4] ليس لأن الله بحاجة إلى جنود هي خلقه الفقراء إليه، لولاهم لما تغلّب على أعدائه، وإنما هي ذكرى للبشر، وكمناصرات عينيه تبصر، أو لا تُرى ولا تُبصر ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ قبل خلق الجنود وبعثهم وبعده: عليماً بضعفكم، حكيماً في جبركم بنصركم، ومن حكمته أن يرسل جنوداً لكي نلمس نصره، فلا نستغله - لو كان مجرد مشيئة إلهية - أنه منّا، أو أن خلقه يتمنّع عن تحقيق أمره في نصره، فجنوده تجنَّد على علمه وبحكمته، ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾[5]!:

ثم هذا الفتح المبين، وإنزال السكينة - قبله - في قلوب المؤمنين، وإرسال جنود سماواتية وأرضية، إنها تهدف ضمن ما تهدف من تعزيز الرسول الأمين:

﴿لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ

(١) سورة التوبة، الآية: ٤٠.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٩.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٢٦.
(٤) سورة المدّثر، الآية: ٣١.
(٥) سورة المدّثر، الآية: ٣١.

وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾:

جنود إلهية هنا بعزّة الله وحكمته: حكمة الغلبة على عدوه بعد عزته، وهناك بعلمه وحكمته: حكمة الانتصار لعباده بعد علمه، تحتف بالمؤمنين والمؤمنات لإدخالهم جنات، وبمن سواهم لإدخالهم دركات، كما جنَّد كلَّ نفس لما إليه المصير، والله بما يعملون بصير.

ثم وهذه السكينة وذلك الفتح المبين هما للمؤمنين والمؤمنات عذْبٌ وللمنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات عذاب فوق العذاب، والله شديد العقاب!

هناك للنبي والمؤمنين بعد السكينة والفتح المبين أربع درجات والى الجنة، وهنا للمنافقين والمشركين أربع دركات وإلى النار هي: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ - وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ - وَلَعَنَهُمْ - وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ أربع وجاه أربع وأين أربع من أربع؟: درجات ودركات!

وترى لماذا يتقدم دخول الجنات على تكفير السيئات، ولا دخولَ في الجنات إلا بعد تكفير السيئات؟ علّه لأنه الأصل المقدم في المنزلة، مهما كان مؤخراً في المنزل: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾: تكفيراً للسيئات ومن ثم دخول في الجنات! ثم وهنا وهناك: عظيماً في حساب الله، عظيماً في الحق، عظيماً في نفوس من ينالونه، وعظيماً في الأولى وعظيماً في الأخرى!

ترى وكيف يتقدم المنافقون والمنافقات على المشركين والمشركات؟ كأنه لأن درك النفاق أسفل من درك الشرك: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[1] فإن المنافق أقرب خطراً وأصعب وقعاً على المؤمنين من

(١) سورة النساء، الآية: ١٤٥.

المشرك، فإنه متظاهر بما بطن فيُفر منه ويُجتنب، وذلك يتظاهر خلاف ما بطن وهنا الويل!.

ثم هما مشتركان في ظن السوء بالله، مهما اختلفت دركاته، حسب دركات الشرك والنفاق وضعف الإيمان، كما حصل من الخليفة عمر في خطابه الهائج للرسول ﷺ في صلح الحديبية: «لِمَ تعطي الدنية في ديننا»؟ وكقولته الثانية له ﷺ: «أليس كنت تحدثنا أنه سنأتي البيت ونطوف»؟ فإنهما من ظن السوء بالله كأنه خالف وعده، وظن السوء برسول الله أنه أعطى الدنية في دين الله، وترى أن الله يبعث رسولاً يعطي الدنية في دين الله؟!.

﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾(١) وهم المخلفون من الأعراب، وكل ظن بالله غير الحق هو ظن السوء وإن كان دركات ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ. . .﴾(٢).

وفي الحق أن قلب المؤمن وسواه متقابلان في الظن بالله، حسب درجات الإيمان ودركات اللاإيمان، فالقلب المؤمن دوماً يتوقع الخير من الله، لأنه موصل النياط ومربوط النيّات بالله، وفيض الخير لا ينقطع من قِبَل الله، والقلب المقلوب غير المؤمن مقطوع الصلة بالله، يتوقع الشر منه إليه وإلى المؤمنين أيضاً، دونما ثقة بالله إذ لا نياط له ولا نيّات تربطه بالله، فـ ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾:

دائرة سوء على المنافقين والمشركين كما هنا وأخرى تخص المنافقين ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٣).

---

(١) سورة الفتح، الآية: ١٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٩٨.

وهذا إخبار إنذارٍ من الله وليس دعاءً رغم ما يُزعم، فمن هو المدعو لله في دعائه لو دعى؟ وليست الدعاء إلا فقراً وقصوراً عما يرام، فتدعو من يحقق المَرام، وليس الله عاجزاً عن تحقيق ما يرام، ولا إله فوقه حتى يدعوه، أو معه حتى يشاركه فيما يدعوه، كلا! وإنما هو إخبار أن السوء - كل سوء - يدور حولهم ما عاشوا وبعد موتهم، لزام ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ الذي يظنونه من الله وعلى المؤمنين، وإنما عليهم بما قدمت أيديهم وإن الله ليس بظلام للعبيد.

ومن ثم ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ لحد لا ترجى رحمته إذ ﴿وَلَعَنَهُمْ﴾: أبعدهم عنه فلا يرجى قربه حتى يعفو عنهم، وأخيراً ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾.

ثم إن السوء قد يكون في زاوية من زوايا الحياة هنا وفي الأخرى، وقد يعيش الحياةَ وتعيشه متعرقاً مندغماً في أهله كدائرة مائرة تدور حولهم بما رسموها، كما الخطيئة المتكررة كذلك تحيط بالخاطئ وتدور: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1] وكلما كانت أسوأ وآكد فإحاطته أحوط وأخلد، وترى إذا كانت هي ظن السوء بالله، وهو من أسوأ الكفر بالله، فكيف إذاً تكون دائرة السوء؟ إنها تلحقها ثالوث الغضب واللعنة وجهنم المصير، ومن ثم:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ⑧﴾:

.... رسالة عالمية خالدة تنحو منحى مثلث الدعوة المباركة: ﴿شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ تكافح ثالوث النفاق والشرك في دركات الغضب واللعنة وجهنم المصير، ثلاث بثلاث، وأين ثلاث من ثلاث!

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٨١.

ثم هنا زيادة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾﴾(١): دعوة وضاءة كسراج منير بهذه الثلاث، كما وأن هذه الشهادة تمكين لهذا البشير النذير: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾(٢) فشهادة الداعي السراج المنير تقوية له كبشير نذير:

﴿شَٰهِدٗا﴾ يشهد لله برسالته، بقوله وعمله وتقريره، فإنه على بينة من ربه، وهو بنفسه آية معجزة إلهية، كذلك وبقرآنه المبين، فقرآن محمد ومحمد القرآن آية شاهدة واحدة بمظهرين، وقد كان خُلقه القرآن، وكله قرآن، لو قرأت صحيفة حياته وصفحة حركاته وسكناته فقد قرأت القرآن كله، فإنه القرآن كله.

و﴿شَٰهِدٗا﴾ لله وعلى المرسلين برسالاتهم، وعلى الناس برسالته، وشاهداً على أعمال الناس صالحة وطالحة برقابته، يتلقاها بما يلقيها إياه ربه، ثم يلقيها يوم يقوم الأشهاد(٣) شهادة مربعة رائعة في زواياها، كاملة في قضاياها، كافلة مزاياها: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا﴾(٤).

﴿وَمُبَشِّرٗا﴾ من يتبعونه ويطيعونه إلى الله برضوان من الله، ونصر في الدنيا والآخرة، وبكافة الرحمات الإلهية الموعودة للمؤمنين، ولكي يرغبوا إلى الإيمان بدليلي الشهادة والبشارة وذلك لمن ﴿أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾(٥).

﴿وَنَذِيرٗا﴾: من يتخلفون عنه، تسييراً، أو يتباطؤون، فتسريعاً، أو يستزيدون فاستزادة الإيمان، ولكي تكمل هذه الرسالة السامية في زوايا

---

(١) سورة الأحزاب، الآيتان: ٤٥، ٤٦.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٠٥.
(٣) تدلنا على هذه الشهادات آياتها التي تجعل الرسول محمداً ﷺ شهيد الشهداء.
(٤) سورة المدّثر، الآية: ١٥.
(٥) سورة قٓ، الآية: ٣٧.

الشهادة والتبشير والإنذار، وفي كلٍّ تتوفر البراهين القاطعة التي تزوي عن زواياه كل شبهة وريبة.. وترى لماذا هذه الرسالة المثلثة المدعمة بهذه الدعائم القوية:

﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾:

نتائج أربع على ضوء هذه الرسالة الشاهدة المبشرة المنذرة: إيمان بالله ورسوله، ومن ثم تعزير الله وتوقيره وتسبيحه، طالما الأخير خاص بالله، والإيمان والتعزير والتوقير تشمل رسول الله ﷺ: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1] ولأن الأصل في المكانة والكلام هو الله فليرجع إليه ضمائر التعزير والتوقير والتسبيح، ولأن الرسول يحمل رسالة الله فليشمله ما سوى التسبيح الخاص بالله، شمولاً هاشمياً على ضوء رسالة الله.

والتعزير - خلاف ما قيل - ليس هو مطلق النصر إذ يقابله في آية النصر: ﴿وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ فهو النصر العزيز، خلاف النصر غير العزيز، فقد يُنصر على ذل كما المؤمنون في جبهة بدر: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾[2] وقد ينصر على عز وهو بحاجة إلى نصر كما الرسول يُنصر: ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾، وقد ينصر على عزته لا لحاجة إلى نصر كما الله ينصر: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[3] فإنه نصرة لدين الله وليس المنصور هو الله، والنصر لغير الله دوماً نصرٌ مغلوب، عزيزاً أو ذليلاً: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾[4] وهو لله نصرٌ غالب عزيز، فالتعزير هو النصر العزيز

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٢٣.
(٣) سورة محمد، الآية: ٧.
(٤) سورة القمر، الآية: ١٠.

لغالب كما الله، أو مغلوب كالمكرمين من عباد الله دون الذليل، ومطلق النصر يشمل النصر الذليل كما يشمل العزيز غالباً ومغلوباً.

والتوقير هو التعظيم اللائق بمقام العظيم: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾[1] فتوقير الله هو تعظيمه كما يحق له في ساحة الألوهية، وتوقير الرسول تعظيمه على حده وحدود رسالته، فلو سويت بين الله وبين أحد من خلقه لما وقرته فإنه ضلال مبين: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ وإن كان المسوى به رسول رب العالمين.

ومن ثم - بعد الإيمان بالله ورسوله، وتعزير الله وتوقيره، يأتي دور دوار التسبيح مراساً له ليل نهار بكل حراس واكتراس: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾: لا خصوص البكرة والأصيل، ثم إهمالاً في البين، إنما توصيل الأصيل بالبكرة والبكرة بالأصيل، أن يعيشوا حياتهم ليل نهار في تسبيح العزيز الغفار، وأنه يشمل تسبيح الصلوات واجبات ومندوبات وسواها من تسبيحات.

ف ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ - إذاً - هي كناية عن اليوم كله، فإن طرفي النهار يضمان ما بينهما من آونات، اتصالاً للقلب بالله على أية حال، كثمرة نهائية للإيمان بالله ورسوله، وهذه الحالة التجردية الراقية هي التي تفتح طريقاً للسالك إلى مبايعة الرضوان:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾:

المبايعة هنا هي مبايعة شجرة الرضوان في صلح الحديبية: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[2].

---

(١) سورة نوح، الآية: ١٣. (٢) سورة الفتح، الآية: ١٨.

ثم المبايعة منها البيع المتقابل بين اثنين، ترتكن على مبايع ومبايع له وسلعة وثمن للمبايعة، وهنا المبايعون هم المؤمنون، والمبايع له هو الرسول كرسول، وهو الله كمرسل دافع للثمن، والسلعة هي أنفسهم وأموالهم والثمن بأن لهم الجنة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[1]. أو وفوق ذلك: جنة الرضوان: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ . . .﴾[2].

ومنها مبايعة البيعة: نوع من الميثاق ببذل الطاعة، وبايع السلطان إذا تضمن بذل الطاعة له إذا رضخ له، ويمثلها في العادة وضع يدي المتبايعين على بعض إنجازاً للبيع، ومبايعة المؤمنين تحت الشجرة تضم كلتا المرحلتين أن باع المؤمنون أنفسهم وأموالهم لله، واضعين أيديهم على يدي رسول الله ﷺ بأنهم يبايعون الله، فما هو إلا رسول! فإن: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ﴾ يده كمشتر في هذه المبايعة وكمبايع له في هذه البيعة، فهي - إذاً - يد المبايعة البيعة، إنجازاً للبيع وإيفاءً للبيعة دون أن تكون هنا أو هناك جارحة، اللهم إلا للرسول والمؤمنين في تمثيل البيعة.

فطالما هم يبايعون الرسول تحت الشجرة فـ ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ إلا أن هناك أيدٍ من تحت للمبايعة هي أيدي الرسول والمؤمنين، ويدٌ من فوق هي الأصل في المبايعة: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ﴾ وليست هي ثالثة تشاركهم في المبايعة، وإنما تؤيدهم وتنجز لهم: للرسول ﷺ قبولاً لها، وللمؤمنين إقبالاً إليها، فهي يدٌ فوق الأيدي ولا تزال في كل مجال، ولكنها في مجال

(١) سورة التوبة، الآية: ١١١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٠٧.

البيعة ما دام الوفاء: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ إذ يرفع الله هنا يده فلا تأييد ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾: ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ . . . . وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[١] فإن الله يحب الوفاء والأوفياء، ولا يحب الناقضين اللعناء.

ثم اليد ليست هي الجارحة فحسب، إذ تستعمل في كل ما للجارحة من أخذ وعطاء وقوة ورحمة وحنان وسلطان أم ماذا؟ لحد غلب استعمالها في غير الجارحة وقل فيها[٢] فالمتبع هي القرينة التي تدلنا على المعني منها، ومن القرائن القاطعة صاحب اليد بكيانه، إن كان يصاحب يداً جارحة فجارحة أحياناً وغيرها أخرى كـ ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾[٣] أو كائن من خلق الله ليست له يد الجارحة: كرحمة الله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾[٤] أم ماذا؟ فلا تعني له هنا وهناك إلا يد غير جارحة، فما ظنك برب العزة في يده ويديه وليست له أية جارحة «لا يُحس ولا يُجس ولا يُمس ولا يدرك بالحواس الخمس» ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾[٥] أتظن - بعد - أن له يداً كالأيدي الجارحة ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾! فوقية الذات والفعل والصفة، وفوقية الإنية والكينونة، فوقية تخرجها عن ذوات الخلق وأفعالهم وصفاتهم، عن مادياتهم

(١) سورة التوبة، الآية: ١١١.

(٢) في مائة وعشرة موارد تذكر اليد في القرآن بصيغها المختلفة لا نجد إلا قليلاً يعني منها اليد الجارحة، زهاء ٢١ - أو - ٢٢ موضعاً اي: ٢٠ / ١٠٠ إذاً فمع عدم وجود القرائن لنا أن نشك في أنها جارحة أو نتأكد أنها ليست يد الجارحة، فكيف إذا تواترت عساكر القرائن القاطعة، لفظية ومعنوية وعقلية: إن يد الله لا يمكن أن تكون جارحة إلا لمن غرب عقله وخرب حسه!.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٣٧.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٥٧.

(٥) سورة الأنعام، الآية: ١٠٣.

- وحتى - عن معنوياتهم فـ ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾[(١)] بأية مماثلة وفي أي شيء، فهل تظن بعد أن له سبحانه يداً جارحة - أو تزيد قولك - كما يناسب ساحته، زعماً أن هذه القولة الفارغة تنفي عنه جارحة الجارحة! وليس هذا إلا كالقول إنه يجهل كما يناسب علمه، ولا مناسبة بين الجهل والعلم، ولا تناسبه تعالى أية جارحة، فليست القولة الأفيونة العفنة: (كما تناسب ساحته) بالتي تصحح الغلطة المستحيلة: أن له يداً جارحة، فالأوصاف والحالات المستحيلة الذات بالنسبة لساحة الألوهية لا تصح مهما بالغت في التنزيه إلا جمعاً بين النقائض، أن تجمع له سبحانه بين الكمالات والنقائص، فلا تناسبه على أية حال يد الجارحة فإنها جارحة لمحتد الألوهية! وإنما المناسب يد القدرة: ﴿قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾[(٢)] ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾[(٣)] والملك والملكوت لا ينالان بيد الجارحة! أو يد العطاء والفضل: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾[(٤)] أو يدا الإمساك والبسط: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾[(٥)] أو أية يد أو يدين سوى الجارحة، وفوق سائر الأيدي فإن ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ والله يكلمنا بلغتنا في عرفنا كناس، طالما النسناس الذين لا يفهمون لغة الناس اثّاقلوا في تفسير يد الله إلى أيدي الناس! والمفروض على الناس أن يجردوا ما لله عما للناس وسواهم من خلق الله، يد أو سواها فـ ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾!

وهذه الآية الفريدة في نوعها وسبكها تفسر يد الله ويديه في آياتها، أنها

---

(١) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٨٨.

(٣) سورة الملك، الآية: ١.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٧٣.

(٥) سورة المائدة، الآية: ٦٤.

فوق الأيدي، لا فوقية الجهة إذ ليست له جهة، وإنما فوقية الذات والصفات خارجة عن الحدود والجهات، فوقية تجعلها ليست كمثلها يد ولا هي تماثل أية يد كما الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾.

فـ ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾: هنا في البيعة والمبايعة، وهنالك وهناك في القدرة والرحمة، والعذاب والمغفرة، والملك والسلطة، والقبضة والبسطة، وفي كل ما لها من ذات وأفعال وصفات، فوقية مثلثة تفصلها عنها في كافة الجهات.

ثم المبايعة لا تختص بخلفياتها، المؤمنين زمن الرسول، فإنها مبايعة الله، فطالما الرسول يموت فالله تعالى حي لا يموت، فبالإمكان تحقيق هذه البيعة وتلك المبايعة منذ الرسول إلى يوم الدين، كما النكث والوفاء يشملان طول الزمن وعرضه، أرضه وسمائه، جنه وأنسه أمّن ذا؟.

كما وأن رضوان المبايعة من الله للمؤمنين المبايعين، ليس لزاماً عليه لهم وإن نكثوا أو نكصوا على أعقابهم، بل إن آية النكث والوفاء تشير إلى أن هناك - بين المتبايعين - ناكثين وأوفياء:

﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾: لا على ربه ولا الرسول، حيث النكث نكص عن رحمة الله، ونفث في عقد من نقمة الله، وصورة البيعة الرائعة تفرض عليهم الوفاء لصالحهم، وتستأصل للمؤمن كافة خواطر النكث مهما غاب الرسول، فإن المرسِل باقٍ لا يزال ولا يزول!.

وقد توحي ﴿نَّكَثَ﴾ بمضيها، بتحقق النكث وعله منذ المبايعة - مهما كان خفياً - ثم ظهوره مستقبلاً في تقلب الأحوال، إذ عنده تظهر حقائق الرجال.

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾: فإن الله وفي يحب الوفاء والأوفياء.

ثم المبايعة هذه تشمل عقيدة الإيمان وعمله وجهاده، سمعاً وطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وعلى النصرة أن يمنعوا الرسول والمؤمنين مما يمنعون منه أنفسهم وأزواجهم وأبناءهم، فمنهم من نكث ومنهم من أوفى:

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَاۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢاۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَاۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًاۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾

بعدما تمت بيعة الرضوان تحت الشجرة، مع الإشارة إلى مخلفين عنها، ناقضين لها: ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾. . . هنا التفات بالحديث نصاً ناصعاً عن المخلفين وعن الموفين الموافين معاً: تنديداً شديداً بالمخلفين يضم ملاحم

الغيب إخباراً مسبقاً عن سوء سريرهم ومصيرهم ولمّا يظهر ولا حان حينه، أنباء غيبية تنبئ النبي والمؤمنين من ذي قبل حتى يأخذوا عنهم حذرهم، ولا يرتكنوا إليهم بجواذب الادعاءات الجوفاء، يفضحهم ويوقفهم مكشوفين أمام الرسول والمؤمنين، ويلقنه كيف يعاملهم ويرد عليهم، فيعالجهم إن كانوا يقبلون، أو يعاجلهم بما ينكبهم جزاءً بما كانوا يفعلون، إذ واجههم بكل حفاوة واحترام، وقابلوه بكل جفاوة واخترام:

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَاۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢاۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾﴾:

إن المخلفين من الأعراب وهم: المتروكون في أمكنتهم خلف الخارجين المجاهدين، وهم أهل البوادي غير الحاضرين ولا المتحضرين، وهم الذين قال الله عنهم: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ﴾(١).

هؤلاء هم المنافقون المستسلمون، وقد كان لهم ألا يقولوا - على أقل تقدير - مقالتهم تلك الفاضحة، ولكي يبدلوا كلام الله، رغم أنهم أرادوه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ...﴾ فرغم أنه - بشرياً - كان لهم ذلك، ولكنما الله أخبر رسوله ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾... ولم يكن إلا ما قال الله، آية بينة معجزة تجمع الإعجاز إلى الإنباء التنديد بالمخلفين ولله الحمد.

ومن ثم يرد عليهم قولتهم المنافقة: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَاۚ﴾ بأنها ظاهرة النفاق: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْۚ﴾ فألسنتهم مؤمنة

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٩٧.

وقلوبهم كافرة، أترى القلب المؤمن يشتغل عن واجبات الإيمان بالأموال والأهلين؟ فللناس دائماً أموال وأهلون، ولو جاز أن تشغلهم هذه أو تلك عن تكاليف الإيمان، وعن الدفاع بحق الإيمان، ما نهض مؤمن بحقه، ولم يقم للحق قائمة!.

وإن الجهاد النابض في عروقه روح الإيمان، هو الذي يحافظ على الإيمان أكثر مما كان، ويحافظ على الأموال والأهلين، فكيف يشتغل المؤمن بهما عن الجهاد؟ اللهم إلا نفاقاً عارماً يبرره أهلوه، والله فاضحهم من قبل ومن بعد!

ومن ثم - وأخيراً - سؤال تنديد بهم وتبكيت باعتذارهم الكذب: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًاۚ﴾؟ فالانشغال بالأموال والأهلين لا يدفع عنها وعنكم ضراً ولا يجلب نفعاً، إذ الأسباب لا تستقل عن الله، حتى تُستغل اعتذاراً في التثاقل عن تطبيق أمر الله، وحتى فيما تؤمرون أو يسمح لكم بذلك الاشتغال، فالنافع الضار فيه هو الله، فكيف إذ يأمركم الله بالخروج للجهاد وترك الأموال والأهلين، فهل هي إذاً تغنيكم عن الله، أو أن هنالك من يملك لكم من الله شيئاً كما تهوون من دون الله، إن أراد بكم ضراً وأنتم في أموالكم وأهليكم، أو أراد بكم نفعاً وأنتم خارجون عنها؟ فهل من إله غير الله يدفع عنكم ضركم أو يجلب لكم نفعكم؟.

وإنما الإيمان هنا الاستسلام لأمر الله، لقدر الله وطاعته، حيث التثاقل عنه إلى أموال وأهلين لن يدفع ضراً ولن يؤخر نفعاً، فليس هذا عذراً لمؤمن أو أي عاقل، فليس شغل الأموال والأهلين بالذي يثقلكم عن الجهاد ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾!: فأعمالكم وآمالكم شاسعة عن الإيمان، ونفاقكم هو الذي يؤخركم عن واجبات الإيمان، رضى بالحياة الدنيا عن الآخرة، فما داؤكم وما دواؤكم ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى

ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[1].

وإن أعمالكم خلاف الجهاد، المخلفة عن الجهاد، هي ناتجة عن ظنكم السوء بوعد الله:

﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾:

علّ المخلفين من الأعراب هنا هم المتخلفون عن الحديبية فيما مضى، وعن خيبر وفتح مكة فيما يأتي، طالما البعض منهم تخلف عن البعض، وبعض عن الكل، فلما تحقق الصلح في الحديبية قال المخلفون مقالتهم تلك «شغلتنا...» فجاءَ الجواب ما جاء والى ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ...﴾ فقلة العِدة والعُدة للمؤمنين، وعدم إيمان المخلفين حملَهم لهذا الظن السوء ﴿أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾.

وكما في خيبر مخلفون هكذا وفي فتح مكة، فأعذارهم أضراب، كما هم أضراب، وهم كلهم يعيشون إضراباً عن الجهاد وتثاقلاً إلى ظنون وأعمال متشابهة النفاق!.

﴿بَلْ ظَنَنتُمْ﴾ فهذا داءكم في تخلفكم عن الخروج، دون قولتكم الكاذبة تلك: «شغلتنا» - بل شغلكم ظنكم السوء بالله أن لن ينصر عبده، وبالرسول والمؤمنين أن لن ينقلبوا إلى أهليهم أبداً، ﴿ظَنَنتُمْ﴾ أنتم الأوغاد المناكيد إذ لم تؤمنوا ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ﴾ الظن البعيد البعيد ﴿فِى قُلُوبِكُمْ﴾ المقلوبة، والشيطان هو الذي يزين شيطنات العقائد والأعمال في قلوب ذويه فيصدهم عن السبيل بعد صدهم: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٨.

﴿وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾[(١)] وهكذا يتعامل الشيطان مع أوليائه، ثم الله يتركهم في غيّهم يتردُّون وفي عيِّهم يترددون فيسمى تركه لهم في هذه المهالك تزييناً منه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾[(٢)] وفي الحق لم يزينها لهم إلا كفرهم وزيغهم ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[(٣)] ثم تركهم والشيطان يزين لهم أعمالهم: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾[(٤)].

ففاعل الظن السوء هم أنفسهم بكفرهم، والمزين لهم ظنهم هو الشيطان القرين لهم بما عاشوا كفراً وعشوا عن ذكر الرحمان، وهو الله بما لم يحل بينهم وبين الشيطان أن يزين لهم، وأن تركهم في طغيانهم يعمهون.

لهذا وذاك خسرتم أولاكم وأخراكم ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾[(٥)]: فساداً أو هلاكاً، مصادر البوار ومعادن الهلاك والفساد، كينونة تتبنى حياتكم كأنكم الهلاك نفسه والفساد نفسه، والبور الماضي - في الحياة الدنيا - دائماً هي بور في الحياة الأخرى: نتيجة طبق الأصل: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾[(٦)]: طبق الأخرى عن طبق الأولى ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[(٧)]: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾[(٨)].

فنسيان ذكر الله، ومن ثم الظن السوء بالله وبرسول الله، هما الأساس في كونهم قوماً بوراً: ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْمًۢا بُورًا﴾[(٩)].

ثم هب أنهم بظنهم السوء أن لا غلَب للرسول ﷺ تخلفوا عن الخروج معه، فلماذا بعدُ استحالة الرجوع إلى أهليهم؟: ﴿أَن لَّن يَنقَلِبَ

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٣٨.
(٢) سورة النمل، الآية: ٤.
(٣) سورة الصف، الآية: ٥.
(٤) سورة الزخرف، الآية: ٣٦.
(٥) بور مصدر بمعنى الفساد أو الهلاك.
(٦) سورة الانشقاق، الآية: ١٩.
(٧) سورة النساء، الآية: ١٢٤.
(٨) سورة فاطر، الآية: ١٠.
(٩) سورة الفرقان، الآية: ١٨.

﴿ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾؟ فـ (لن) تحيل الرجوع و(أبداً) تؤكد الاستحالة، والظن ما دام ظناً لا يستحيل، فضلاً عن تأكيد وتأبيد الاستحالة؟ وإنما يستبعد حسب بُعد الظن.

نقول: إنهم بكفرهم المتيقن الواقع أيقنوا عدم الرجوع، ولم يكن موقعهم الا الظن، إذ لم يملكوا برهاناً لذلك اليقين، فهم في حسابهم أيقنوا وفي حساب الله ظنوا كما ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟﴾[1] فـ ﴿لَّن﴾تستحيل البعث، والزعم يستبعده دون استحالة، ولكن زعمهم أصبح يقيناً لهم، دون أن يملكوا حجة إلا زعماً وظناً، وهكذا يعالج القرآن الواقعات المنحرفة، في إشارات إلى: كيف يجب أن تكون؟ وتنديدات بما هي دون دليل.

وواقع ظن المخلفين - السوء - كان بحيث يحيل انقلاب الرسول والمؤمنين إلى أهليهم سالمين، إذ قالوا بينهم وفي أنفسهم: يذهب إلى قوم قد غزوه في عقر داره بالمدينة وقتلوا أصحابه وهزموهم، يعنون الأحزاب وأُحد، ثم لم يحسبوا حساباً لوعد الله وقدرته على إنجازه لعباده المؤمنين، وإنما الخسارة الوقتية الشكلية هنا وهناك، في الحرب السجال، متعاملة مع خسار الإيمان وبواره، تجعلهم يحيلون انقلاب الرسول والمؤمنين إلى أهليهم سالمين.

إنهم لم يروا غير تلك الخسارة الحربية الشكلية، ولم يفكروا في سواها ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾[2] كما الأرض البور ميتة جرداء، لا ماء فيها ولا كلاء، كذلك قلوبهم بور جرداء، لا تخصب إلا ظن السوء بالله وبالرسول.

وهكذا يكون دوماً دور الكفار والمنافقين البور، بحق المؤمنين النور، ينظرون إلى العِدة الظاهرة وعُدتها، إلى ما لها ومنا لها: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ

---

(١) سورة التغابن، الآية: ٧.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ١٨.

﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾[(١)] فيأخذون هم بالأحوط لهم، فيبتعدون عن طريقهم المخوف، المحفوف بالبلايا بالأشلاء الضحايا، حباً للسلامة والأمان، متوقعين في كل لحظة انتهاء دورهم، حتى يأخذوا هم في حريات الحيونات والشهوات، وقد يلتحقون بهم إذا رأوا لهم سلطة وغلبة علّهم ينتفعون، ثم إذا عكس الأمر هم يفرون: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟. . .﴾[(٢)].

ولكنما الميزان هو ميزان الله، يحول المحال - بزعمهم - واجباً، والواجب - في ظنهم - محالاً، فإنه مقلب القلوب ومحول الأحوال.

﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾:

من لا يؤمن بالله ورسوله - طبعاً - هو كافر بالله ورسوله، فهو بكفره المختار سعير النار، وإذ يعتد الجبار للكافرين سعيراً فإنما هو اعتداد ذواتهم الشريرة المسعرة بنيران الشهوات الكافرة، فهم سعير هنا معتد، لمّا يظهر في الأولى، وهم سعير واقع في الأخرى جزاءً وفاقاً يظهر فيها، والسعير نار شديدة التأجج هنا باطنة معتدة قبل الواقعة، أو ظاهرة واقعة: إذا وقعت الواقعة.

فظنهم السوء بالله، وأموالهم وأهلوهم، أنها تتعامل في تأجيج نار الله لهم يوم الله، ثم لا مولى لهم يدافع عنهم، كيف ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مليء السماوات والأرض، ملك الخلق والتدبير، ملك التعمير والتدمير، ملك الغفران والعذاب، وإن كان الأصل هو الغفران لمن يعمل له أو يأهل: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ مشية العدل والفضل ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ مشية

(١) سورة الروم، الآية: ٧.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٠.

العدل إذ لا مجال هنا للفضل ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾: سبقت رحمته غضبه، وفضله عدله، مشيئة عادلة فاضلة دون فوضى، فمن شاء الكفر واعتمل له عذبه، ومن شاء الإيمان وعمل له غفر له.

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾:

حملة ثانية على المخلفين تكشفهم ثانية وتفضحهم، غيب مستقبل في هذه التصريحة التبكيت والتنديد بمن يعيشون نفاقاً عارماً لكي يعرفهم النبي والمؤمنون من ذي قبل، فيأخذوا عنهم حذرهم: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ. . .﴾ بعدما قالوه أولاً من قولتهم المنافقة: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾[1] في صلح الحديبية، فثم إذا اتجه الرسول والمؤمنون إلى خيبر - كذلك اثاقلوا إلى الأرض، ولمّا تم الفتح وانطلقوا إلى مغانم خيبر ليأخذوها - انتبه المخلفون عن نومتهم وقالوا: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ ولكي نشارككم في أخذ الغنائم! وهم - لا يريدون اتباعاً لهم إلا لأمرين: ١ - أخذ الغنائم. ٢ - تبديل كلام الله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ وترى ما هو كلام الله هنا؟ علّه قوله: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ. . .﴾ فهم قائلوه في كل حرب: حرب الصلح في الحديبية، وحرب الفتح في خيبر، وفتح الفتوح العنوة في مكة، فهم دائبو الاعتذار هكذا، حتى وفي اتباع المؤمنين لأخذ غنائم خيبر، وإن تمت الحرب، فلعل جماعة من خيبر يترصدون بمن يأتيهم لأخذ الغنائم فينتقموا منهم.

فهم ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن

(١) سورة الفتح، الآية: ١١.

قَبۡلُۖ﴾ ومن ثم قول ثان لله من قبل في وعده: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأۡخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ﴾(١) والكثيرة هي مغانم خيبر وفتح مكة وما يلحقها، و«هذه»: هي مغانم خيبر - وهي خاصة بالمؤمنين، فلو اتبعهم المنافقون وأخذوا منها كان ذلك تبديلاً لكلام الله، ولكن ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ وحتى في أخذ الغنيمة في راحة وطمأنينة، فضلاً عن المتابعة في الحروب الخطرة التي قد لا تكون فيها غنيمة!.. ولعل هناك قولاً غير هذين أن لن يتبعوهم وإن لم يكن من القرآن.

فالقول ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ يحيل اتباعهم هذا وذاك، فلو كان رادعَهم عن اتباعهم الرسولُ والمؤمنون، لم يكن محالاً، فإنما هو ردع ذاتي لكفرهم، وردع إلهي إن غيض لهم شيطاناً فهو لهم قرين، ولكنهم إذ لا يفقهون ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلۡ تَحۡسُدُونَنَاۚ﴾ وترى أن حسد المؤمنين في اتباع المنافقين مما يحيل اتباعهم ويحول دون إرادتهم ﴿أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ﴾؟ والكافر يستميت في محاولات تكذيب الله وتبديل كلام الله، فإنما هي قولة فارغة فاشلة ممن يحاولون تحقيق المحال ولا يستطيعون.

فلماذا لم يخرجوا مع المؤمنين ولا مرة، وحتى لأخذ الغنائم؟ إنها لآية بينة معجزة تتوفر في إنباءات القرآن، لكي توقظ الرسول والمؤمنين بمكائد المنافقين، وتزدادهم إيماناً أنها وحي السماء الصادق الأمين «بل» ليس كما يقولون: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعۡكُمۡ﴾ ولا كما يزعمون «تحسدوننا» - ﴿بَلۡ كَانُواْ لَا يَفۡقَهُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾: فقه قليل للحق يجعلهم مكلفين، ثم لا يفقهون كثيراً في أفكارهم وأقوالهم الهابطة الخابطة العمياء: فما هي الرباط بين أن تحسدني وأن أترك ما أقدر عليه وأحاوله؟ أحسداً كأمر باطني يحيل فعلاً يحتال له ويحاوله محسودك بكل طاقاته فلا يستطيع ﴿بَلۡ كَانُواْ لَا يَفۡقَهُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾!.

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٠.

إن كلام الله من قبل ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ...﴾ وقد تحقق، ووعده من قبل: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ...﴾ إنه آية رحمة للمؤمنين وعذاب للمنافقين: - ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[1] وكيف يمكن أن تبطل الآية المعجزة بمحاولات منافقة ممن لا يفقهون؟!.

وإنها كانت فتح خيبر بعد أقل من شهرين من صلح الحديبية، وافرة الغنائم، وحصون خيبر هي آخر حصون بقيت لليهود في الجزيرة كأقواها وأغناها، وكان قد لجأ إليها بعض بني النضير وبني قريظة ممن أُجلوا عن الجزيرة من ذي قبل.

وقد فتحت واغتنمت فعلاً للمؤمنين دون مشاركة للمنافقين، ومن ثم فتح مكة وهي كانت أغنى وأقوى من كل فتح يأتي أو مضى، وكذلك كان فيه أمر المنافقين ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾[2] ومن ثم تنديد ثالث بالمخلفين يحمل لهم بشارة أجر حسن لو أطاعوا، وعذاباً أليماً إن تولوا:

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾:

تهديد ثالث يوجه إلى المخلفين بعد الحديبية وخيبر أنهم سيدعون إلى قوم أولي بأس شديد لا سبيل معهم إلا ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ فلا ثالث هنا من مصالحة كما في الحديبية أو جزية كما مع أهل الكتاب، وإنما قتال حتى يسلموا، حكماً باتاً صارماً يصرمهم مهما كانوا ﴿أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾: بأس العِدة والعُدة! فهذه الدعوة الأخيرة لا بد وأن تصرم هؤلاء الأشداء دونما رجعة أو مراجعة.

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٠.

(٢) سورة الروم، الآية: ٤.

وترى أنهم يهود خيبر؟ والجزية طريقتهم الثالثة بأنهم أهل كتاب! ولم يكن بأسهم شديداً وجاه الأشداء الآخرين ككفار مكة والفرس والروم، وهذه هي المرة اليتيمة في القرآن يوصف فيها أعداء الإسلام بـ ﴿أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾! وأن قصة خيبر مضت في ثاني التهديدات للمخلفين ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ. . .﴾!.

هذا الدليل المثلث ينحي الآية عن خيبر وأضرابها، ويحصرها في المشركين الذين بلغوا في القوة الذروة في صنوف الأعداء المناوئين للإسلام، منذ الرسالة إلى أمد.

إذاً فليسوا هم هوازن ولا ثقيف، لا وحتى الروم الأشداء في مؤتة وغيرها، إنما هم مشركو مكة أو الفرس أو هما؟

فمن ناحية أن الدعوة هذه دعوة إلهية لحرب خطيرة: ﴿سَتُدْعَوْنَ﴾ تكون الحرب حرب الفتح في مكة، وقد أسلمت مكة دون حرب إذ فتحت عنوة، رغم أن مشركيها أولي بأس شديد جنّدت كافة طاقاتها واستنفرت عامة قواتها.

وقد تشير ﴿أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ إلى فتح مكة العنوة، حيث (أو) تخيِّر بين مقاتلتهم وإسلامهم وقد أسلموا دون قتال! ولم يسبق لذلك مثيل في الفتوحات الإسلامية أبداً.

ومن جهة أنهم كانوا حاضري الجزيرة فلا يعبر عنهم بـ (قومٍ) المنكر كمن لا يُعرفون، وأن ﴿أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ هي غاية الدعوة إلى حربهم، تعني (تقاتلونهم حتى يسلموا) يشبه أنهم الفرس، أكبر دولة حينذاك وأخطرها ضد الإسلام.

ولكن (أو) هي أصلاً للتخيير وأضرابه[1] إلا بقرينة قاطعة تدل على أنها

---

(١) خيِّر ابح قسِّم بأو وأبهم واشكك وإضراب بها أيضاً نُمي

بمعنى (حتى) وأضرابها، ولا قرينة هنا إلا بخلافه كـ ﴿يُسۡلِمُونَۖ﴾[1]، وأن ﴿قَوۡمٍ﴾ المنكر لا يعني أنهم غير معروفين في الجزيرة، بل رغم كونهم معروفين فيها قد يُجهل خطرهم، أو أنه تنكير التعظيم إشارة لعظيم مكرهم وخطرهم.

أو يقال: إن ﴿قَوۡمٍ﴾ هنا تشملهما جميعاً، فرغم أنهما قومان عنصرياً وفي المكان والزمان، لكنهما قوم واحد في الشرك والبأس الشديد، والكفر ملة واحدة.

إذاً فـ(قوم) تنكير تعظيم لعظيم الخطر لمشركي مكة، وتنكير تجهيل للفرس الخارجين النائين عن الجزيرة، و﴿أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾ يشملهما على سواء، حيث إن مشركي مكة كانوا خطراً على تأسيس دولة الإسلام، المحتلة عندهم عاصمتها، والفرس كانوا خطراً على استمرارها.

ثم و﴿تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ﴾ تخيير بالنسبة للأولين حيث لم يُجمعا لهم إذ أسلموا ففتحت مكة عنوة، وغاية للآخرين حتى أسلموا بعد القتال، (تقاتلونهم حتى يسلموا).

والآية تتحملهما بمرجحات كلٍّ في دلالاتها كما مضت، ولا أخطر على الإسلام في حاضر دولتها من مشركي مكة وفي مستقبلها القريب من مشركي فارس.

ولأن مناوئي الدولة في بدايتها كانوا أخطر عليها، ترى الآية تعنيهم أصالة والآخرين كتابعين، حيث الدعوة الإلهية بالوحي تخص قتال الأولين ﴿سَتُدۡعَوۡنَ﴾ وأن «أو» للتخيير أصالة، وهي هنا تخصه بشاهد ﴿أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ﴾ فلو كانت تعني «حتى» كانت منصوبة: «أو يسلموا» ولكنها تشمل «حتى» ضمنياً كما بينا.

(١) إذ لو كان بمعنى حتى نصب فكان «يسلموا».

فهذه الآية أيضاً من ملاحم الغيب لمستقبل الفتح العنوة في مكة وفتح القتال الغلبة في الفرس، أن المخلفين من الأعراب سيدعون ضمن المؤمنين في استنفار عام في هاتين الجبهتين، فإن أطاعوا الدعوة والداعية يؤتهم الله أجراً حسناً في الدنيا والآخرة، وإن يتولوا كما تولوا من قبل يعذبهم عذاباً أليماً ولن يضروا الله شيئاً، حيث الفتح عنوة وغير عنوة لا محالة كائن دونما حاجة إلى المخلفين من الأعراب، اللهم إلا ابتلاء لهم لكي يعرفوا ويعرفوا أنفسهم.

تلك الدعوة الصارمة العامة باستنفارها من يقدرون على إجابتها، أنها تحرج عامة الناس إلا الأعمى والأعرج والمريض:

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾:

الحرج هو حالة فوق الطاقة نفسياً أم سواها، تستأصل الطاقات كلها لحد يضيق كل مدخل ومخرج كأنما يصّعد إلى السماء الخالية عن تنفس: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾(١) حيث التصعُّد إلى السماء هو الصعود الصعب الذي يضيق النفس في الصدر ويخنق، وذلك حينما تجاوز كرة الأوكسيجين حيث تخنق.

هذا هو الحرج المنفي في الدين، فما أراده الله ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾(٢) ولا جعله الله ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ﴾(٣).

فالأعمى والأعرج وكل مريض يتحرج عن الجهاد يعفى عنهم في

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٥.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٦.
(٣) سورة الحج، الآية: ٧٨.

استنفار الجهاد[1] كما في سواه من تكاليف عامة أو خاصة، اللهم إلا مرضاً لا يحرج أو مريضاً يكلف بأدنى من حرج، كذلك والأعمى والأعرج إذا كلفا دون حرج.

والضابطة السارية في عامة التكاليف هي وجوب تطبيق أحكام الله، في طاعة الله ورسوله قدر المستطاع ودون حرج، دون أن ينقص المحرجين من أجورهم، فلو أن جندياً مسلماً جاهد دون طاقته وأقل من قدرته لم يطع الله تماماً: ولو أن مسلماً حرجاً عن القتال تركه ناوياً له لو استطاع أطاع الله تماماً:

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾: كلٌ دون حرج وقدر الطاقات والإمكانيات.

فلو أن أعمى أو مريضاً أو أعرج استطاعوا حضور الجبهة دون حرج كان عليهم لزاماً، أو أن سواهم لم يسطع حضورها لم يكن عليه لزاماً، فإنما هو مثال لأكثرية موارد الحرج: العمى والمرض والعرج، دون حصر فيها، ولا نفي للجهاد عن أصحابها وإن لم يكونوا محرجين، وإنما المنفي هو الحرج أياً كان وفي أي كان.

ثم للحرج المنفي في الدين حدود لولاها لم يثبت حكمه:

١ - أن يكون ذاتياً ليس لصاحبه حيلة ولا سبيل في إزاحته، ولا له دخل في حصوله، فلو استطاع سلب الحرج الموجود، لم يكن تكليفه بما يحرج حاله حرجاً في الدين أو من الدين، وإنما منه نفسه إذ لم يزله، ولو أنه هو السبب لحالة الحرج باختياره فهو المحرج نفسه عنده لا الدين، فتكليفه عندهما ليس حرجاً في الدين حتى ينفى، وإنما حرجٌ منه فلا ينفى.

---

(١) الدر المنثور ٦: ٧٣ - أخرج الطبراني بسند حسن عن زيد بن ثابت ﵁ قال: كنت أكتب لرسول الله ﷺ وأني لواضع القلم على أذني إذ أمر بالقتال إذ جاء أعمى فقال: كيف بي وأنا ذاهب البصر فنزلت: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ . . .﴾ قال: هذا في الجهاد ليس عليهم من جهاد إذا لم يطيقوا.

٢ - أن يكون واقعياً، لا وهمياً ناشباً من التقاليد والعادات، ناشئاً من الهوسات والتجاهلات، كحرمة أزواج الأدعياء، التي كادت تحول دون تزوج الرسول ﷺ بزوجة دعيِّه زيد بعد ما قضى منها وطراً، فلقد كان هكذا زواج محرجاً له حسب البيئة التي كانت تحرمه، مخافة أن يخالفوه أو يكذبوه، ولكن الله فرضه عليه رغم ما أحرجته البيئة: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[1] لذلك فهو الذي زوجه زوجة دعيِّه: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾[2].

ينفي عنه حرج البيئة لكي ينفي عن المؤمنين كذلك، وإنه نموذج هام ينبه حملة الدين أن لا حرج عليهم في تبليغ رسالات الله وتطبيقها، فلا يختلقوا أعذاراً وعناوين ثانوية في تحليل ما حرمه الله، أو إهمال ما فرضه الله بحجة أن الناس ينقمون منهم أو يعترضون، فيقلبوا أمر طاعة الله إلى طاعة الناس.

فدين الله لا مواربة فيه ولا أنصاف حلول ولا مسايرة، إنما هو الحق الصراح يؤمر به ويعمل، دون خشية من الناس فالله أحق أن تخشاه، وما الناس الذين يختلقون عقبات دون أمر الله إلا نسناس، فالله الله، لا تتركوا حكم الله لمسايرة ومراضاة النسناس.

وجملة القول هنا إن لا حرج على النبي ولا حملة رسالته فيما فرض الله، ولا على المرسل إليهم أن يتحرجوا فيما قضى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾[3].

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٨.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٧.
(٣) سورة النساء، الآية: ٦٥.

﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾

﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾:

لقد مضت آية في هذه المبايعة المجيدة المرضية وهذه ثانيتها، تنحو منحى تحقيق الرضى عن المؤمنين: ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ أن اطمأنوا إلى الله عما شجر بينهم من زعزعات ومشاجرات، فبايعوك هناك ثانية بعد مبايعة الإيمان لمَّا آمنوا، بعدما اصطدم بعرقلة الصلح في الحديبية ﴿لَّقَدْ رَضِىَ﴾ عنهم إذ بايعوا ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ من رضي بمرضاة الله واستسلام الأمر إليه، ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ كجزاء حال على مبايعتهم، تطمئنهم عما اضطربوا ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ فتح خيبر ومكة، كجزاء مستقبل محتوم كأنه أمر مضى، كما عبر عنه أولاً بما مضى: «إنا فتحنا».

نرى هنا إثابات تلو بعض، لأن المؤمنين في جبهة الحديبية بايعوا صاحب الرسالة تحت الشجرة السمرة[١]، فلم تكن سهلة هينة لا تعدوا الخيال والمقال، وإنما عملية ممتحنة صعبة، وعقبة كؤودة ملتوية اجتازوها ناجحين مهما نكثها ناكثوها ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ فهم خارجون عن إثاباتها لمَّا نكثوا، وإنما هي للأوفياء ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

ولقد قال لهم ﷺ: «أنتم خير أهل الأرض»[٢] فهل إنهم الألف والأربعمائة الذين بايعوه، كلهم بمن نكث بعدئذٍ ومن أوفى؟ فكيف يكون الناكث للبيعة من خير أهل الأرض؟!.

---

(١) الدر المنثور ٦: ٧٣ - أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن سلمة الأكوع رضي الله عنه قال: بينا نحن قائلون إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: أيها الناس البيعة البيعة نزل روح القدس فثرنا إلى رسول الله ﷺ: وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه فذلك قول الله: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ...﴾ [الفتح: ١٨].

(٢) المصدر عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة فقال لنا رسول الله ﷺ: «أنتم خير أهل الأرض».

والحق أنهم هم المبايعون المؤمنون الثابتون الأوفياء[١] لا المسلمون المستسلمون والناكثون، كما الله خص الموفين منهم بأجر عظيم ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ من سكينة وفتح قريب ومغانم هنا في الأولى، ومن إثابات أخرى في الأخرى.

ولذلك نرى المرضى عنهم هنا هم المؤمنون فهم الأوفياء، والمبايعون في الآية الأولى أعم منهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾[٢] ولذلك قسمهم بـ «من نكث ومن أوفى» فالأوفياء هم المؤمنون المرضيون في آية الرضوان والناكثون غير مرضين.

إن المبايعة هذه كانت درجات حسب درجات المؤمنين، فمنهم من بايعه وقتها شكلياً ثم نكثها، ومنهم من بايع فقط على ألا يفر من زحف، لا على الموت كالخليفة عمر[٣] ومنهم من بايعه على الموت في سبيل الله[٤] درجات حسب الدرجات، كما أن النكث كان دركات حسب الدركات.

فكما الآية الأولى تمدح - فقط - الأوفياء ممن بايعوه تحت الشجرة، كذلك هذه ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾... كل ذلك خاص بمن علم الله ما في قلوبهم من صدق البيعة من الأوفياء دون الناكثين اللعناء.

---

(١) الدر: أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ١٨] قال: إنما أنزلت السكينة على من علم منه الوفاء.

(٢) سورة الفتح، الآية: ١٠.

(٣) الدر المنثور ٦: ٧٤ - أخرج مسلم وابن جرير وابن مردويه عن جابر ﵁ قال: كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة فبايعناه وعمر ﵁ آخذ بيده تحت الشجرة وهي سمرة وقال: بايعناه على أن لا نفر ولم نبايعه على الموت.
كما وأن معقل بن يسار اقتفى أثر الخليفة في هكذا بيعة.

(٤) كما علي ﵇ بايعه ﷺ على كل ما في نفسه وتبعه أبو سنان الأسدي حيث قال له النبي ﷺ: على م تبايعني؟ قال: على ما في نفسك، أخرجه البيهقي في الدلائل عن الشعبي.

ولو أننا استشرفنا إلى تلك اللحظة القدسية، لوجدناها أقدس موقف في في تاريخ الإيمان لحد تحقق رضوان الله عن هؤلاء الأوفياء السعداء:

﴿لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ وليتها بقيت كذكرى لهذه البيعة المجيدة ولم يقطعها الخليفة عمر[1] اللهم إلا مخافة أن تعبد من دون الله أو يتوسل بها إلى الله، ولكنها لا تحتم قطع شجرة الرضوان، وإنما منع المتوسلين بها أو العابدين لها لو كانوا، وإلا فلتهدم الكعبة - والعياذ بالله - إذ يعاملها هؤلاء كأنها الله!.

نعم يجب استئصال الأصنام والأوثان من الوجود لكي لا يبقى أثر منها يعبد ولكنما الأشياء المقدسة بما قدسها الله تبقى كما هي، وينهى عن التوسل أو الاستشفاع بها إلى الله.

﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من حمية لهداهم دون هواهم، ومن صدق في بيعتهم وكظم لاستفزازاتهم وضبط لمشاعرهم لكي يستسلموا لحكم الرسول.

﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ سكينة الإيمان ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم.

وترى أن الله علم ما في قلوبهم بعدما بايعوا كما يفيده معنى الفعل «علم» وتؤكده فاء التفريغ، والله عليم بما في القلوب منذ خلقها وقبله؟

الحق أن «علم» هذه من العَلَم: العلامة، لا العِلم: المعرفة بعد الجهل وسبحانه، كما في أضرابه طيات آياته.

فقد تعني «علم» هنا أنه تعالى جعل المبايعة الحقيقية علامة للأوفياء تميزهم عن الناكثين، ميزة لهم عندهم وعند من سواهم، فـ «عند تقلب الأحوال يعرف جواهر الرجال».

﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أصله فتح مكة وفي سبيله وعلى هامشه فتح خيبر،

---

(١) الدر المنثور ٦: ٧٣ - أخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن نافع ﷺ قال: بلغ عمر بن الخطاب ﷺ أن ناساً يأتون الشجرة التي بويع تحتها فأمر بها فقطعت.

وقد يشملهما الفتح القريب لانسلاكهما في سلك واحد، وهما نتاج فتح الصلح في الحديبية، كما ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ المعطوفة على ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ تؤيد هذا الجمع:

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾:

هذه المغانم الكثيرة تباعاً للفتح القريب، منها معجلة بعد الحديبية ومنها مؤجلة إلى فتح مكة:

﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾:

فهذه المعجلة هي مغانم خيبر، وأخرى لم تقدروا عليها، منها مغانم مكة، وهاتين هما تلو فتح قريب، فليكن فتح خيبر ومكة معاً.

إن مغانم خيبر قسمت على من حضر الحديبية وإن كان غائباً عن خيبر[١]، كما وعدهم الله[٢] ومنعت عن المخلفين من الأعراب رغم ما طلبوا حضورها، فإنها كانت من إثابات الحديبية.

إن إثابات الحديبية للمؤمنين الأوفياء نفسية ومادية هي أيضاً ذريعة لها: من السكينة النازلة عليهم يومها فزادتهم إيماناً على إيمانهم، ومن فتح قريب في خيبر ومكة استوثقت به الجزيرة إسلامياً، ومغانم فيهما كثيرة في خيبر وأكثر في مكة، وأخرى تتبعها من فتوحات وغنائم ما داموا مؤمنين مسلمين لا مستسلمين.

---

(١) الدر المنثور ٦ - ٧٤ - أخرج عبد الرزاق وأبو داود في مراسيله عن الزهري قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ لم يقسم لغائب في مقسم لم يشهده إلا يوم خيبر، قسم لغيب أهل الحديبية من أجل أن الله كان أعطى أهل خيبر المسلمين من أهل الحديبية فقال: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ﴾ وكانت لأهل الحديبية من شهد منهم ومن غاب.

(٢) المصدر السابق نفسه.

وقد ينسلك فتح الصلح في الحديبية في ﴿مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ فإنه مغنم نفسي، وتقوية في نفوس المؤمنين أن استعدوا لفتح خيبر ومكة ومغانمهما، إلا أن ﴿تَأْخُذُونَهَا﴾ قد لا تناسب الصلح، وإنما ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ في الحديبية و﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ في خيبر ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا﴾ في فتح مكة وسواها.

و﴿ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: هي كف أيدي المشركين عنهم في الحديبية، آية للنصرة والعزة الإلهية، وفتح خيبر بغنائمها: آية للغلبة الآتية في فتح الفتوح، ومن ثم ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾: صراطاً إلى فتح مكة إذ كانت شائكة ملتوية قبل الحديبية وخيبر، وتجربة المؤمنين فيهما عبّدت لهم هذه الشائكة فأصبحت صراطاً مستقيماً لاسترجاع عاصمة الدولة الإسلامية.

ثم ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ عطف على محذوف بعد «وعدكم.. فعجل.. وكف..» هو من أمثال «لتكون آية على الكافرين» إنذاراً لهم، فهدماً لصرح الكفر وطرقهم التي عبدوها إليه ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ آية بآية وصراطاً بصراط.

﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾

ومغانم أخرى مؤجلة بعد المعجلة ﴿لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا﴾ حيث الفتح العنوة في مكة دون حرب رغم أكثرية العِدة والعُدة للمشركين، أنه لم يكن من المقدور عليه للمسلمين، وإنما ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ﴾ حيطة إلهية وآية قدرة منقطعة النظير.

وترى أن «أخرى» هي فقط مغانم الفتح العنوة في مكة؟ أم والفرس والروم كذلك؟ أم وسائر ما إلى ذلك؟.

قد تشملها «أخرى» كلها، بما وعد الله المسلمين المجاهدين الصامدين في خطوط النار، كما مضت هنالك الإشارة إلى فتح فارس: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ وفي مجالات أخرى إلى كل فتح إسلامي من هذا النمط.

وقد يبعد الشمول مضيُّ الفعل ﴿لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا﴾ فكيف تشمل مستقبلات الغنائم؟ ويقر به أنه بشارة بغنائم تستقبلهم أياً كانت: من هوازن ومكة وفارس والروم وسواها على سواء، و﴿لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا﴾ تنفي القدرة السابقة على الغنائم اللاحقة، ولا ريب أنها ونفيها تسبق الغنيمة كيفما كانت، بشارة ملفوفة هنا، لم يحددها وهي غيب من غيوب الله، لبث الطمأنينة والرضا في نفوس المؤمنين بالله، فلتكن كما هي شاملة للغنائم الإسلامية على طول الخط، ما لم يقدروا عليها ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ ابتداءً من فتح الفتوح، ومن ثم فتح مملكتي كسرى وقيصر في حرب الفرس والروم ومن ثم فتوحات أخرى[1] ما داموا هم ناصرين لدين الله، مسلمين لا مستسلمين.

﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ أهي خاصة بما لم يقدروا عليها و﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾[2]؟ أم هي عامة، فما هي ميزة الغنائم المبشر بها هاهنا؟.

الجواب: إن لله إحاطة علم وقدرة بكل شيء على سواء كما تقتضيه ربوبيته، وإحاطة عناية بقدرته لخواص عباده انتصاراً لهم عندما ضعفوا واستكانوا، وهذه الغنائم الموعودة لهم منها ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

---

(١) الدر المنثور ٦: ٧٥ - أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا﴾ قال: هذه الفتوح التي تفتح إلى اليوم، وأخرج ابن عساكر عن علي وابن عباس في الآية «فارس والروم» ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ قضى الله بها أنها لكم، كما وأخرجه سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال «فارس والروم»، وعن عطية قال: فتح فارس، وأخرج عبد ابن حميد عن عكرمة قال: يوم حنين، وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال: بلغنا انها مكة.

أقول: إنها على اختلافها تؤيد عدم اختصاص ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا﴾ بفتح، مكة أو سواها، كما ولفظ الآية تساعد ذلك الشمول.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٢٦.

لا فحسب أنكم تغنمون هنا وهناك، فإن لكم فتحاً متواصلاً ما دمتم مؤمنين أوفياء، بشارة سارة سارية المفعول لفتوحات تترى أو لا تنهزمون:

﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾:

إنها سنة ثابتة إلهية لن تتبدل، إن الكفار المهاجمين المقاتلين هؤلاء المسلمين، يولون الأدبار، سنَّة يسنها الإيمان الصامد المشفوع بنصر الله: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[1] فلا تكفيها دعوى الإيمان أو فكرته غير البارزة في الميدان، فإن لها شروطاً يجمعها جماع الإيمان ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2].

ولقد ترى آيات تترى في تصريحات بطيات دعايات القتال الدفاع، قاطعة آمال الكافرين: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾[3] لكنها تتعلق بالجو الذي يولد فيه انتصار المؤمنين، حيث هم تاركون ولاية الكافرين (٩٦) معتصمين بالله مهتدين إلى صراط مستقيم (٩٧) متقين الله حق تقاته (٩٨) معتصمين بحبل الله لا متفرقين (٩٩) داعين إلى الخير آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر مفلحين (١٠٠ - ١٠١) ومن ثم: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ - ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾[4]!

فلو أنهم غلبوا وجاه الكفار لم يكن تبديلاً لسنّة الله، وإنما تبديلاً لسنّة

(١) سورة محمد، الآية: ٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٩.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١١١.

(٤) سورة الفتح، الآيتان: ٢٢، ٢٣.

الإيمان، وتبدلاً للإسلام الصامد بالاستسلام، فسنّة الانتصار دائبة لهم ما داموا مؤمنين.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾:

إنه نموذج من تلكم المواقف، حاضرة حاذرة في فتح الفتوح، أن الله تعالى كف أيدي المشركين المتطاولة عنهم، وأيديهم كذلك ومتقابلاً عنهم ببطن مكة لمَّا وردها ومتى؟ ﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ تلكم الظفرة الزفرة المظفرة، وإنه لموقف مشرف عديم النظير ألا تتطاول أيدي المؤمنين المظفرين على من؟ على الذين آذوهم وشردوهم وقاتلوهم وعاملوهم طوال الرسالة ما لم يعامل به أحد من العالمين!

فبطن مكة هو داخل مكة وعقرها، لا خارجها وخارج حرمها: الحديبية، خلاف ما روت رواتها وفسرها مفسروها، ولا سيما ﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ ولم يكن في الحديبية ظفر لا منهم ولا عليهم، وإنما مصالحة المهادنة، وإذا قيل عنها إنها فتح - فتح الصلح - فليس إلا لأنه فتح سبيلاً إلى فتح مكة، فقد كانت تنهار قوات المسلمين لو قاتلوا، فلم يجدوا سبيلاً لفتح الفتوح بعدما انهارت قواتهم، وانصدمت نفوسهم بقتلى.

فهنا موقفان مشرفان لفتح الفتوح، يجعلانه في قمة الفتوح في معارك الشرف والكرامة طوال التاريخ: إن كف الله أيدي المشركين الكثرة عن المؤمنين القلة، رغم أنها كانت عليهم متطاولة طوال الرسالة في مكة وإلى المدينة في كل عام مرة أو مرتين، وكانوا يستعدون دوماً ويزدادون قوة لقضاء حاسم على المؤمنين ولكن..

وموقف ثانٍ هو أشرف، أن كف الله أيدي المؤمنين المظفرين عن المشركين، كفاً للحمية وطبيعة الانتقام، خلاف ما يفعله الفاتحون

التوسعيون، ولكي يعلم العالم أن فتح مكة ما هو إلا فتحاً للقلوب لا توسعاً وانتقاماً بعد الاحتلال.

هذا - ومن ثم الآيات التالية التي تتحدث عن جو الفتح تؤيد بطن مكة وظفرها، أن ذلك كله ينحو منحى فتح الفتوح، وأن شمل فتح الصلح في الحديبية هامشياً وكذريعة له على بعض الوجوه.

إن كف أيدي المشركين هنا عن المسلمين يعم صلح الحديبية وفتح مكة، طالما كفُّ أيدي المسلمين عنهم يخص الفتح بمكة ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ فإنه خاص بفتح مكة، فـ ﴿بِبَطۡنِ مَكَّةَ﴾ ظرف للثاني، والأول أعم من بطن مكة وظهرها الحديبية.

وكف أيدي الغزاة المسلمين عن هؤلاء المشركين الظالمين - الذي هو من منن رب العالمين - حجز المسلمين هنا عن ملابسات نفسية كثيرة ودقيقة لطيفة المدخل: من الزهو الذي قد يساور القلب، أو يتدسس إليه من سكرة النصر بعد طول الكفاح، وفرحة الظفر بعد بُعد العناء، وهو مدخل يصعب توقِّيه في القلب البشري.

ومن أمثال هذه الزهوات يؤمر الرسول ﷺ في سورة النصر أن يستغفر ربه: ليستر عنه ويسدده عنها وقد ستر: أن كف أيديهم عن المشركين.

فتراه إذ يدخل مكة فاتحاً منتصراً، مكة التي آذته وأخرجته وحاربته ووقفت في طريق دعوته عنيدة؛ وعرقلت عليه، تراه يدخلها منحنياً لله شاكراً على ظهر دابته، ناسياً فرحة النصر وزهوته، عفواً رحيماً لا ينتقم.

وهذا هو الأدب الذي تتسم به النبوة دائماً، يريد الله به أن ترتفع البشرية إلى آفاقه، أو تتطلع دوماً إليها.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ

عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾:

وترى من هم أولاء الذين كف أيديكم عنهم؟ إنهم حمَلة ثالوث الضلال إذ ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله والرسالة الإسلامية السامية، لا فحسب أن يكتفوا بسلبية الكفر: فلا على المسلمين ولا لهم - بل ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أن تأتوه طائفين - وصدوا «الهدى» حال كونه ﴿مَعْكُوفًا﴾ صدوه ﴿أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ بمكة المكرمة كما في عمرة الحديبية.

وطالما الكفر كبيرة موبقة في ميزان الله، ولكنما الصد عن المسجد الحرام وصد الهدي أن يبلغ محله... إنه كبيرة في الجاهلية أيضاً، كريهة في عرفهم الذي يعرفون.

فلم يكن كف أيدي المسلمين الظافرين بهم عفواً من الله لهم لصغر الجريمة، وإنما لحِكم أخرى بعيدة المدى قريبة الهدى كثيرة الندى، مما يأتي أو مضى ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ...﴾.

فالحملة الجماهيرية لا تعرف الصديق من العدو حتى ولو عرفت الصديق، كيف وهناك ﴿رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ فلولا أن كف الله أيديكم عن مشركي مكة لكنتم تطؤوا المؤمنين مع المشركين، وطأً هو وطأة عارمة ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾.

لقد كان هناك بعض المستضعفين من المؤمنين في مكة لم يهاجروا ولم يعلنوا إسلامهم بُقية على أنفسهم وتقية من أعدائهم، فلو دارت الحرب وهاجم المسلمون مكة وهم لا يعرفون المسلمين المجهولين لكانت عليهم معرة تصيبهم بغير علم، فدعاية عليهم من المشركين أن كيف يقتلون أضرابهم.

إنه ﴿كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ... لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ من مؤمنين

ومؤمنات كانوا بين المشركين، ومنهم من كانوا في أصلاب رجال وأرحام أمهات من المشركين، ومن مشركين قسمت لهم الهداية والدخول في رحمة رب العالمين[١].

فهذه ثلاث درجات وبركات ينتجها الفتح العنوة الرحيمة، رغم أنهم كانوا في ثلاث دركات من كفر وصد عن المسجد الحرام والهدي، وأين ثلاث من ثلاث!

هذه جوانب من حكم الله في هذا الفتح العنوة ﴿لِيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ من الذين يستحقون الرحمة - ف :

﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾: بينهم، أن تفرقوا وامتازوا عن بعض فعرف المؤمنون والمؤمنات والذين يرجى منهم الإيمان، والذين في أصلابهم مؤمنون[٢] فليس التزيُّل بمعنى الزوال وكما في آية أخرى ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾[٣] فإنه تزيُّل بإزالة الغشاوة بينهم وبين شركائهم أن يعرفوهم فيعلموا أنهم ليسوا بشركاء الله، لا بإزالة أنفسهم فإن الآخرة موقف الدوام لا الزوال.

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٧١ - أخرج بسند جيد عن جماعة عن أبي جمعة قال: قاتلت النبي ﷺ أوّل النهار كافراً وقاتلت معه آخر النهار مسلماً وفينا نزلت ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ . . .﴾ [الفتح: ٢٥] وكنا تسعة نفر سبعة رجال وامرأتين.

أقول: وقد تشمل الآية جو الحديبية إذ كف أيديهم عن بعض فلم يبتل المؤمنون بقتل أضرابهم عن جهل، ولكنها لا تختص به إذ لم يظفرهم الله عليهم هناك، اللهم إلا في فتح مكة.

(٢) تفسير البرهان ٤ : ١٩٨ - عن ابن بابويه القمي بسنده عن أبي عبد الله عليه السلام قيل له: ما بال أمير المؤمنين لم يقاتل فلاناً وفلاناً؟ قال: لآية في كتاب الله عزّ وجلّ ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥] قال قلت: وما يعني بتزيلهم؟ قال: ودائع مؤمنين في أصلاب قوم كافرين وكذلك القائم عليه السلام لن يظهر أبداً حتى تخرج ودائع الله عزّ وجلّ فإذا أخرجت ظهر على من ظهر من أعداء الله فقتلهم.

(٣) سورة يونس، الآية: ٢٨.

والمتزيلون هنا أعم من الكافرين والمؤمنين، حيث ﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ﴾ لا «لعذبناهم أجمع».

و«لو» هنا تحيل العذاب الجماعي في الدنيا لجموع الكافرين إلا بتزيل تام، وكما الكافرون متزيلون عن المؤمنين يوم الدين، فالله معذبهم هناك دون مهل، كذلك يوم الدنيا لو تزيلوا فامتازوا عن المؤمنين، وحتى الذين هم في أصلاب وأرحام كافرة، وكما سبق هذا التزيل في قوم نوح وبعد صبر وعناء طويلين فاستبشر ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾[١].

ومن ثم في دولة الإمام القائم المهدي المنتظر المنتصر عليه السلام ننتظر تزيلاً ثانياً وأخيراً، أن الله سوف يعذب الذين كفروا، فلا خير فيهم ولا في أصلابهم، إذاً فهم حصب جهنم العذاب في الأولى والأخرى ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[٢] والعذاب الأدنى الموعود للفاسقين قبل الأكبر وبعد تزيلهم في طوفان نوح، أنه ليس إلا في الرجعة في دولة القائم المهدي من آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما تشهد به آيات وروايات[٣].

وهذان التزيلان من قبل ومن بعد قد يستحقان أداة الاستحالة «لو» كما هنا لأنهما مستصعبان[٤] كأنهما مستحيلان رغم أنهما واقعان.

---

(١) سورة هود، الآيتان: ٣٦، ٣٧.

(٢) سورة السجدة، الآية: ٢١.

(٣) لقد فصلنا البحث حوله في كتابنا «رسول الإسلام في الكتب السماوية».

(٤) لقد تزيّل هكذا الكافرون من قوم نوح طوال ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون، على تصبُّر من نوح والمؤمنين معه، وإياس منهم حتى قلّوا، كذلك يكون التنزيل الثاني الذي نعيش انتظاره فإنه لحد الآن طال أكثر من الأول وما ندري كم طائله، اللهم عجل فرجه وسهل مخرجه واجعلنا من أعوانه وأنصاره آمين.

فـ ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ. . .﴾ لم يكف الله أيديكم عنهم - و﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ كف أيديكم عنهم و﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بأيديكم وما يفعل الله حسماً لهم - فوجود رجال مؤمنين ونساء مؤمنات لا يُعرفون فيما بينهم، وليدخل الله في رحمته من يشاء منهم ومن الكفار الذين يؤمنون، وممن في أصلاب وأرحام المشركين من المؤمنين، هذا المثلث البارع من الحكمة الإلهية حال دون استئصالهم في فتح مكة، إضافة إلى إبراز روح الحنان للظافرين أن القصد من هذه الهجمة الرائعة ليس تفتح البلاد والانتقام من أهلها الظالمين، وإنما تفتح القلوب المقلوبة: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ كإعلام عام من على أعلام الإسلام مرفوفة عالية تبرز للعالمين أن القصد هنا وهناك: في كافة الحروب والغزوات الإسلامية، هو فقط دخول الناس في رحمة الله ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[1].

ومتى كفروا وصدوا ذلك الصد الكافر المائر الكريه ولماذا؟ وهو في عرف الجاهلية أيضاً قبيح؟:

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾:

فيا لها من حمية حامية لا يكفي لها كفرهم إلّا أن يجعلوها ويفتعلوها في قلوبهم كفراً على كفر، فإنها ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ حين قالوا: لا نعرف الرحمن الرحيم! لكي يحذف الرسول البسملة عن كتاب الصلح، وإذ طلبوا شطب (رسول الله) عن اسمه ﷺ قائلين: «لو علمنا أنك رسول الله ما حاربناك فاكتب محمد بن عبد الله!» وذلك بعدما صدوهم عن المسجد الحرام والهدي معكوفاً أن يبلغ محله، ولا يعرف التاريخ جاهلية تبلغ محلها ولا حمية جاهلة

(١) سورة هود، الآية: ١١٩.

توصل مداها! فإنها: حمية التعنت والتبختر والتبطّر التي لا تتقيد بعقيدة ولا منهج إلّا فوضى، مخالفين بها كل عرف وكل حمية، منتهكين كافة الحرمات والأعراف، وحرمة البيت الحرام الذي يعيشون في ظله وعلى حساب قداسته، وحرمة الأشهر الحرم التي لم تنتهك في أية جاهلية.

فيا لهذه النفوس من قسوة وحماوة، لا تتقيد بأي ميزان إلّا ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ﴾ ويقابلها الطمأنينة الأمينة السكينة التي أنزلها الله على رسوله وعلى المؤمنين، جنات عاليات وجاه دركات سافلات!:

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

فللرسول سكينة التسديد حتى يهدئ بقمة الحفاوة واللين وجاه هؤلاء الشياطين، فلا تظهر منه أية جفاوة.. وللمؤمنين سداً للثورة الفورة التي تتطلبها تلك الجاهلية في المشركين حتى يهدؤوا في ظلال الرسول دونما فورة ولا ثورة.

فقلب المؤمن مستكن بربه، مطمئن بمآربه في سبيل ربه، ولكنه بحاجة إلى سكينة زائدة ليزداد إيماناً واطمئناناً، حيث التقوى قد تفلت وجاه نعرات الجاهلية، فبالسكينة تُلزم في ذواتهم وتندغم في إنياتهم:

﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾: وإنها كلمة التوحيد[1] العريقة الوطيدة، لا لفظته الخاوية عن العمل والعقيدة، وإنما الدالة منها في كافة مجالات الدلالة، فإن الكلمة هي الدالة، ففي مجال العقيدة تدل، وفي مجال العمل

---

(١) الدر المنثور ٦: ٨٠ - أخرج الترمذي وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند وابن جرير والدارقطني في الافراد وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [الفتح: ٢٦] قال: «لا إله إلا الله» وكما أخرجه جماعة آخرون عن آخرين كسلمة بن الأكوع وعثمان عنه ﷺ وعن علي عليه السلام وعن ابن عباس، هي رأس كل تقوى، كذلك وعن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعطاء وعن الزهري أنها «بسم الله الرحمن الرحيم». أقول وهي من فروع كلمة الإخلاص.

تدل، فلا تزال دالة فعالة حتى تستأصل كل طغوى، وتجمع كل تقوى في كافة ميادين الحياة، ولكي تخفت صوت الطغوى، مراقبة للرب في كل حركة وخالجة، داخلة وخارجة، فلا يتبطر ولا يطغى لذاته، وإنما لربه ودينه، والرب يأمر هنا بكظم فائرة الغيظ: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

ولم تكن لزام التقوى بعيدة عنهم تُقحم فيهم، فإنهم كانوا مؤمنين مطمئنين مستكنين بسكينة من الله - بل:

﴿وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾: كانوا أحق الناس بكلمة التقوى، وكانوا أهلها:

أهلاً لها إذ كانوا متقين، وأهلاً لها أن يزيدهم الله هدىً وتقوى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾[١] فلا تنال زيادة التقوى ولزامها إلّا أهلوها (جزاءً من ربك عطاءً وفاقاً).

ويا لهما من معسكرين عديمي النظير في تاريخ الإنسان: مثلث السكينة التقوى بأهليتها، وثالوث الكفر الصد عن المسجد الحرام والهدي معكوفاً أن يبلغ محله، التي تجمعها ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾!

إيمان في أحسن تقويم وكفر في أسفل سافلين ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾.

فلما رأى الرسول رؤياه ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ في الحديبية[٢] ووفى هو والمؤمنون بعهد الله وميثاقه فيها، فقد حان حين صدق رؤياه في تحقيق عمرة الحديبية في السنة المقبلة:

---

(١) سورة محمد، الآية: ١٧.

(٢) الدر المنثور ٦: ٨٠ - أخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في الدلائل عن مجاهد قال: أري الرسول ﷺ وهو بالحديبية أنه يدخل مكة هو وأصحابه آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين فلما نحر الهدي بالحديبية قال له أصحابه: أين رؤياك يا رسول الله فأنزل الله الآية فرجعوا ففتحوا خيبر ثم اعتمر بعد ذلك فكان تصديق رؤياه في السنة المقبلة. وفيه عن ابن عباس قال: كان تأويل رؤياه في عمرة القضاء.

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧)﴾:

ولقد زعمت جماعة كالخليفة عمر أن هذه الرؤيا لا بد أن تتحقق في الحديبية ولذلك شكوا سائلين الرسول بكل حمية، فجاء الجواب أن صِدقها في السنة المقبلة قبل الفتح وبعد صلح الحديبية، كما سجلوه في وثيقة الصلح: أن يفسح لهم مجال العمرة ثلاثة أيام وقد فسحت، ثم ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ هو فتح مكة، فإنه هو دون ذلك، لا صلح الحديبية، وذلك لأن «ذلك» هنا ليس إلّا صدق رؤيا الرسول، ولم تصدق إلّا في عمرة القضاء بعد الحديبية بسنة وقبل فتح مكة بسنة.

فـ ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا﴾ التي أراها إياه في الحديبية، صدقها ﴿بِالْحَقِّ﴾ بحق الصدق وصدق الحق، صدقاً يصاحب الحق، والرؤيا هي:

﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ ولكن كيف؟

إنه صادق ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ وترى أن صدق وعد الله كذلك بحاجة إلى ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾؟! أجل - فإنه أدب دائب يؤدب به المؤمنون بالله أن يكونوا ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ ويروضوا أنفسهم على ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ حتى وفيما هو حتم حسب وعد الله كدخولهم المسجد الحرام للتطواف حول بيت الله!.

هذه المشية الإلهية يجب أن يعيشها المؤمن في صورتها الطليقة دونما تقيد بشيء حتى تستقر في القلوب، ولكي تصبح حياة المؤمن صورة وضاءة عن ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ فيكون في حياته كل الحياة مثالاً لمشيئة الله، ممثلاً لـ ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ فيعيش مشيئة الله حتى فيما يراه حتماً كما وعد الله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ فهو هو الله الذي يقول هنا عن صدق الرؤيا ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ ولكي نتأدب نحن بأدب الله ونستن بسنّة الله.

ثم وليس دخول المسجد الحرام خائفين كما كان قبل الصلح، بل ﴿ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾: آمنين من بأس المشركين، محلقين ومقصرين حيث كانت عمرة القضاء، والمعتمر مخير بعد السعي بين الحلق والتقصير مهما كان الحلق أفضل وأحرى[1] خلاف يوم الحج الأضحى حيث الحلق متعين إلّا لمن استثنى.

﴿فَعَلِمَ﴾ الله ﴿مَا لَمْ تَعْلَمُواْ﴾ من رحمة وحكمة بالغة، ومن تأخير لصدق هذه الرؤيا حيث ظننتموها حالاً حينها، ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ الدخول لعمرة القضاء ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ الذي تكرر وعده طوال الرسالة في مكة والمدينة، وهو فتح مكة.

## عمرة القضاء:

روت الرواة أنه لما كان ذو القعدة من سابع الهجرة - التالي لصلح الحديبية - خرج رسول الله ﷺ حسب وثيقة الصلح إلى مكة معتمراً مع جماعة من المدينة وأخرى من أهالي الحديبية، فأحرم من ذي الحليفة

(١) الدر المنثور ٦: ٨١ - أخرج مالك والطيالسي وابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجة عن ابن عمران أن رسول الله ﷺ قال: رحم الله المحلقين - قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: رحم الله المحلقين - قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: والمقصرين.

وفيه أخرج الطيالسي وأحمد وأبو يعلى عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ وأصحابه حلقوا رؤوسهم يوم الحديبية إلا عثمان بن عفان وأبا قتادة فاستغفر رسول الله ﷺ للمحلقين ثلاثاً وللمقصرين مرة.

أقول: استغفاره ﷺ للمقصرين أعم من ذنب التقصير وسائر ذنوبهم حيث يقول الله: ﴿وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٦] وذلك للمصدود عن إتمام مناسكه، وأما استغفاره للمحلقين فعن سائر ذنوبهم السابقة.

ولقد فصلنا القول حول حكم الحلق والتقصير في الحج والعمرة في كتابنا «أسرار. مناسك، أدلة: الحج» وقد طبع باللغة الفارسية وسوف ينقل إلى اللغة العربية إن شاء الله تعالى.

(مسجد الشجرة) وساق معه الهدي، وسار بأصحابه ملبين، فلما قرب من مرّ الظهران بعث محمد بن مسلمة بالخيل والسلاح أمامه، فلما رآه المشركون رعبوا رعباً شديداً وظنوا أنه يغزوهم ناكثاً للعهد الذي بينه وبينهم، فأخبروا سائر مكة، فلما جاء الرسول ﷺ فنزل بمرِّ الظهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم، بعث السلاح من القسي والنبل والرماح إلى بطن ياجج، وسار إلى مكة بالسيوف المغمدة في قُربها كما شارطهم من ذي قبل، فلما كان أثناء الطريق بعثت قريش مكرز بن حفص فقال: يا محمد! ما عرفناك تنقض العهد! فقال ﷺ : وما ذاك؟ قال: دخلت علينا بالسلاح والقسي والرماح! فقال ﷺ : لم يكن ذلك وقد بعثنا به إلى ياجج، فقال: بهذا عرفناك بالبر والوفاء!.

وخرجت رؤوس الكفار من مكة لئلا ينظروا إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه غيظاً وحنقاً، وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فجلسوا في الطريق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فدخلها وبين يديه أصحابه يلبون، والهدي قد بعثه إلى ذي طوى وهو راكب ناقته القصواء التي كان راكبها يوم الحديبية، وعبد الله بن رواحة الأنصاري آخذ بزمام الناقة يقودها.

وهكذا صدق الله رسوله الرؤيا بالحق، ثم كان الفتح بعد عامٍ من عمرة القضاء وظهر دين الله، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، ثم ظهر في الجزيرة كلها، ومن ثم يتحقق في العالم كله في دولة القائم من عترته عليه السلام وكما وعد:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾:

ذكرنا في سورة الصف طرفاً من تفسير نظيرتها ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾[١] [٢] و«رسوله» هنا كما هناك وكما في ٨٢ آية أخرى[٣] تؤكد له أصالة الرسالة الإلهية، وكأنها هي الوحيدة فلا رسالة إلا له دون سواه، والمرسلون المسبقون عليه إنما يعدُّون لرسالته عدة بكل عِدة وعُدة.

فهو المرسل ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾ كل الهدى ﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾: الثابت الذي لا حِول له ولا محيد عنه، ثابتاً دائباً على مر الزمن ما طلعت الشمس وغربت، فلا تغرب شمس الرسالة الإسلامية منذ بزوغها إلى القيامة الكبرى، مرفوفاً أعلامها، مشعّاً وضاءً على عقول وقلوب العالمين، معطية متطلبات الحياة وحاجات البيئات من ساكني الأكواخ إلى ساكني ناطحات السحاب.

﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ﴾: الطاعة كلها، من حقها وباطلها، كما في دولة القائم عليه السلام حيث الإسلام يظهر على الأديان كلها، فلا شوكة ولا كيان إلا له مهما بقيت بقية ضئيلة من سائر الأديان، فإنهم لا بد وهم تحت ظل الإسلام ورقابته ومن أهل ذمته لا صوت لهم ولا صيت[٤] مهما انحسر

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٣.

(٢) ج ٢٨.

(٣) لفظة «رسوله» نجدها خاصة بالرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم في ٨٤ موضعاً من القرآن دون سواه من رسل الله إلا رسولي بالنسبة للمسيح في آية واحدة.

(٤) تفسير البرهان عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في الآية قال: يظهر الله عز وجل في الرجعة وفيه عن أبي الحسن الماضي قال: يظهر على جميع الأديان عند قيام القائم. .

سياسياً في ردح من الزمن لانكسار أهليها وارتجاعهم عنها كنظام حيوي شامل، ولكنه حتى في الناحية السياسية لم ينحسر إلا تاركوه: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(١).

وإظهار ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾: الإسلام - على الدين كله، منه إظهار بالحجة والآيات وهو كائن ويستمر منذ بزوغ الإسلام، وإن كان مبتلى بالخصام في حرب سجال طوال تأريخه المجيد.. وهذا الإظهار كائن بأصل الرسالة وليس غاية لها، والنص يجعله غاية ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾.

ومنه إظهاره في واقع الحياة، غلَباً في الحكم على غلَبَة في الحجة وهو لا محالة كائن في الدولة الأخيرة الإسلامية.

وليس الإظهار هو الإمحاء حتى لا يبقى دين إلا وهو يفنى، وإنما هو الغلبة على الخصام رغم وجودهم، ولكنهم ضعفاء هؤلاء متخالفون مع بعض متعادون: من اليهود: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ ... وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾(٢) ومن النصارى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ... فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾(٣).

وأما من سواهم من مليين ومشركين وماديين فلا نعرف عنهم في دولة القائم شيئاً، هل هم كذلك كائنون على ضعف أم بائدون، وإنَّ ما نعرفه هو ظهور دين الحق على الدين كله، وعلّه يلمح إلى وجود الدين كله حتى يظهر الإسلام على الدين كله.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٩.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٤.
(٣) سورة المائدة، الآية: ١٤.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾: ظهوراً بآياته في قرآنه المجيد، فإنه قوي بذاته، شاهد لظهوره بمؤهلاته، زاحف بلا سيف ولا حيف، لما في كيانه من استقامة مع الفطَر والعقول، ومع نواميس الكون ككل، وما فيه من استجابة لمتطلبات الحياة والأحياء ما طلعت الشمس وغربت.

وفيما يلي - لآخر آية من سورة الفتح - تلميح مليح بشرطي ظهور هذا الدين في شطري الرسول والمرسل إليهم، فيها رمز استمرارية الفتح المبين، دون وقفة على الفتح الأول، فلا يزالون فاتحين ما داموا يحملون هذه الرسالة السامية كما يجب وقدر ما حَمَلوا مما حمِّلوا:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا (٢٩)﴾

آية عديمة النظير تحمل تعريفاً بالبشير النذير والذين معه بتمثيل وتقرير من التوراة والإنجيل يجعلهم مثلاً عالياً في تاريخ الإنسان منقطع النظير، قاطعة آمال المسلمين المستسلمين، مزيفة كيان من يدعون الصحابة كأنها تُرس عن كل قبيح، فهم لصحبتهم الرسول نبراس منير، مخطئين معية الرسالة بصحبة زمنية ومعاصرة!.

إنها تحمل صورة رائعة عن سيرة الذين مع الرسول ﷺ التي تجمعها نفس الصيغة: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ وتفصلها فصائل الآية في سلبيتهم وجاه الكفار: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾ وايجابيتهم بينهم أنفسهم: ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ كحالتين جماعيتين تتقدمان على سائر الحالات، من لقطة تصورهم في محاريب العبادة بعد حنانهم الجماعي وحرابهم ضد الكفار: ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ بما يعنيه ركوعهم وسجودهم: ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ﴾ دون أن تكون مجرد صور وهيئات، فلأنها تكون من الأعماق تصوِّر في سيماهم صورة معنوية شاملة: ﴿سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾ و﴿ذَٰلِكَ﴾ العظيم العظيم ﴿مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ﴾ كما تأتي في آيات (و) أما ﴿وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ﴾ وكما في آيات تأتي ﴿كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ...﴾.

ويا له من مثلث بارع من الكتب السماوية الثلاث تعريفاً بالذين معه، وأن لو استقاموا على الطريقة المحمدية لكان حياتهم فتحاً دائباً بيناً و﴿مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾:

اسم واحد ووصف واحد: ﴿رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ دون أن ينسب إلى بلده وهو أم القرى وقبلة الموحدين، أو إلى قريب له في نسب أو سبب أم ماذا! إنما هو ﴿رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ وكفاه مفخرة بين العالمين أن يحمل هذه الرسالة السامية الخالدة، ولا تجده يوصف في القرآن إلا بعبودية أو نبوة أو رسالة، وأما الميزات الأخرى الخيالية فلا أثر لها في القرآن كله!.

﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾:

معه في رسالته الإلهية تصديقاً وإيماناً وتطبيقاً، ومعه في حملها كما حمَل، دعوة إليها وجهاداً في سبيلها وتصبُّراً لمشاقها وتحملاً لحرماتها وحرماناتها!.

فلا تعني معية الرسول - التي لا تختص بزمان أو مكان أو قوم - معية الزمن حتى تختص بصحابته المعاصرين، أو معية المكان لكي تنحصر بمن عاينوه وشاهدوه، فتنحسر عمن بعده من التابعين وأتباعهم إلى يوم الدين، ولا معية نسبة أو قرابة أو لغة أم ماذا! مما لا تقرب أصحابها إلى رسالة السماء وقد تبعد عنها، كما أبو لهب البعيد البعيد الذي كان يحمل كافة هذه المعيات إلا الرسالة، وقد نزلت في تبابه سورة فذة، ثم نرى سلمان الفارسي الذي لم يحمل إلا معية الرسالة يصبح سلمان المحمدي!.

أجل - إنه لا معية هناك معنيّة إلا معية الرسالة، كما يصدقها وصف محمد مسبقاً بالرسالة، ومواصفاتها اللاحقة التي لا تحمل زماناً ولا مكاناً

ولا لغة ولا قرابة، فبإمكانك أن تكون معه قريباً إليه، وأنت بعيد عنه عرض المكان، طول الزمان دون أية نسبة أو قرابة، أو أن تكون عليه (لا معه) غريباً عنه وأنت تعاصره وتواطئه مشاهداً له ليل نهار وأنت من أنسب أنسبائه أو أقرب أقربائه - فـ«إن ولي محمد من والى الله ورسوله وإن بعدت لحمته وإن عدو محمد من عادى الله ورسوله وإن قربت لحمته» إذاً فلا تعني هذه المعية إلا أن تنحو منحاه في رسالة السماء تطبيقاً ونشراً له في الأرض:

فكما أن الرسول كان شديداً على الكفار دون مواربة ولا مداهنة ولا أنصاف حلول، كذلك:

﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾:

ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم، وهذه هي سمة الإيمان ألّا تعرف في سبيل الله أياً من هذه وتلك: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ...﴾[(١)].

ولا تعني الشدة على الكفار الإساءة إليهم وإن كان يؤمل منهم رشد، وإنما السياج القويم الحاجز بينهم وبين الكفار، لا يسمح بتدخل في شؤون المسلمين ثقافياً أو سياسياً أو اقتصادياً أو أخلاقياً أم ماذا؟ ثم لا يسمح لمسلم أن يوادهم ويواليهم، فآخر أمرهم معهم: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾[(٢)] وأوله أن يهدوهم الصراط المستقيم، دون أن تكون هناك متوسطات في مداهنات أو مواربات.

---

(١) سورة المجادلة، الآية: ٢٢.

(٢) سورة الكافرون، الآية: ٦.

فهم يجتازون وشائج القرابات وسائر الحميات في ظلال وشائج الإيمان إلى تحقيق مرضاة الله لأنهم حزب الله: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(١).

وكما أن الرسول ﷺ: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٢) قائلاً لهم: (لا يرحم الله من لا يرحم الناس)(٣) و(لا تنزع الرحمة إلا من شقي)(٤) و(إنما يرحم الله من عباده الرحماء)(٥) كذلك الذين معه:

﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾:

تربطهم وشيجة الإيمان بالله فقط مهما تفارقوا بسائر الوشائج، فهم نسبهم وسببهم الإيمان، وجنسيتهم الإيمان، يعيشون في ظلاله إخوة متحابين، لا تجد فيهم إلا أخوة الإيمان ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾(٦). إذاً فكل المنازعات والمشاغبات بين المؤمنين إنما هي من ضعف الإيمان أو جهلهم موقع الإيمان، وهنا لك أعداءنا يتربصون بنا الدوائر ليوسعوا الخرق بيننا، والشيطان ينزغ بيننا: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾(٧) ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٨).

فهؤلاء الذين يدعون الإسلام ثم يحاولون في تفريق كلمة المسلمين

(١) سورة المجادلة، الآية: ٢٢.
(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.
(٣) الدر المنثور ٦: ٨٢ - أخرجه ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم والترمذي عن جرير عنه ﷺ.
(٤) المصدر: أخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة عنه ﷺ.
(٥) المصدر: أخرج ابن أبي شيبة عن أسامة بن زيد عنه ﷺ.
(٦) سورة الحجرات، الآية: ١٠.
(٧) سورة الإسراء، الآية: ٥٣.
(٨) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٠.

وتوسيع الخلافات فيما بينهم، أولئك هم حزب الشيطان، فاحذروهم مهما كبرت عمَّاتهم وطالت لحاهم، أعاذنا الله من شرّهم ولا سيما في قبلة الإسلام ومولده.

فرغم أن الواجب رفض الخلافات البعيدة المدى في مملكة الحج، نرى عملاء بزي العلماء يخطبون ويكتبون في الحرمين المباركين ما اكتتبه واختطبه لهم الاستعمار الكافر عارفين أو غافلين ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[(١)] ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾[(٢)]!.

وكما كان الرسول ﷺ أول العابدين فالذين معه:

﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ﴾:

تراهم وكأنهم راكعون دوماً وساجدون، أجل ولأنهم حياتهم الركوع والسجود لله في كافة صورها على مختلف صيغها وهيئاتها، في صلاتها لله وفي كل صِلاتها بخلق الله، في حياتهم الفردية لله وفي الجماعية ابتغاء فضل الله ورضوان الله، فكل حياتهم كأنها صلاة وكلها صِلات وكلها لله ركوعات وسجودات طالما تختلف الهيئات، فما الركوع والسجود في الصلاة إلّا تعبيراً عينياً عن أصالة العبودية والخضوع لله، المتعرقة في نفوسهم.

﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ﴾:

شجرة لها ساقان، شجرة العبودية الناحية منحى رضوان من الله لأنه الله، وفضل من الله حيث وعد عباده الصالحين، فضلاً في الدنيا وفضلاً في الآخرة، فيعملون لهما ويأملون من الله الفضل فيهما.

(١) سورة الكهف، الآيتان: ١٠٤، ١٠٥.
(٢) سورة النحل، الآية: ٢٥.

ثم وآثار ذلك السجود لائحة في سيماهم لمن ينظر بنور الله:

﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾:

فالسيما هي العلامة اللائحة للناظرين بنور الله دون الجاهلين: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾(١) فأنت أنت تعرفهم والذين معك كما ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾(٢) فهذا من سيما التعفف والايمان، ثم هناك سيما النفاق والإجرام: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾(٣) هذا - ولكن سيما النفاق هي أحياناً بحاجة إلى تعريف وحتى للرسول: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾(٤).

ومهما كان سيما النفاق غامضاً وبحاجة إلى تعريف، فسيما الإيمان من أثر السجود لائحة للناظرين بنور الله دون تعريف - ف:

﴿سِيمَاهُمْ﴾: علامتهم كائنة لائحة ﴿فِي وُجُوهِهِم﴾ -: وجهاتهم واتجاهاتهم ومواجهاتهم، وفي ذوات وجوههم يرى الاتجاه إلى الله لائحاً، وكل ذلك ﴿مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ الذي يعيشونه لله حياتهم.

فلا يعني أثر السجود وسيما الوجوه ثفنات الجباه فقط: التي قد تصطنع مغبة الاستحمار الاستغفال، وحتى ممن لا يعرف سجوداً لله اللهم إلا للّهو! أو ممن يسجد مصلحياً تاجراً أم ماذا(٥)؟

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٧٣.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٤٦.
(٣) سورة الرحمن، الآية: ٤١.
(٤) سورة محمد، الآية: ٣٠.
(٥) الدر المنثور ٦: ٨٢ أخرج الطبراني والبيهقي في سننه عن حميد بن عبد الرحمن قال: كنت عند السائب بن يزيد إذ جاء رجل في وجهه أثر السجود فقال: لقد أفسد هذا وجهه أما والله ما هي السيما التي سمى الله ولقد صليت على وجهي ثمانين سنة ما أثر السجود بين عيني!.

فليس الأثر الظاهر على الجباه من السجود هو هو سيما الإيمان، كما ليست الجباه الخالية عن الثفنات سيما اللاإيمان، فقد يجتمعان وقد يفترقان.

فأثر السجود وهو أثر العبادة المتمثلة تماماً في السجود، هو يشمل الركوع كذلك كما ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ وهو يشمل كافة نهضات العبادة لله في كافة صورها، فأثر العبادة لائح في سيماهم، في ملامح وجوههم حيث تتوارى الخيلاء والكبرياء، لائحة عليها الوضاءة الهادئة والصباحة النبيلة، كذلك وفي ملامح وجهاتهم ومواجهاتهم واتجاهاتهم، ألّا نمردة فيها ولا فرعنة ولا استغلال، ولا أية محاولات وتصرفات إلّا على ضوء شريعة الله!

وهذه السيما السامية لائحة عليهم واضحة يوم الدنيا ويوم الدين[١] هنا لأولى البصائر وهناك لأهل المحشر أجمعين حيث ﴿تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾[٢]!.

«إذا نظرت إلى أحدهم عرفت أنه من أهل الصلاة بأثر الوضوء وإذا أصبحت عرفت أنه قد صلى من الليل، وهو العفاف في الدين والحياء وحسن السمت»[٣].

﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ ذلك القدسية الفردية والجماعية السليمة الإسلامية في الذين مع الرسول مثلهم السامي في التوراة، كما في بشارات عدة تصف الرسول ﷺ وأمته بقوة في دين وصمود ضد أعداء الدين[٤].

---

(١) المصدر: أخرج الطبراني في الأوسط والصغير وابن مردويه بسند حسن عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: في قوله ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩] قال: النور يوم القيامة.

وأخرج الطبراني عن سمرة بن جندب أن رسول الله ﷺ قال: «إن الأنبياء عليهم السلام يتباهون أيهم أكثر أصحاباً من أمته فأرجو أن أكون يومئذٍ أكثرهم كلهم واردة وأن كل رجل منهم يومئذ: قائم على حوض ملآن معه عصا يدعو من عرف من أمته ولكل أمة سيما يعرفهم بها نبيهم».

(٢) سورة الطارق، الآية: ٩.

(٣) الدر المنثور ٦: ٨٢: أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ في الآية قال: إن جبريل قال: إذا نظرت إلى الرجل من أمتك عرفت...

(٤) راجع رسول الإسلام في الكتب السماوية، قسم البشارات التوراتية.

مثل ما في (مزمور ١٤٩: ١ و٦ - ٩) من زبور داود: «هللويا. رنموا للرب ترنيما جديداً، أقيموا تسبيحه في مجمع الأصفياء... يبتهج الأصفياء في المجد يرنمون على أسرتهم (٦) تعظيم الله في أفواههم وبأيديهم سيف ذو حدين (٧) لإجراء الانتقام على الأمم والتأديب على الشعوب (٨) لإيثاق الملوك بالقيود وشرفائهم بكبول من حديد (٩) ليمضوا عليهم القضاء المكتوب، هذا فخر يكون لجميع أصفيائه. هللويا».

فإنها تجمع مواصفتهم بالشدة على الكفار والرحمة بينهم أنفسهم وأنهم أصفياء... وهكذا تجد آيات في عموم التوراة وخصوصها بحق الأمة الإسلامية(١).

﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ﴾ أخرج فرخه وفرعه دون أن ينقص فرخه من قواه بل ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ ناصر عوده وأصله، أو أن الزرع آزر فرعه، أو المعنى مؤازرة الأصل الرسالي والفرع الذي معه، فالرسول برسالته وتوفيق الله يصنع مؤمنين ويؤازرهم، وهم بإيمانهم وتوفيق الله يؤازرونه ويعزرونه.

ومن جراء هذا الإخراج وتلك المؤازرة «فاستغلظ» الزرع بشطئه ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ وفي ذلك الإخراج المؤازرة الاستواء، إعجاب ومسرة لسائر الزراع الرسل: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ كما أعجبوا من تشريفه قبل تكونه، ومن ثم ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ فالكفار يزيدهم هذا الزرع الأخير تغيظاً وتميزاً ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾(٢) وأمّا رسل الله والمؤمنون بهم فيزيدهم سروراً واعتزازاً، فإنهم ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾!

(١) خصوص التوراة هي الأسفار الخمسة الموسوية، وعمومها كتب العهد العتيق بأجمعها من أي نبي إسرائيلي كان.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٠.

وهكذا تكونت الرسالة الإسلامية برسولها والذين معه، حتى كونت كياناً قديماً لا قِبل له، إلا على من لا يمشون على خططها، تتدرج من ضعف في عِدة وعُدة إلى قوة فوق قوة، ولكي تشمل العالم كله ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾.

ترى ألم يكن الذين معه - مع تلكم المواصفات التي تجعلهم في قمة الإيمان - من المؤمنين الصالحين، حتى يقول الله هنا في مجال المغفرة والأجر العظيم «منهم» لا - كلهم؟

علَّه تأكيد بعد تصريح بشروطات الإيمان في تحقق وعد الله كي لا ينساها أو يتناساها أناس فيحسبون الإيمان لفظة قول أو تصوراً أو عقيدة فقط، وإنما الإيمان الذي يظهر في صالحات، وصالحات تزهر من إيمان، هما دوماً سبب الأجر العظيم والغفران.

وها هي الآيات الإنجيلية التي تمثلهم بهذا المثل السامي:

## أنباء الملكوت وأبناؤه

الملكوت وهي حقيقة الملك تكويناً وتشريعاً، كثيراً ما تعني الشريعة الإسلامية، فأبناؤها أبناء الملكوت ولهم في الإنجيل الذكريات التالية:

١ - «إن كلام الملكوت يزرع في قلوب الناس كما تزرع الحنطة في المزرعة والله صاحبها» (متى ١٣ : ١ - ٢٤) (مرقس ٤ : ١ - ٢٠) (لوقا ٨ : ١ - ١٥).

٢ - «ملكوت الله ينشأ آناً فآناً وينمو سنة فسنة ويكبر عصراً فعصراً ويتقوى دونما انقطاع» (مرقس ٤ : ٢٦: ٢٩).

٣ - «ينمو الملكوت ويتكاثر جداً بين بعض الأقوام لمدة قليلة دون أن

يبقى كافر ولا مشرك كالخردل، يؤثر كلام الملكوت في قلوب الناس ويؤدي بهم إلى الإيمان» (متى ١٣: ٣١ - ٣٣، مرقس ٤: ٣١ - ٣٣).

٤ - «في أبناء الملكوت حبات الحنطة التي تعطي مائة ضعف وفيهم أولاد إبليس» (متى ١٣: ٢٤ - ٣٠ و٣: ٤٧ - ٥٠ و٢٢: ١٠).

٥ - «أبناء الملكوت هم ملح الأرض وبقدر ما يحتاج الطعام إلى الملح فكذلك كل العالم وجميع أقوام كرة الأرض يفتقرون إلى أبناء ملكوت الله» (متى ٥: ١٣) (مرقس ٩: ٥) (لوقا ١٤: ٣٤ - ٣٥).

٦ - «أبناء الملكوت هم نور العالم» (متى ٥: ١٤ - ١٦).

٧ - «تبقى أولاد الشيطان مع أبناء الملكوت على جنب إلى يوم القيامة» (متى ١٣: ٢٧ - ٣٠).

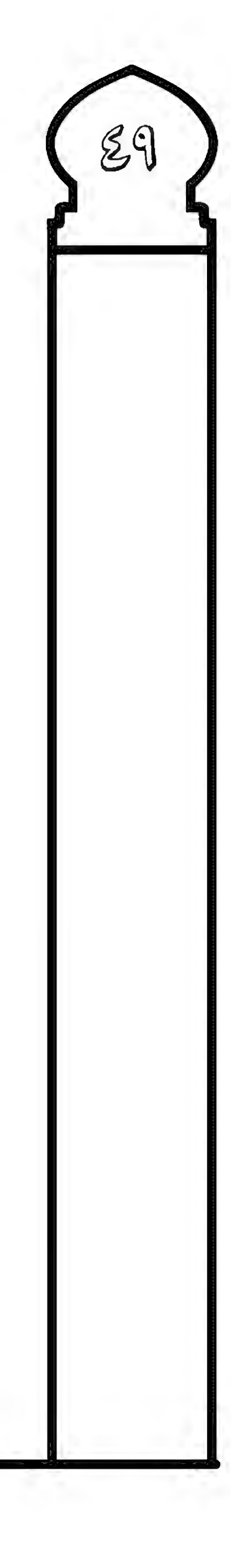
٨ - «أبناء الملكوت لا يعطون القدس للكلاب ولا يطرحون دورها أمام الخنازير» (متى ٧: ٦).

٩ - «إن ملكوت الله هو مثال ملكوت السماوات لا يفكرون في جمع الخزائن ليكونوا أغنياء في الدنيا لأنهم عما قليل يتركون الدنيا ولذاتها وخزائنها» (متى ٦: ١٩ - ٢١).

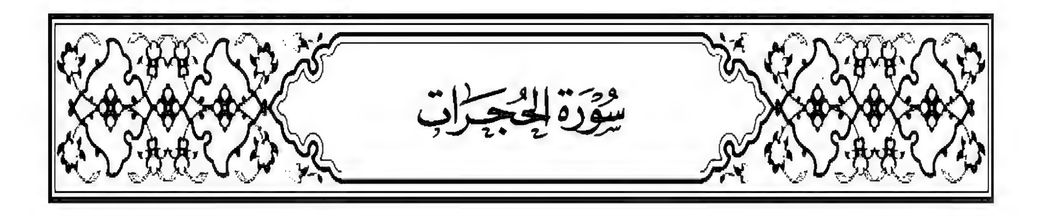
١٠ - «الأغنياء غير الشاكرين الذين يتوكلون على مال الدنيا هم خارجون ملكوت الله» (متى ١٩: ٢٢: ٢٤).

هذه مواصفات الملكوت وأنباؤه وأبناؤه، وتلك عشرة كاملة من الأناجيل تتمثل في الرسول الأعظم محمد ﷺ وأمته.






# سُورَةُ الحُجُرَاتِ




## مدنية – وآياتها ثمان عشرة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ (١) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا
تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا
تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ ٱلَّذِينَ
يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟
حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ
مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ (٦) وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ
ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ
ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ (٧) فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ
وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨) وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟
فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ
إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ

﴿...الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠)﴾

سورة هي ثورة قارعة على اللّاأخلاقيات العارمة، المتبقية في الجماعة المسلمة من جاهليات، أو المتسربة فيها من عادات سيئات، نازعة هذه الكتلة المؤمنة عن أخلاق النسناس إلى أخلاق الناس ما يؤدبه بجنب الله ورسوله من عدم التقديم، وما ينظم سلوكه مع المؤمنين وسائر الناس في المجتمع الحيوي، وما يمتاز به إنسان في شريعة الله، وهي على قلة آيها كثيرة المعنى، غزيرة المغزى تنبع بحقائق تفتح للعقول والقلوب آفاقاً بعيدة، ما تتجاوز حجمها مئات المرات، لو اتخذها المؤمنون نبراساً في سيرتهم ومتراساً في مصيرتهم لعاشوا أعزة أعلون، وليكونوا مثلاً للأخلاق الفاضلة، ومُثلاً للإنسانية الكاملة، فيكونوا مدينة فاضلة يحكم فيها أخلاق الله، يأمن فيها المؤمنون بالله، ومن هم في ذممهم على ضوء شريعة الله، شرط ألّا يقدموا بين يدي الله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١)﴾:

ترى ماذا تعني ﴿بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ﴾؟ إنها الأمام تشريعاً أم سواه، وليست اليدين الجارحتين، فاليدان لا تختصان بهما وإن لمن له جارحتان؛ كالموارد التي لا تناسبانها مثل عقدة النكاح: ﴿أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾[(١)] وكسائر الموارد للمخلوق الذي ليست له جارحتان: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[(٢)] ﴿إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾[(٣)]

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٧.
(٢) سورة سبأ، الآية: ٤٦.
(٣) سورة المجادلة، الآية: ١٢.

فكيف إذاً لمن تستحيل له اليدان الجارحتان، مهما تمحَّل له من لا يعرف معاني الكلام: إن له يدين جارحتين كما تناسب ساحة قدسه، من تناقض جارح لساحة قدسه(١) قارح لتجرده عن كافة الحدود والأمثال.

فهنا التقديم بين يدي الله، ليس أن تقدم نفسك في مشيتك على الله فلا له مشي على الأرض أم سواها، ولا أن هناك - لو كان - تماشياً وتسابقاً حتى ينهى عنه، وإنما هو تقديم لك عليه في اعتقاد أو مقال أو فعال كتشريع وحكم أم ماذا؟ فـ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾(٢) ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾(٣).

فمن التقديم بين يدي الله تقديم لحكم على حكم الله، في عقيدة أم قول أم فعل، سواء أكان نقضاً لحكم الله بعد ما حكم فهو تشريع، أم سبقاً لحكم الله قبل أن يحكم وإن وافقه بعدما حكم، فإنه فسوق وخروج عن التسليم لله.

و﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ليس ليختص التقديم الممنوع بالقول لأنه فقط

---

(١) فما هو إلا مثل ما يقال: إن الله يجهل كما يناسب ألوهيته، ويعجز كما يناسب الوهيته، وينزل من سماء إلى سماء ويصعد كما يناسب ألوهيته! فإن من الصفات والأفعال ما لا تناسب ساحة الألوهية في أي معنى أخذت - كهذه وكالظلم والنسيان والسهو والخطأ - وسائر ما يختص بالمخلوقين - كما أن منها ما يختص به تعالى دون أن يشاركه فيها غيره بأي معنى كان - كالرحمانية والرحيمية والمعبودية والمشرعية.. وإن كان منها ما تنسب إلى الله كما يناسب ذاته وتنسب إلى غيره كما تناسبه - فاللفظ مشترك والمعنى متباين - كالوجود والعلم والقدرة - فالله موجود والخلق موجود ولكن الوجودين متباينان - فأين الوجود الأزلي والحادث وأين الأبدي والفاني - والمجرد والمادي - وأين وأين - ومن هذه الألفاظ اليد والعين وأشباهها فإنها تستعمل في معاني مختلفة حتى لمن له هذه الأعضاء، فكيف بمن ليس له أعضاء؟

فالمعلوم قطعياً هنا أن اليدين بالنسبة لله ليستا الجارحتين، وإنما صفات أو أفعال تناسب ذاته تعالى، لا أجزاء من ذاته فليست له أجزاء.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٥٧.

(٣) سورة الرعد، الآية: ٤١.

المسموع دون العقيدة والفعل فإنه ثني بـ ﴿عَلِيمٌ﴾ فيشمل غير القول مما يعلم من فعل أم عقيدة أم ماذا؟

ومن ثم التقديم بين يدي رسول الله ﷺ هو كالتقديم بين يدي الله، ولا فارق بينهما إلا أصالة في الله ورسالة في رسول الله دون أي استقلال عن اللّهو ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[1] وإلا أن لرسول الله أمام الجسم كما له أمام الرسالة، فـ «لا تقدموا بين يدي رسوله» تعم تقديمك نفسك أم سواك على رسول الله ﷺ في مشيته أو قيامه أم جلوسه وقعوده، فكما أن روحه برسالته تتقدم على سائر الأرواح، كذلك جسمه الذي يحمل تلكم الروح القدسية، لا يقدم عليه أي جسم ولا أي روح، فجسمه ﷺ أشرف من سائر الأرواح فضلاً عن روحه!

والنهي عن التقديم هنا وهناك يعني وجوب التأخير، والتسليم لله ولرسوله، دون مساواة أو مساماة مع الله أو الرسول في حكمه أم سواه، وإنها داخلة في ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ حيث التقوى تتنافى والمساواة كما تنافي التقديم ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في ألوهيته وفي رسوله أن تفسقوا عن مثلث العقيدة والقول والعمل في حكم الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ ما تقولون ﴿عَلِيمٌ﴾ ما تنوون وتعتقدون وتعملون.

ولماذا ﴿لَا تُقَدِّمُواْ﴾ دون «لا تتقدموا»؟ لأن التقدم يخص المخاطب نفسه دون سواه، والتقديم يعمه وسواه، فكما يحرم التقدم على الله ورسوله في حكم أو سواه، كذلك أن تقدم غيرك على الله أو على رسوله، وإن كان ذلك الغير رسول الله ﷺ أن تقدمه على الله، أو إماماً من الأئمة تقدمه على رسول الله ﷺ، أو أن تساوي وتسامي بين الله وسواه أو بين رسول الله وخلقٍ سواه.

ومن ثم فلا يختص حكم التقديم بالحكم، فإنه يعم الحكم وسواه، كأن

(١) سورة النساء، الآية: ٨٠.

يقدم نفسه أم سواه على رسول الله ﷺ في مشيه أو جلوسه أو قيامه أو كلامه أم ماذا؟ فإن الرسول مقدم على الأمة بحكم رسالته، كما الله مقدم على الخلق بألوهيته في كل شيء، فلا يقدم بين يدي كيانه كيان، ولا بين يدي عبوديته سواه، ولا طاعته سواه، ولا حرمته سواه، ولا بين يدي حكمه سواه، كما ولا يسامى في ذلك أو يساوى بسواه.

فما للذين يدَّعون الإسلام يقدمون حكم فلان وفلان على حكم الله، وحديث فلان على كتاب الله، واجتهاد فلان على سنَّة رسول الله ﷺ، وإذا قيل لهم هذه بدعة؟ قالوا: نعم بدعة حسنة[1]! أو قيل لهم: حديث يخالف كتاب الله؟ قالوا: إسناده صحيح تقبَّله العلماء! فما لهم لا يؤمنون؟ وإذا ذكِّروا لا يذكرون، فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون.

وإنما هو كتاب الله، أو الرواية الموافقة لكتاب الله، أو الثابتة غير المخالفة له، دون أي اجتهاد من قياس أو استحسان أم ماذا؟ من تشريع بغير مصدره، تقديماً بين يدي الله ورسوله أو مساواةً، وإن عدم التقديم بين يدي الله ورسوله لزام الإيمان بالله وتقواه، فسواه كفر بالله وطغواه.

وها هو أدب نفسي مع الله ورسوله، كأصل وحيد في التشريع حكماً وفي سواه سواه، منبثقاً من تقوى الله النابعة من الشعور أنه الله وليس سواه، ورسوله الرسول ليس سواه، وشعوراً أنه سميع عليم، يسمع كل تقديم في مقال، أو تقديم في فعل أو فكرة أو حال، فلا يرى المؤمن تقديماً هنا أو هناك ولو رؤيا مجنحة في خيال.

ولقد تأدب جماعة من المؤمنين الأولين بهذا الأدب لحد كان رسول

---

(١) وبين بدعة وحسنة تناقض بيِّن لان البدعة إدخال ما ليس من الدين في الدين أم إخراج، أو من الدين عنه - فالبدعة معارضة للدين - فهل توجد معارضة حسنة للدين؟ وما أحمق هؤلاء الذين يوجهون بدعاً جازفة بلفظ الحسنة - كأن اللفظة تحول الماهية السيئة إلى الحسنة. فما لهم أنى يؤفكون.

الله ﷺ يسألهم عن اليوم الذي هم فيه والمكان الذي هم فيه، فيتحرجون أن يجيبوا - على علمهم - إلا بقولهم: الله ورسوله أعلم(١).

ومن التقديم بين يدي رسوله رفع الصوت فوق صوته والجهر له بالقول ونداءه من وراء الحجرات:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾:

فليكن صوت النبي فوق الأصوات كما أن صيته فوق الصيات، صوت في حال أو مقال، وصيتٌ في حال على أية حال، ومن سوء الأدب أن يرفع صوت فوق صوته، بل والجهر له بالقول كجهر بعضكم لبعض، وإن كان أدنى من صوته، فلتبرز مكانته الرسالية بين الجموع على المكانات، وليكرم فوق كل الشخصيات فـ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾(٢)!

إنه قد يرفع صوت فوق صوته ﷺ فهو محظور، وقد يجهر له بالقول كما يجهر لسواه على سواء، فهو أيضاً محظور، وإن كان دون صوته، فالمرغوب إذاً غض الأصوات عند رسول الله ﷺ دون أن يساوى في صوت، أو أن يسوى بغيره في صوت، فضلاً أن يرفع فوق صوته صوت، فلو حصل أي من ذلك استخفافاً به ﷺ لكان كفراً، وخطاب الإيمان هنا ينفيه! ولو كان إساءة أدب فمن أفسق الفسق، والايمان قد ينفيه، ولو كان لا شعورياً كعادة جاهلية دون تقصُّد استخفاف أم إساءة وإيذاء، كما قد تقصده

(١) كما جاء في حديث أبي بكرة نفيع بن الحارث الثقفي أن النبي ﷺ سأل في حجة الوداع أي شهر هذا! قلنا: الله ورسوله أعلم - فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال: أليس ذا الحجة؟ قلنا: بلى! قال: أي بلد هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه فقال: أليس البلدة الحرام؟ قلنا: بلى - قال: فأي يوم هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم - فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه - فقال: أليس يوم النحر؟ قلنا: بلى!..

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

- فقط - الآية، فهو إحباط للأعمال ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ لا تشعرون خطأ الجهر ورفع الأصوات، ولا عظمته ومداه، ولا أنه لحد الإحباط: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾(١) ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾(٢): مثلث اللاشعور الرهيب، أو مثنَّاه لمن يشعر خطأه ولا يشعر مداه ولحد الإحباط، فأما بعد هذا البيان الإشعار فهم شاعرون! إذاً فالخبط أغوى والحبط أقوى على من يهبط من مكانة النبي الأقدس ﷺ.

وقد يعني الحبط هنا ما يخص أعمال الخطاب، أن لو لم تكن فيه إساءة أدب وإيذاء لكان صواباً وثواباً، ولكنها حابطة بسوء الأدب، أو يعني حبط الأعمال بين هكذا خطاب إلى المَتاب، حبطاً فقط للثواب، لا لأصل الصحة كالصوم والصلاة، فإن الحبط في إساءة اللاشعور يختلف عن الاستخفاف الكفر المحبط لأصل الأعمال، والإساءة الفسق التي تحبط منها قدرها، فلكل إحباط قدره، كما أن لكل صالحة ثواب قدرها.

ف ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ . . . وَلَا تَجْهَرُوا۟﴾ مخافة ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ﴾ هكذا ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ مساءة أعمالكم هذه، ولا من جرائها: أن تحبط أعمالكم.

فيا له خطاباً رهيباً حبيباً، يحذرهم هذا المزلق الذي ينتهي بهم إلى حبوط أعمالهم وهم لا يشعرون، ولقد ارتعشت قلوب بعض وارتجفت تحت هذه الوقعة القارعة أن خشي بعضهم أن يكون من أهل النار كثابت بن الشماس(٣) وكان من طبعه رفيع الصوت دون أن يرفعه عمداً، لا هتكاً ولا

---

(١) سورة النور، الآية: ١٥.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٤٧.

(٣) روى الإمام أحمد بسند عن أنس بن مالك قال: لما نزلت هذه الآية - وكان ثابت بن قيس بن شماس رفيع الصوت - فقال: أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله ﷺ أنا من أهل النار، حبط عملي وجلس في أهله حزيناً ففقده رسول الله ﷺ فانطلق بعض القوم إليه =

إساءة ولا جهلاً، فلم تشمله الآية، فإنها تنهى عن ذلك علماً أو جهلاً باختيار، لا جهراً دون اختيار.

كما ندم آخرون مما جهروا جهراً كعادة متبقية جاهلية حوّلها الإسلام إلى أدب طاهر، مثل الخليفة أبي بكر والخليفة عمر فلما رفعا أصواتهما فوق صوت النبي ﷺ نزلت الآية فتابا واختجلا[١].

وترى أن الجهر بالقول، لا للرسول ﷺ وهو حي، وإنما لغيره وفي مسجده، أم الجهر في قراءة القرآن أو الدعاء عند قبره، هل إن ذلك محظور[٢]، عطفاً على الجهر له بالقول وهو حي؟ الحق أنه لا محظور، وإلا لحظر على الأذان المجهور به للصلوات في مسجده، وعلى خطبة الجمعة وسائر الخطب فيه، وعلى الدروس التي تلقى فيه، أم وسائر الجهر

---

= فقالوا له: تفقدك رسول الله ﷺ ما لك؟ قال: أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي ﷺ وأجهر له بالقول، حبط عملي، أنا من أهل النار، فأتوا النبي ﷺ فأخبروه بما قال فقال النبي ﷺ: لا - بل من أهل الجنة - قال أنس: فكنا نراه يمشي بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة.

(١) في صحيح البخاري حدثنا يسرة بن صفوان بن جميل اللخمي حدثنا نافع بن عمر عن ابن أبي مليكة قال: كاد الخيّران أن يهلكا: - أبا بكر وعمر رضي الله عنهما -، رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم (في السنة التاسعة من الهجرة) فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس رضي الله عنه أخي بني مجاشع (أي ليؤمر عليهم) وأشار الآخر برجل آخر - قال نافع: لا أحفظ اسمه (في رواية أخرى أن اسمه القعقاع بن معبد) فقال أبو بكر لعمر - رضي الله عنهما - ما أردت إلا خلافي، قال: ما أردت خلافك - فارتفعت أصواتهما في ذلك فأنزل الله تعالى الآية، قال ابن الزبير فما كان عمر رضي الله عنه يسمع رسول الله ﷺ بعده هذه الآية حتى يستفهمه. وروي عن أبي بكر رضي الله عنه أنه لما نزلت هذه الآية قلت: يا رسول الله ﷺ والله لا أكلمك إلا كأخي السرار (يعني كالهمس).

(٢) يروى عن الخليفة عمر رضي الله عنه أنه سمع صوت رجلين في مسجد النبي ﷺ قد ارتفعت أصواتهما فجاء فقال: أتدريان أين أنتما؟ ثم قال: من أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً - أقول لعله رضي الله عنه حرم ذلك لكونه معاركة في مسجده ﷺ إلا أنه كيف يفرق في حكم الله بين أهل الطائف والمدينة؟ أنا لا أدري!.

ما لم يكن فيه هتك لساحة الرسول ﷺ كجهر المعاركات التي تحصل تعصباً عند قبره، وجهر الكلمات المفرقة لجموع المسلمين، الهاتكة لحرمهم، الفاتكة لحرَم الرسول وحُرَمه، كالمجاهرة بتكفير جماعة غفيرة من المسلمين، ونسبتهم إلى الشرك، لأنهم يقبِّلون ضريح الرسول ﷺ الطاهر حباً فيه لا عبودية، وكما أن غيرهم يقبلون أولادهم وأيدي وجباه علمائهم حباً أو احتراماً لهم، تلك إذاً قسمة ضيزى ظالمة، إن ذلك شرك وليس هذا شركاً! جمع الله شمل المسلمين - آمين.

من ثم - وبعد التنديد الشديد بمن يرفعون أصواتهم فوق صوت النبي أو يجهرون له بالقول - يمتدح من يغضون أصواتهم عند رسول الله ﷺ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾:

إن غض الأصوات عند الرسول ﷺ وهو كسرها، يرمز إلى واجب التخضّع عنده في أي صوت أو صيت، لأنه يحمل رسالة الله، فلا يساوى بغيره أو يسامى، وإنما غضٌّ وحضٌّ ظاهر في حال ومقال من قلب ممتحن للتقوى، وكما الجهر له ورفع الصوت على صوته، هو من قلب مقلوب ممتهن بالطغوى، فهؤلاء تحبط أعمالهم، وأولئك الأكارم لهم مغفرة عما تعرضهم من لمم وسواه، وأجر كريم حيث يغضون أصواتهم عند رسول الله ﷺ، وإنما ﴿رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ لا محمد بن عبد الله ﷺ، ولأن الغض عنده غض عند الله، فلذلك هو نابع عن تقوى الله، وليعش المؤمن غضاً لكيانه ككل عند الله وعند رسوله، فلا يقدم بين يدي الله ورسوله.

ثم ومن سوء الأدب مناداة الرسول من وراء الحجرات وإن كانت غضيضة غير عالية على صوته، ولا جاهرة كجهرنا لبعض، فإنما النداء المؤدب هي المواجهة الحضور:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾:

لقد وفدت العرب من كل مكان إليه ﷺ عام الفتح الوفود، فكانت جفاة الأعراب ينادونه من وراء الحجرات[١]، المطلة على المسجد النبوي الشريف: يا محمد اخرج لنا، فكان يكره الرسول ﷺ هذه الجفوة الفجوة المزعجة، فمسح الله تعالى غبار الانزعاج عن خاطره الأقدس أن ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فهم جفاة جاهلون لا يبغون هتكاً لساحتك ولا فتكاً لكرامتك، فاغفر لهم هفوتهم منبها لهم لكي لا يعودوا فتحبط أعمالهم، كما ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: ارحمهم كما الله، أن تعلِّمهم عن جهلهم، واغفر لهم كما الله فإنهم لا يعقلون، وإن كانت ثمة قلة يعقلون، فينادونك من وراء الحجرات تساهلاً في حرمتك، أو هتكاً لحرمتك كالمنافقين.

فليصبر المؤمن حتى يخرج إليه الرسول ﷺ فإنه لا يصبر في حجراته عن حوائج المرسل إليهم إلا لضرورة بيتية عائلية، أو استراحة شخصية، هما لزام له، ولكي يخرج إلى المؤمنين فارغ البال، غير مضطرب الحال، فـ «كان خيراً لهم» أما هو فلا يألو جهداً في سبيل الله، وكل عقبة له يجتازها، وكل صعوبة يتحملها، إنها تزداده خيراً، ولكنكم أنتم المؤمنون! ليس لكم أن تكونوا له أذىً، فاصبروا له حتى يخرج، وثابروا حتى لا يتحرج ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ عما مضى ممن لا يعقلون، وكذلك لمن يعقلون لو كانوا يرجعون عن جفوتهم العامدة.

وهكذا يجب أن تراعى حرمة الرسول الأقدس ﷺ ثم ومن حذا حذوه

---

(١) الدر المنثور: أخرج البخاري في الأدب وابن أبي الدنيا والبيهقي عن داود بن قيس قال: رأيت الحجرات من جريد النخل مغشى من خارج بمسوح الشعر وأظن عرض الباب من باب الحجرة إلى باب البيت نحواً من ستة أو سبعة أذرع واحزر البيت الداخل عشرة أذرع وأظن سمكه بين الثمان والسبع.

ونحى نحوه، فاحتذى على مثاله ومثله، وانتهى قرابة ما انتهى إليه برسالته، كالعلماء المعصومين من عترته، ثم وسائر الربانيين من أمته، كلاًّ على حدة ومحتده والله من وراء القصد.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ۝٦﴾:

أدب جماعي تحمله آية النبأ، يقرر للجماعة المؤمنة كيف يتلقون الأنباء، فإنهم لا يشاهدون جمعاء حضور المباشرة، اللهم إلا قلة قليلة، ومن ثم تبقى الكثرة الكثيرة غائبة عن الإدراك المباشرة، ومن المستحيلات في الحياة الجماعية الاستقلال بما يشاهده الإنسان، دون استغلال لما يشاهده غيره فيشهد به، وهذه الآية كعديد أمثالها، تنهى عن الركون إلى أنباء الفاسقين إلا إذا تبين فيها صدق يجعله علماً كسائر العلم، الذي يعتمد عليه المؤمنون العقلاء، والعقلاء المؤمنون.

إن الأخذ والرفض في الأنباء ليسا فوضى دون حساب، وإنما لكلٍّ ميزان عادل، فلا يؤخذ خبر الفاسق إلا أن يتبين صدقه، ولا يرفض خبر العادل إلا أن يتبين خطأه، ثم لنا بين الأخذ والرفض وقفة لو لم يتبين لا صدق ولا كذب، وليس ذكر الفاسق هنا إلا لأنه أظهر مظان الكذب، فليشمل الجاهل والناسي والساهي وأضرابهم ممن يتطرق إلى أنبائهم خلاف الصدق وإن كانوا غير عامدين أو أن الفاسق يشملهم كلهم لأنه خروج عما يحق من طاعة الله، علماً أو عملاً، نقلاً للأنباء أو تنقلاً أم ماذا؟ فمن يجهل صحة النبأ ثم ينقله كنبأ صادق، إنه فاسق علمياً ولو كان زاهداً، بل وعملياً إذ لا يجوز هكذا نقلٍ مغرٍ لمن يتقي الله، وكذلك من ينسى أو يسهو، أو يتقبل الأنباء دون تبين، فإنه فاسق في نقله إلا أن يبين حقيقة الحال، فيتبين للمنقول له أنه ينقله مراعياً شرائط الوثوق مجانباً كل جوانب الفسوق في نقله

هذا النبأ، وإلا فتبينوا بغية حصول العلم الاطمئنان، مخافة: ﴿أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾!.

وكما يروى عن الإمام الصادق عليه السلام قوله للمنصور: «لا تقبل في أذى رحمك وأهل الرعاية من أهل بيتك قول من حرّم الله عليه الجنة وجعل مأواه النار، فإن النمام شاهد الزور وشريك إبليس في الإغواء بين الناس»[١] - ثم استشهد بالآية.

وترى هل يختص وجوب تبين النبأ: بالخبر العظيم الشأن، الذي جاء به فاسق، إذا كان في اتباعه دون تبين إصابة قوم بجهالة فندمٌ على هذه الإصابة؟ كما نلمح من هذه الآية، فلا يجب - إذاً - تبين في الأخبار غير العظيمة، أو في العظيمة التي يجيء بها المجهول فسقه أو عدله، أو التي يجيء بها فاسق وليست فيها إصابة قوم بجهالة أم ماذا!

في الحق أن آية النبأ لا تنبئ إلا عما أنبأت، لكنما الآيات في حرمة اتباع الظن واقتفاء ما ليس لك به علم تعمم وجوب التبين حتى يحصل العلم الاطمئنان أياً كان الخبر ومن أيٍّ، إلا إذا كان الاطمئنان - أو النوعي منه - حاصلاً بالإخبار ووجوب التبين في آيتنا في موردٍ لا ينفي عدمه في سواه، لنزول الآية في مورد خاص بالغ الأهمية، ثم الآيات الأخرى تعم فلا تناحر في البين.

وخطاب الآية هذه لا يشمل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لمكان ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ المختصة بالمؤمنين بالله والرسول، وأن الإصابة بجهالة والندامة عليها ليست من شيم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الذي ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، فلا تصدق عليه الروايتان في الوليد وعائشة[٢]، وقد تصدقنا الآية التالية لها، الناكرة لاتِّباع الرسول في هكذا أمور:

(١) أمالي الصدوق بإسناده إلى الإمام الصادق عليه السلام.

(٢) لقد رويت في شأن نزول هذه الآية روايتان، إحداهما عن طريق الفريقين في الوليد بن عقبة =

. . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

---

= أن النبي ﷺ بعثه إلى الحارث بن ضرار الخزاعي ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة، فرجع قبل أن يصل إليه فقال: إن الحارث منعني الزكاة وأراد قتلي فضرب رسول الله البعث إلى الحارث فأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البعث وفصل عن المدينة لقيهم الحارث فقالوا: هذا الحارث فلما غشيهم قال لهم: إلى من بعثتم؟ قالوا: إليك، قال: ولم؟ قالوا: إن رسول الله ﷺ بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله - قال: لا والذي بعث محمداً بالحق ما رأيته وما رآني - فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال: منعت الزكاة وأردت قتل رسولي؟ قال: لا والذي بعثك بالحق ما رأيت وما رآني وما أقبلت إلا حين احتبس علي رسول الله ﷺ خشيت أن يكون كانت سخطة من الله ورسوله - فنزل ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ. . .﴾ [الحُجرَات: ٦] (الدر المنثور) أخرجه أحمد وابن أبي حاتم والطبراني وابن منده وابن مردويه بسند جيد عن الحارث بن ضرار قال: قدمت على رسول الله ﷺ فدعاني إلى الإسلام فدخلت فيه وأقررت به ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها - قلت: يا رسول الله ﷺ! أرجع إلى قومي فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة فمن استجاب لي وترسل الي يا رسول الله ﷺ إبان كذا وكذا لتأتيك ما جمعت من الزكاة، فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له وبلغ الإبان الذي أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه احتبس الرسول فلم يأت فظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطة من الله ورسوله فدعا بسروات قومه فقال لهم: إن رسول الله ﷺ كان قد وقَّت لي وقتاً يرسل إلي رسوله ليقبض ما كان عندي من الزكاة وليس من رسول الله ﷺ الخلف ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة فانطلقوا فنأتي رسول الله ﷺ . . ويبعث. . .

أقول: لا يمكن قبول هذا الحديث هكذا - أن يعتمد رسول الله ﷺ على قول فاسق فيبعث إليه بعثة تقاتله، اللهم إلا أن «فزعم أنك منعته. . » تلمح إلى عدم ركون الرسول إلى قول عقبة - وأن البعثة كانت للتبين - والآية لا تشمل النبي فإنه تبين هنا - ولأن الذين آمنوا لا تشمل النبي على أية حال - إضافة إلى براءته عن الجهالة فإنه لا يصدر إلا عن وحي الله، والثانية ما رواها القمي في تفسيره - أن الآية نزلت في مارية القبطية أم إبراهيم وكان سبب ذلك أن عائشة قالت لرسول الله ﷺ أن إبراهيم ليس هو منك وإنما هو من جريح القبطي فإنه يدخل إليها في كل يوم فغضب رسول الله ﷺ وقال لأمير المؤمنين عليه السلام: خذ السيف وائتني برأس جريح فأخذ أمير المؤمنين عليه السلام السيف ثم قال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ﷺ إنك إذا بعثتني في أمرك أكون فيه كالسفود المحمى في الوبر فكيف تأمرني أثبت فيه أو أمضي على ذلك؟ فقال له رسول الله ﷺ: بل تثبت - فجاء أمير المؤمنين إلى مشربة أم إبراهيم فتسلق عليها فلما نظر إليه جريح هرب منه وصعد النخلة فدنا منه أمير المؤمنين عليه السلام وقال له: انزل - فقال له: يا علي! اتق الله ما هاهنا أناس إني مجبوب ثم كشف عن عورته فإذا هو مجبوب، فأتى به=

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ⑦﴾:

وي! كأنهم لا يعلمون أن فيهم رسول الله، الصادر عن الله لا عن آرائهم، السائر إلى الله لا إلى أهوائهم، فـ﴿فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ لا: محمد بن عبد الله، ولا رسول اللهو والهوى، ولا بشر مثلكم في الجهل والخطأ، وإنما ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾ ﷺ لا يصدر إلا عن الله، ولا يدعو إلا إلى الله، فمن المحال أن يطيعكم في كثير من الأمر، فـ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ﴾ أمر الشرع وحكمه ﴿لَعَنِتُّمْ﴾ أثمتم وهلكتم فعجزتم أنتم عن إمرار الحياة الراحة، واستمرار الحياة السعيدة، وأخلدتم إلى حياة جهنمية فوضى، فترى لو أن الرسول أطاع الوليد بن عقبة في فريته على الحارث البريء، أو أطاع زوجته عائشة في جريح القبطي البريء، كم كان العنت الحاصل عن طوعهما هوى وجهلاً ﴿أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ ولكنه رسول

---

= رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: ما شأنك يا جريح؟ فقال: يا رسول الله ﷺ! أن القبط يحبون حشمهم ومن يدخل إلى أهليهم والقبطيون لا يأنسون إلا بالقبطيين، فبعثني أبوها لأدخل إليها وأخدمها وأؤنسها - فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

أقول: والحديث مضطرب حسب الظاهر - إذ ينسب إلى الرسول ﷺ أنه أمر بقتل بريء بمجرد شهادة امرأة بظنة وتهمة - إلا أن في رواية عبد الله بن موسى عن أحمد بن راشد عن مروان بن مسلم عن عبد الله بن بكير قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام جعلت فداك كان رسول الله ﷺ قد أمر بقتل القبطي وقد علم أنها كذبت أم لم يعلم؟ وإنما دفع الله عن القبطي القتل بتثبت علي عليه السلام؟ فقال: قد كان والله أعلم - ولو كانت عزيمة من رسول الله ﷺ ما رجع علي حتى يقتله ولكنه إنما فعل ذلك رسول الله ﷺ لترجع من ذنبها فما رجعت ولا اشتد عليها قتل رجل مسلم بكذبها.

أقول: ولكن يبقى هنا أن رجوع امرأة عن ذنبها - وما رجعت - لا يبرر إرهاب وإهانة رجل مسلم بريء - وإن ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ليست لتشمل الرسول ﷺ كما في قصة عقبة وإن الجهالة لا تنسب إلى النبي ﷺ وهو لا يمضي إلا بأمر الله.

الله ﷺ لا يطيع في الأمر إلا الله، فإنما النصح لكم بلسانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ...﴾ لا له وهو النزيه عن اتباع هواه أو سواها، إلا وحياً يوحى، فضلاً عن أهوية سواها ولا سيما الفاسقين!

فلا ترغبوا في اتباعه ﷺ لكم، ولا ترقبوا أن يتابعكم: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾(١) ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾(٢) اللهم إلا في قليل من الأمر الذي لا بد ويوافق الحق، حيث الكثير فقط في العادة هو الخاطئ لأنهم يتبعون الظن وما تهوى الأنفس: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾(٣) ومن ثم القليل هو المصيب: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾(٤).

فاعلموا أنه الرسول، جاء ليزيل عنكم وصمات العنت، ويبعدكم عن خطوات الغلط، فكيف يزيدكم عنتاً على عنت وغلطاً على غلط؟: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٥).

وي! كأنهم لم يعلموا أن فيهم رسول الله ﷺ، وإنما إنسان لهم أذنٌ، يسمع ما يقولون ويطيع ما يهوون، كلا! وإنما ﴿أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(٦)! أذن الخير الإيمان، فليس إلا في قليل من الأمر.

إن من مقتضيات العلم: أن فينا رسول الله ﷺ، أن لا نتقدم بين يديه،

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٧١.
(٢) سورة الشورى، الآية: ١٥.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١١٦.
(٤) سورة سبأ، الآية: ١٣.
(٥) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.
(٦) سورة التوبة، الآية: ٦١.

ولا نرفع أصواتنا فوق صوته، ولا نجهر له بالقول كجهرنا لبعض، ولا نطمع أن يطيعنا في كثير من الأمر، بل نكون له طوعاً وسلماً ولكي نسلم عن النكبات على ضوء الإسلام الإيمان، كما الله حبَّبه إلينا:

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾: حبب الإيمان بالله، فصرتم تحبون الله، إذاً فاتبعوا رسول الله ﷺ: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ﴾[١] فـ «هل الدين إلا الحب»؟[٢] كلا!، إنما «الدين هو الحب والحب هو الدين»[٣]!.

وتحبيب الإيمان إلى الإنسان كتقدمة لتزيينه في قلبه، تحبيب «إلى» وتزيين «في» فالدعاة إلى الله من جانب، بما يحملون رايات الدعوة الحنونة الحبيبة، وحب الإنسان فطرياً وعقلياً للإيمان - بما فطر الله - من آخر، يجعلان - متعاملين - ركيزة لحب الإيمان في روح الإنسان، عقلاً وصدراً وإلى قلبه، ومن ثم يأتي دور تركيزه في القلب ﴿وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ تعاملاً بين عقيدة الإيمان وعمل الإيمان فيزدادوا إيماناً على إيمان: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾[٤] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾[٥].

فلا تزيين للإيمان في قلب ما لم يدخل فيه، ولا يدخل فيه، إلا من

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣١.

(٢) محاسن البرقي بإسناده عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في حديث له قال: يا زياد ويحك وهل الدين إلا الحب ألا ترى إلى قول الله ﴿إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ﴾ [آل عِمرَان: ٣١] ألا ترون قول الله لمحمد ﷺ: ﴿حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ [الحُجرَات: ٧] وقال: ﴿يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ﴾ [الحَشر: ٩] وقال عليه السلام: الدين هو الحب والحب هو الدين.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) سورة محمد، الآية: ١٧.

(٥) سورة المجادلة، الآية: ٢٢.

يتحبب له بعد ما حببه الله إليه، وقبل هذا وذاك لا تحبُّب ولا تزين بالإيمان حتى يكره الكفر والفسوق والعصيان فيكرهها وقد فعل:

﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ﴾: فالكفر مقابل الإيمان، والفسوق خروج عما يقتضيه الإيمان من طاعة إلى تخلف، فهو إذاً سبب موصل إلى العصيان، وقد كرَّه الله لنا هذا الثالوث المنحوس مع ما حبب إلينا الإيمان، ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْۚ﴾ إذ لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين، فمن يختار الإيمان زاده الله إيماناً على إيمان، ومن يختار الكفر والفسوق والعصيان ختم الله على قلبه بطابع اللاإيمان، فآية تحبيب الإيمان لا تجعل كل المخاطبين من المؤمنين غير العاصين، أو قد جمعت بينهم كلهم في ذلك ترغيباً وتشويقاً وتوحيداً لصفوف الإيمان، لا أنهم كلهم بالغون تلك الدرجة من الإيمان، وإنما الله ينبههم بما فعل فناظرٌ ماذا يفعلون، وهم درجات في إيمانهم كما أن سواهم دركات في كفرهم وفسوقهم وعصيانهم، و«أولئك» الأكارم المؤمنون ﴿هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ الذين رشدوا في صراط الحق، لا بحول وقوة منهم فقط - وإنما:

﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةًۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾:

عليم بعجزكم، حكيم في فضله لكم، : ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[1] ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[2] ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾[3].

هذا طرف من أدب الإصلاح فيما يفسد بينكم من فرية سوء أم ماذا؟ استصلاحاً لما بينكم، ومن ثم تنتقل المسؤولية إلى الإصلاح في معارك أخرى كما بين أخويكم:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٦٤.
(٢) سورة النساء، الآية: ٨٣.
(٣) سورة النور، الآية: ٢١.

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾:

رغم أن الأخوة الصادقة والصلح البالغ هما لزام الإيمان كما خوطبوا به، إلا أن هناك، وبين غير الكاملين في الإيمان، أو الجاهلين والمتجاهلين شرائط الإيمان، هنا وهناك نزوات ونزعات واندفاعات فخصامات وحميات وحماسات فتفككات ومنازعات شاسعة عن ساحة الإيمان، قد تتخطى التلاسن والتضارب إلى مقاتلات، رغم أن الإيمان قيد الفتك ولكن ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[(١)] غير خالصين في الإيمان الموحد، ومهما يكن من شيء فالمؤمن لا يحارب أخاه إلا على تكلف، وعلَّ الاقتتال الملمح - إليه، دون التقاتل - يعنيه «اقتتلا» لا «تقاتلا» حيث الاقتتال افتعال للقتال متكلَّف وليس فعلاً مقصوداً وبين المؤمنين الإخوة!

وإلا ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا... وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[(٢)] فهل هو بعدُ مؤمن؟!.

فلا بد إذاً من صيانة إلهية تصوِّن على هذه الفوارق الدامية، وتعتلج ما تختلج في خلد الإيمان من فكرة الاقتتال، ومن ثم واقعه إذا حصل، ألا وهي استنفار سائر المؤمنين لمواجهة المشكلة الداخلية إصلاحاً، مهما كان الثمن غالياً ولو كان القتال قضاء على قتال.

وترى من هم المأمورون بالإصلاح، أو القتال إذا لزم الأمر؟ فهل إنه أمر فوضى بين دويلات صغيرة إسلامية - إن صح التعبير - وبين شعوب

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٦.

(٢) سورة النساء، الآيتان: ٩٢، ٩٣.

متشعبة حسب الدويلات، فيزيد ويلات على ويلات، لأنهم مختلفون في اجتهادات أو سياسات؟!.

كلا! إنه أمر موجه إلى سائر المؤمنين العائشين تحت قيادة واحدة إسلامية، دولة إسلامية واحدة بشعبها الموحد، لا تفصل بينهم قوانين أو حدود أم ماذا؟ فالآية هذه وأضرابها تلميح أو تصريح بضرورة تأسيس دولة واحدة إسلامية، لا دويلات هي ويلات على المسلمين، وظروف استعمارات للكافرين.

ثم ترى: وإذا لم تكن كما الآن، فهل المؤمنون يعيشون مكتوفي الأيدي عن كل شارد ووارد فتكثر الفوضى، كلا! فإن إزالة الظلم والضيم واجبة على طول الخط، مهما اختلفت درجاتها، فعلى المؤمنين العائشين في أرض المعركة أن يصلحوا بين أخويهم إن استطاعوا، على قيادة محلية عالمة عادلة، وإلا فليستنصروا مَن قِبلهم حتى تحصل الكفاية، فإنه فرض كفائي وليس عينياً على المؤمنين كافة، اللهم إلا إذا لزم استنفار المؤمنين كافة، فإن الإصلاح الداخلي ركن يرتكن إليه المؤمن، على ضوء تقوى الله التي هي ركن الأركان، ومن ثم الإصلاح الخارجي.

وترى أفي اختلافِ ضميرَي: «اقتتلوا وبينهما» تلميح معنوي؟ أم - فقط - سماح أدبي أن يعبر عن التثنية بالجمع كما في نظائرها؟ عله تلميح إلى واقع في هكذا اقتتال بطبيعة الحال، إن الاثنينية هي البداية في القتال، ثم تنمو وتزهو من طائفتين إلى طوائف، بتحزبات جزئية داخل كل منهما، ثم يرجع المقتتلون في محاولة الإصلاح كما كانوا طائفتين، حيث المصلحون لا يستطيعون إصلاحاً إلا بتضييق دائرة الخلاف إرجاعاً إلى الاثنينية البادئة ثم الوحدة المرادة ـ: فهم بداية ونهاية اثنتان «طائفتان.. بينهما.. إحداهما» بينهما جمع «اقتتلوا» فهم في دور الإصلاح اثنتان - بغياً: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ وفيئاً إلى أمر الله: ﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾.

وهذا الوجه المعنوي يوافق الأدب اللفظي أيضاً، فإن أقل الجمع اثنان، فلا تفنُّن هنا في التحول من جمع الاثنين إلى أكثر، إلا تلميحاً إلى معنى كهذا وأضرابه.

ثم الطائفتان المتقاتلتان لهما حالات من حيث البغي المقصود وسواه:

١ - أنهما باغيان من كل جهة مقصودة ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ إزالة للبغي بينهما ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى﴾ إن استمرت في البغي، أو تحولت إلى بغي آخر أو بغي الأخرى ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾.

٢ - أو أنهما باغيان جهلاً وسوء تفاهم دون تقصُّد؟ فكذلك الأمر، كما وإذا استمرا في بغي مقصود وسواه «فقاتلوهما حتى يفيئا إلى أمر الله» قتال هو نضال للإصلاح وإن شملهما إذا بغتا.

٣ - أو أن إحداهما باغية قصداً أو سواه، ثم عند الإصلاح استمرت أو غيرت بغيها إلى وجه آخر، أم تابت ولكن الأخرى بغت ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي﴾ سواء أكانت البادئة هي المستمرة، أو الأخرى هي البادئة بعد الأولى، فلا يكون القتال الإصلاح إلا مع التي تبغي بعد محاولة الإصلاح.

فالمصلحون يبتدئون بالإصلاح الموعظة والإيضاح ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ بأية وسيلة ممكنة عظة وبرهاناً، فمن يتجاهل هذه اللغة الواعظة، فلغة القتال ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي﴾ ولكن إلى حدٍّ وليس فوضى انتقام: ﴿حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ الذي تحققونه في الإصلاح، والذي أمر من تحقيق الأخوة الإيمانية ﴿فَإِنْ فَاءَتْ﴾ الباغية: كرهاً هنا ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ حيث الفيء إلى أمر الله طوعاً هناك هو الصلح بعينه فلا حاجة في الإصلاح، ولكنما الفيء كرهاً هنا بحاجة إلى إصلاح بعده، يحدده عند حده لكي لا يتكرر، وذلك بتحكيم بنود الاتفاق، ولكنه ﴿بِالْعَدْلِ﴾ دون أن تتحكم فيه روح الانتقام ﴿وَأَقْسِطُوا﴾ هنا وهناك ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

فهنا إصلاح أول طوعاً، وإصلاح ثان كرهاً، وقتال قبل الثاني إذا لزم الأمر، وليكن هذا المثلث المصلح عدلاً وقسطاً، وهكذا ينتهي دور الإصلاح بين المؤمنين إلى حفاوة وحنان وعدل وإحسان بفضل الملك المنان والله هو المستعان.

هكذا تؤمر الجماعة المؤمنة أن تتوسط مُصلحة عادلة مقسطة بين المؤمنين، فضلاً عما بينهم وبين الكافرين، فليكونوا مع هؤلاء ضد أولاء عدلاً وإيماناً، فماذا ترى في دويلة تدعي الإيمان النضال، تم تدخل معركة الاقتتال بين مسلمين ومسيحيين صهاينة، ثم لا تحارب إلا المسلمين لصالح الصليبيين الإسرائيليين، وتسمي هذه الوحشية العارمة إصلاحاً؟ أنا لا أدري، اللهم ارجعنا إلى الإسلام واجمع شمل المسلمين، واجعلنا كما أمرتنا إخوة مؤمنين:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾:

إنه ليس الإيمان - فقط - علاقة شخصية بين المؤمن وربه، بل وعلاقة أخوية جماعية أيضاً بينه وبين سائر المؤمنين، بل وليست بينهم أية علاقة ورباط إلّا أخوة إيمانية، كل ذلك بدافع الإيمان وسناده، يلمح له الحصر: «إنما» التي تحصر كافة المناسبات بين المؤمنين بالأخوة ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ لا «إنما الأخوة المؤمنون» فإن هناك أخوَّات أخرى بين سائر الناس ليست بالتي تحصر مناسباتهم بالأخوة الألفة الخلة، بل وتتبدل - وعلى أقصى الحدود بعد الموت - بالعداوة ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾[1] وإذا كانت هذه حالة الخلة غير الإيمانية، فما هي حالة سائر الأخوات التي لا تستلزم الخلة؟.

(١) سورة الزخرف، الآية: ٦٧.

إن أخوَّة الإيمان تشريعية، وواقعية بدافع الإيمان، يؤمر المؤمن أن يؤصلها في حياته الجماعية لحد لا تبقى بين المؤمنين إلا الأخوة، وليست هي الأخوة الخَلقية كما بين الناس أجمعين، ولا أخوة القرابة الشرعية التي تحرم فقط النكاح، ولا الإقليمية أو العنصرية أو الحزبية أم ماذا من أخوّات غير إيمانية، فإنها ليست لزاماً بين هكذا إخوة من حيث الألفة والمحبة، ولا أن مناسباتهم محصورة في الإخوة، اللهم إلا إخوة الإيمان فـ : «المؤمن أخو المؤمن كالجسد الواحد إن اشتكى شيئاً منه وجد ألم ذلك في سائر جسده، وأرواحهما من روح واحدة وإن روح المؤمن لأشد اتصالاً بروح الله من اتصال شعاع الشمس بها»[(١)] فـ «هو عينه ومرآته ودليله، لا يخونه ولا يخدعه ولا يظلمه ولا يكذبه ولا يغتابه»[(٢)] فـ «إن المؤمن ينظر بنور الله أن الله خلق المؤمنين من نوره وصبغهم في رحمته وأخذ ميثاقهم بالولاية على معرفته يوم عرَّفهم نفسه، فالمؤمن أخو لأبيه وأمه، أبوه النور وأمه الرحمة، وإنما ينظر بذلك النور»[(٣)].

هكذا أخوَّة تقتضي بينهم عموم التآزر في عامة الحياة، دون أي تنافر وتناحر ومن ثم إذا شذَّت طائفتان منهم فاقتتلوا، فأخوَّة الباقين معهم تقتضي محاولة الإصلاح الصارم أياً كان الثمن ولو بالقتال مع الباغية حتى تفيء إلى أمر الله، دون اغتنام فرصة لأخذ الغنيمة، ولا أن يجهز على جريح منهم أو يقتل أسير، أو يتعقب مدبر ترك المعركة، حيث الهدف من قتالهم إصلاحهم، وإنما تدور المعركة بين سائر المؤمنين وبين المقتتلين حول فلك الإصلاح

---

(١) أصول الكافي بإسناده إلى أبي بصير قال: سمعت أبا عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام يقول: . .

(٢) المصدر بإسناده إلى الحارث بن المغيرة عنه عليه السلام: . .

(٣) بصائر الدرجات بإسناده عن معاوية بن عمار قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: جعلت فداك هذا الحديث الذي سمعته منك ما تفسيره؟ قال عليه السلام: وما هو؟ قال: إن المؤمن ينظر بنور الله، فقال: يا معاوية؟ إن الله . .

الأخوي بدافع الإيمان دون المعارك الأخرى كما بينهم وبين الكفار، فإن لها شروطها وأحكامها الأخرى.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فتقوى الله زاد المؤمنين الإخوة في أخوتهم، وزادهم في إصلاحهم بين أخويهم، فهي زادهم في مبدئهم وفي معادهم، يعيشونها على طول الخط.

فكل مفاصلة بين المؤمنين هي خلاف الإيمان، وخلافٌ على كتلة الإيمان، كمن يهرفون بما لا يعرفون أن جماعة الشيعة الإمامية مشركون، أم تاركون الكتاب أم ماذا؟ من افتراءات اختلقها الاستعمار الكافر، واستغل في ذلك جهل جماعة بعيدين عن سائر إخوتهم المؤمنين، ثم أخذ ينفج وينفخ في أبواق الخلافات حتى جعل من فريقي المسلمين مسلمين وغير مسلمين، يري كلٌّ أخاه بالخروج عن الدين، فلتقطع ألسنة حدادٌ توسِّع هذه الخلافات، ولتكسر أقلام تزيدهم عداء فعِناء، ولتوحد كلمة المسلمين على دعائم الإسلام، دون أن يحملهم مختلف الاجتهادات على مباغضات، فللمخطئ أجر واحد وللمصيب أجران، ثم للمفرق أوزار تحمله إلى النار، وكما هو يشعل النار بين المؤمنين الإخوة، فإذ نؤمر أن ندعو أهل الكتاب إلى كلمة سواء: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[١] فأحرى بنا ونحن مسلمون أن يدعو بعضنا بعضاً إلى هذه السواء على سواء، وأن نصلح بين أخوينا ونتقي الله لعله يرحمنا[٢].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

(٢) فقولة من تسمى شيعياً لأخيه المتسمى سنياً: أنت من أهل النار إذ لست من أهل الولاية قولة فارغة هراء، كما أن قولة الآخرين للأولين: أنتم مشركون تعبدون الأوثان هراء فارغة، فلماذا هم مشركون؟ ألأنهم يقبّلون ضريح الرسول حباً له؟ فهل لا تقبّلون أنتم أولادكم =

ثم وإن الإصلاح بين المؤمنين لا يخص حالة التقاتل الحرب، وإنما التخالف - أيٌّ تخالف - من شأنه اختلاق الانقسامات والتفرقات، التي تنفصم بها عرى الوحدة، فتنقسم بها الكتلة الواحدة المؤمنة، فتنحسم هيبتهم من قلوب الكتل الكافرة، وخلاف ما يقول الله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن

---

= وأحباءكم حباً لهم - ثم وليس التقبيل عبادة مهما كان - وحتى إذا قبل رجل أحد من الأولياء احتراماً له فإنه محرم وليس شركاً، فمن قال لكم إن الشيعة الإمامية يقبلون ضريح النبي عبودية له، اللهم إلا الاستعمار الذي هو من النفاثات في العقد، وهل يقبل عاقل أن جماعة من المؤمنين جاؤوا من آلاف الكيلو مترات لعبادة الحديد؟ إن هذا إلا إفك مفترى!.

ثم نقول للأولين لماذا تجانبون إخوتكم في الإيمان فتجنبون عن الصلات معهم أو مصافحتهم أو تحادثهم، فقد يقولون أن جهالاً منهم يمسون من كرامتنا لماذا نقنت في صلاتنا، ولماذا لا نتكتف أم ماذا؟ فنقول للآخرين: هذه عقيدة المذهب هم تابعوها، كما أن لكم غيرها وأنتم متبعوها، فليس لمقلد في مذهب أن يعترض على مقلد في مذهب آخر لماذا لست على مذهبي، وإنما للمجتهدين أن يجادلوا مع بعض وبالتي هي أحسن.

ومن طريف المناظرة أن شرطياً قبض على شيعي في الحرم المكي المبارك وأخذه إلى مركز الشرطة وهو كان يقرأ القرآن، قائلاً له: لماذا تقرأ هذا الكتاب؟ قال: إنه القرآن وهل أن قراءته محظورة في المسجد الحرام؟ قال: لا - ولكن قرآنكم يختلف عن قرآننا! قال: كلا! فخذ هذا القرآن المطبوع في إيران وقاسه على سائر القرآن فلا تجد نقطة اختلاف! قال: ليست لي هذه الفرصة ولكن قل لي: لماذا أنت شيعي ولست مسلماً؟ قال: أنا شيعي لأنني مسلم سني! قال: كيف يا غبي! قال: يا أخي لأن سنة رسول الله ﷺ تأمرنا أن نشايع باب مدينة العلم علياً عليه السلام! فسكت ومن معه ثم قالوا: هؤلاء لهم قوة الجدال وإنما دينهم التقية.

فانظر إلى هذه المهازل التي اختلقها الاستعمار فأصبح من جرائه بيت الله الآمن وبلده الأمين محوراً للمعاركات والمضاربات والافتراءات والله تعالى يقول: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البَقَرَة: ١٢٥].

فلنفرض أن الشيعة الإمامية - ولا سمح الله - مشركون! فلماذا يسمح لهم دخول الحرمين الشريفين والله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا...﴾ [التوبَة: ٢٨] ولو أنهم مسلمون منحرفون، فلتقم جماعة علماء عارفون بدعوتهم إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة، لا بالهتك والفتك والضرب والإهانة، فإن ذلك لا يزداد إلا بعداً ولا يخلف إلا مرضاة المستعمرين، الذين جعلوا من مركز الوحدة الاسلامية ميدان المعركة الضارية، والله المستعان وعليه التكلان.

قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[١].

إن الإصلاح هنا - أيَّ إصلاح - يقوم على دعائم العدل والقسط والإيمان والتقوى، على غرار ما يقرره كتاب الله، دون الأهواء والمصلحيات السياسية المجانبة لشريعة الله، ودون الاستبدادات في أية اجتهادات، وإنما ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[٢].

وإنه إصلاح ما فسد بين المؤمنين، من عقائدي واقتصادي وسياسي، ومن فردي وجماعي أم ماذا؟ فليعش المؤمنون حياة الصلح مع بعض، وليكونوا يداً واحدة على من سواهم.

فعلينا أن نذرف دمعة الدماء، مما نرى بيننا من عداء، تنفث في توسيعها الأعداء، فالله إذاً منا - كما منهم - براء، إلا أن نهتدي بهدي الله، ونعتصم بحبل الله.



(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٠.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٣٨.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (١١) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ (١٢) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ (١٣) قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ (١٥) قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ (١٦) يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (١٧) إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ (١٨)﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ. . .﴾:

.. هتاف حبيب للمؤمنين، باستجاشة روح الإيمان، يستيقظ فيهم نباهة الحنان أن يكونوا - مع بعض - عقلاء حلماء أزكياء أذكياء، فلا يسخر قوم من قوم ولا نساء من نساء، ولماذا يسخرون، ومم يستهزئون، ألأنهم خير منهم في ميزان الحق فبه يفتخرون فيسخرون ممن هو أدنى منهم؟ وهذا من شيم الجاهلين، فلا يستهزئ المؤمن العارف ولو بغير المؤمنين الذين هو خير منهم بقين، فكيف بمن ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ فلماذا يهرفون - إذاً - بما لا يعرفون؟.

إن السخرية من أي إنسان والهزء به جهل عارم: ﴿قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[1] فإذا هي تجهّل موسى الرسول عليه السلام، لو هزأ وإن كانت من الإسرائيلين العارمين، فما هي إذاً ممن ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ أو هم خير على يقين؟.

إن السخرية من أي إنسان، محظور في هذا المثلث بكل زواياه، ولأن الزاوية الوسطى هي الأكثر: - أن يزعم الساخر أنه خير من المسخور منه ولذلك يسخر منه - ركز النهي في الآية بها، ثم آية البقرة عممت النهي: إن السخرية جهالة ولو كانت من نبي ولن يكون، فكيف ممن ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾.

إنه ليست السخرية على أية حال إلا جهالة، فلو أنه أدنى منك ولحد الكفر، فليست للسخرية دور مع الكافر، فإنها تزيد في نفوره وكفره، إذ قد يحتج على الساخر أن ليس له برهان، فلذلك يسخر مني، أم أنه رذيل يترذل بمن يراه أدنى منه، بدل أن يحاول في علاجه بالحكمة والموعظة الحسنة، فلا لك كمؤمن أن تسخر من أحد وإن كان يسخر منك، اللهم إلا جزاء السخر بسخر مثله، عقاباً وفاقاً وعند الإياس من انتباهه عن غفلته وغفوته،

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٦٧.

والإيقان أنه يعاند مقصراً، فليست السخريةُ الجزاءُ - إذاً - جهالة، بل وقد تكون حسناً أو واجباً وكما من نوح: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾[١] فما لبثوا أن سخرت منهم أمواج الطوفان: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[٢].

وكيف ركز النهي هناك على «قوم من قوم أو نساء من نساء» والسخرية محرمة وإن بين قوم ونساء؟ لأن هزء الجنس من جنسه هو طبيعة الحال، قضية التحاسد التكاثر[٣]، وكما تشير بنكاية الهزء الجماهيري وأنه أتعس من أن يسخر شخص من شخص، فالآية تحمل أنحس صور الهزء: أن يكون ممن علّه خير من الهازىء، ومن قوم أو نساء، وإن كان سواهما من هزء محرماً دونه، كما تفيدنا آية البقرة وأضرابها، فلا يسخر شخص من شخص[٤] وإن عسى أن يكون الساخر خيراً.

هذه! ومن ثم استجاشة أخرى هي أشمل وأحرى، استيحاء من روح الأخوة الإيمانية، التي تجعل من المؤمنين نفساً واحدة - فـ :

﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾:

فإن من يلمز ويعيب أخاه المؤمن، هو لامز نفسه، لأنه منه أو هو هو،

---

(١) سورة هود، الآية: ٣٨.

(٢) سورة هود، الآية: ٤٤.

(٣) الدر المنثور: أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل في آية السخر قال: نزلت في قوم من بني تميم استهزؤوا من بلال وسلمان وعمار وخباب وصهيب وابن فهره وسالم مولى أبي حذيفة.

(٤) في تفسير علي بن إبراهيم القمي أنها نزلت في صفية بنت حيي بن أخطب وكانت زوجة رسول الله ﷺ وذلك أن عائشة وحفصة كانتا تؤذيانها وتشتمانها وتقولان لها: يا بنت اليهودية، فشكت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال لها: ألا تجيبهما؟ فقالت: بماذا يا رسول الله ﷺ؟ قال: قولي إن أبي هارون نبي الله وعمي موسى كليم الله، وزوجي محمد رسول الله ﷺ فما تنكران مني؟ فقالت لهما، فقالتا: هذا علمك رسول الله ﷺ فأنزل الله في ذلك ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ . . .﴾ [الحُجرَات: ١١].

لا يفصل بينهم إلّا فاصل الجسم، والروح واحدة، فكيف يعيب مؤمن نفسه، اللهم إلا أن تحاول علاج أخيك كما تعالج نفسك، بكل حنان وأمان، ودون إيذاء وتشهير، وإنما كمرآة تريك مساوئك دون أن تجاهر بها لسواك فإن «المؤمن مرآة المؤمن».

هذه - وكما توحي ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ بأن لمز البعض لمزٌ للكل، فإنه مسٌّ من كرامة الإيمان، فهل من عاقل بعد يلمز أخاه بعد أنه نفسه حيث الوحدة الإيمانية، فلذلك تتركز الاستجاشة هنا وهناك بروح الإيمان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ. . .﴾ وشعور الاندماج في نفس واحدة ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ لحد:

﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ﴾:

فالنَبزَ هي اللقب بعينه، فالتنابز هي التلاقب، أن يسمي بعضنا بعضاً بما يدل على ذم بسوء(١)، وإنما الألقاب الطيبة الحنونة هي التي تليق بالتبادل بين المؤمنين، مهما كانت هناك سيئات، فالمؤمن يستر القبيح ويظهر الجميل، كما الله، تخلقاً بأخلاق الله، ولقد غير رسول الله ﷺ ألقاباً مزرية تبقَّت من الجاهلية للبعض ممن آمن، بأسماء أو ألقاب طيبة، ذوداً عن كرامة المؤمنين ما يزريهم، فليلتزم المؤمن اسم الإيمان لنفسه وأنفسه المؤمنين، فإنه أنفَس من أي نفيس، فضلاً عن أن يتنابز بالألقاب السوء، فـ :

﴿بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾:

إن تنبز أخاك بلقب يجانب الإيمان، اسم هو وصم الفسوق اللّاإيمان،

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام في حديث له لما قيل له في شعر: أنشدنيه أبو العتاهية لنفسه قال: هات اسمه ودع هذا - أن الله سبحانه يقول: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ﴾.

وفي الدر المنثور - أخرج جماعة من الجامعين عن أبي جبيرة بن الضحاك قال: فينا نزلت في بني سلمة ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ﴾ [الحُجرَات: ١١] قدم رسول الله ﷺ المدينة وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة فكان إذا دعا أحدهم باسم من تلك الأسماء قالوا: يا رسول الله ﷺ! إنه يكره هذا الاسم فأنزل الله: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ﴾.

ومن ثم تتَّسم أنت المنابز أيضاً باسم الفسوق بعد الإيمان، لأنك فسقت عن شريطة الإيمان، فعليك أنت المنابز، وذلك الساخر أو اللامز، عليكم أن تتوبوا إلى الله:

﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾:

أنفسَهم وإخوانهم، حيث انتقصوا سواهم سخراً أو نبزاً أو لمزاً، فنقصوا - هم - عن أنفسهم كمال الإيمان، فالله هو المستعان.

ثم وليست السخرية واللمز والنبز دائرة مدار الواقع المعلوم - فقط - فإن كثيراً من الظن السوء حرام لأن بعض الظن إثم:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا...﴾:

إن الظن السوء بين المؤمنين مع بعض يجانب روح الأخوة الإيمانية، ما يترتب عليه الآثار السوء، دون واقع الإدراك النفساني المجرد المفاجئ للإنسان دون اختيار، اللهم إلا إذا استطاع ترويض نفسه على ترك هكذا إدراك سوء أيضاً، أن يعيش الظنّ الخيرَ، إذا غلب الخير على المؤمنين، أو اللّاظن لا خيراً ولا شراً إذا غلب الفساد، كل ذلك توقياً عما يتوقع من الوقوع في الإثم، ضابطة وقائية لكرامة المؤمنين مع بعض: ترك الظن السوء قدر الإمكان، اللهم إلا قليلاً يملك فيه دليلاً قاطعاً، لكنه لا يملّك التجسس عنه بغية التأكد منه، أو إذا تأكد أن يفشيه: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا...﴾[١] فالتجسسُ التتبعُ عن مساوئ المؤمنين محرم، والتجسس التتبع عن محاسنهم هو قضية الإيمان.

فذلك سياج آخر فوق المسبقة، حول حرمات المؤمنين، يتخطى الواقع

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

الخارجي من المعاملة السوء، إلى المشاعر والظنون تنظيفاً لها وتنزيهاً عن أن يظن بالمؤمنين سوء، وما أروح الحياة في مجتمع بريء من الظنون، طمأنينة لا تتعكر بقلق، فلا يؤخذ - إذاً - مؤمن بظِنة، ولا يحاكَم بريبة.

تلك الروح النظيفة العالية هي نبراسة الحياة الإيمانية، وهي متراسة النكبات اللّاإيمانية، وعلى حد المروي عن إمام المتقين علي عليه السلام: «ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك ما يقلبك منه ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً»[1] وذلك «إذا استولى الصلاح على الزمان وأهله ثم أساء رجل الظن برجل لم يظهر منه حوبة فقد ظلم، وإذا استولى الفساد على الزمان وأهله ثم أحسن رجل الظن برجل فقد غرر»[2] بل يترك هنا لك الظن سوءاً وحسناً، دون أن تنفصم ضابطة الآية ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ غلب الصلاح أم غلب الفساد، ولكن عند غلَبِ الصلاح علينا أن نحسن الظن، لا أن لا نسيء فقط ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾[3].

إن واقع السوء، وفي مجتمع يغلب عليه الصلاح، إنه شبهة غير محصورة، فلتترك هذه الشبهة مخافة الوقوع في الإثم ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾.

وترى إذا كان البعض آثماً دون الكثير، فلماذا يجتنب الكثير، علّه لأن الإثم ما يبطئ عن الثواب الصواب، فيدفع إلى غير الصواب، إما تهمة وإصابة بريء فواويلاه، أو فضح مسيء فإشاعة فاحشة، فلأن الكثير من الظن السوء يدفع إلى البعض الإثم، يُمنع هذا الكثير حيطة على ذلك القليل، فإن عِرض المؤمن عظيم كثير.

---

(١) أصول الكافي بإسناده عن الحسين بن مختار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: . . .

(٢) السيد الشريف الرضي في نهج البلاغة عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: . . .

(٣) سورة النور، الآية: ١٢.

أو إذا كان الكثير الممنوع من الظن ما يرتب عليه الآثار، فبعضه إثم في ترتيب الآثار، لأنه قد يصادف بريئاً عن الأوزار، ولكنما الأول أولى أو هو الحق، لأن الظن السوء باختيارٍ سوءٌ أياً كان، ولأن بعضه إثم فليترك كله وقاية وحيطة على حرمات المؤمنين، وإن ما يرتب عليه الآثار كله إثم يبطئ عن الصواب، صادف بريئاً أو غير بريء، لأن فضح المسيء حرام: فـ ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ نفسانياً ﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾ واقعياً - حيث يبطئ عن الصواب والثواب بالنسبة للمؤمنين المظنون بهم، وعجلة الحياة الإيمانية يجب أن تكون دائم الحراك سريعاً في الخير بين المؤمنين، فليجتنب ما يبطئها أو يوقفها من الظن السوء مخافة البوار: ﴿. . . وَظَنَنتُمۡ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا﴾[1].

وترى أن اجتناب الظن القليل الباقي بعد الكثير ليس واجباً كالكثير؟ كلا لأنه الظن المسنود إلى قاطع البرهان، فمجانبته إذاً خلاف البديهة، لا تمكن حتى تجب، وإنما الواجب فيه، الحفاظ على الأعراض، إعراضاً عن إفشاء ما ثبت من سوء أو التلميح به، اللهم إلّا فيما يجب أو يجوز من شهادة أو نصح أم ماذا؟

إذاً فواجب الاجتناب عن كثير من الظن حمى عن الوقوع في الإثم أحياناً، مع ما فيه من تنظيف المشاعر عن الظنون السيئة، ثم للقليل الباقي حكمه، كل حسب المصلحة الجماعية قضية الإيمان.

﴿. . . وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾: عن معايب المؤمنين، وإنما تحسسوا عن محاسنهم، إظهاراً للجميل وستراً للقبيح، فالتفتيش عما استتر من أمور الناس أو عيوبهم محظور جماعي عارم، يعكر جو الطمأنينة والراحة، ويبدله إلى الاضطراب والعاهة، سواء كان التجسس للاطّلاع الشخصي، أم

(١) سورة الفتح، الآية: ١٢.

وللإطْلاع الجماعي فأشد وأنكى، وإن كان المجسس عنه عيباً دون ريب، فكيف إذا كان صواباً يحمل إصلاحاً في زاوية أو زوايا من الحياة الجماعية الإسلامية، فيتجسس الوسواس الخناس عن صالحات من خبايا الناس، ليُطلع عليها النسناس، فيأخذوا حذرهم وأسلحتهم شاهرين على هؤلاء الناس، فتقع الواقعة الشوكاء الشوهاء، خنقاً على أية فكرة للإصلاح، في حالة جهنمية يختلقها النسناس، وليعيش حاكماً مطلق العنان على الناس دون سماح لحياة آمنة طاهرة.

إن التجسس عن أسرار المؤمنين محظور بأي لون وعلى أية حال سواء أكان حركة تالية للظن، أو بدائية لكشف العورات والتطلع إلى السوآت، وبأية غاية أو عناية أخرى حصل، وعلى أي إنسان، وإن «أقرب ما يكون العبد إلى الكفر أن يوافي الرجل الرجل على الدين فيحصي عليه عثراته وزلاته ليعنفه بها يوماً ما»[(١)] وقال رسول الله ﷺ: «لا تطلبوا عثرات المؤمنين فإن من تتبع عثرات أخيه تتبع الله عثرته، ومن تتبع الله عثرته يفضحه ولو في جوف بيته»[(٢)] هذا! اللهم إلا غير المؤمنين الخطرين على الحياة الإيمانية، فيجسس عنهم حياداً على المؤمنين وسياجاً عما يمس من كرامتهم، أو من يشذ عن سبيل المؤمنين، فيولى ما تولى ويصلى جهنم وساءت مصيراً:

من جاسوس لصالح الفجار، أو مضلل للمسلمين، أو أي مفسد في الأرض، فيؤخذ على يديه، أو يجسس عنه تأكداً من نواياه ليوقف على حده، أو يخفف - ولا أقل - عن حدته.

وإن استنطاق الغافلين للكشف عن خباياهم تجسس، واستغابتهم ممن

---

(١) أصول الكافي بإسناده إلى عبد الله بن بكير عن زرارة عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام.

(٢) أصول الكافي بإسناده إلى محمد بن مسلم أو الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ:

يغتابهم تجسس، دون تخصص بتسلق البيوت، وإنما التكشف عن الأسرار، المختفى بها أصحابها - أيّاً كان - تجسسٌ محظور[1]، اللهم إلا فيما يحمل هامة لصالح المسلمين فرادى أو جماعات، مادياً أو معنوياً.

فالكتلة المؤمنة تعيش آمنة أمينة على أسرارها وعوراتها وبيوتها وكل خباياها وخفاياها، إلا من تخلف في سرّ له عن رتبة الإيمان، فخيف منه خطر على كتلة الإيمان، فلا سر له إذا يُحترم، إلا ما لا يناحر صالح الإيمان!.

ثم - وإذا تبين لك عن مؤمن مزرئة، أو ما لا يحب إفشاءه، فلا لك أن تغتابه:

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ﴾: أنتم المؤمنون، مهما اختلفت درجات الإيمان ومذاهبه، ما صدقت كلمة الإيمان وإن في أدنى أدانيها، فأنتم كجسد واحد متبعض: ﴿بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ﴾ تحكم فيكم روح الإيمان الواحد، فليحضر كلٌ بعض مع الباقين، دون غياب ولا اغتياب، فلا تحكم المباغضة - فقط - بحرمة الاغتياب بل وبوجوب الانتداب أيضاً لبعض في صالحه، ومنه كف الغيبة عن بعض، ولزوم الاكتئاب لبعض إذا اغتيب أو أصيب.

إن الغيبة وهي ذكر العيب بظهر الغيب بكتابة أو إشارة أو لسان أو أياً كان، أو «ذكرك أخاك بما يكرهه» إنها إساءة إلى المغتاب إذ تغضبه إذا سمع وتخلق فيه الضغينة والعداء لمن اغتابه، وإساءة إلى المجتمع الإسلامي السامي، إذ تخلق فيه جوّ اللّاأمن الفوضى كدراً قذراً، إفشاء للفاحشة في الذين آمنوا فجرأة جماعية على فعل الفاحشة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا

(١) عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ في حديث: ومن استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون يصب في أذنيه الأنك (الرصاص) يوم القيامة.

تَعۡلَمُونَ﴾[1] ففيها تضييع لحق فردي وآخر جماعي، فما أفحشها فاحشة وما أنكاها.

ترى كيف يغتاب مؤمن أخاه وهو منه وبعضه؟ وكيف يتفكه باغتيابه كما هو شأن كل مغتاب؟ وما مشهد الاغتياب في الرزء والاكتئاب، إلا كأخزى مشهد تتأذى له أكثر النفوس خِسة وأقلها حساسية، وهو مشهد الأخ يأكل لحم أخيه ميتاً:

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ﴾؟:

فحب الغيبة تفكهاً يضاهي حب أكل لحم أخيك الميت، فالنيل من عرضه كأكل لحمه، وهو في غيابه، كأكل لحمه ميتاً[2] أفلا تكرهونه؟ ﴿فَكَرِهۡتُمُوهُۚ﴾: ثالوث الكراهية العريقة في كل أحد وإن كان في أدنى درجات الإيمان، فلم يقل «فتكرهونه» كفعل مستقبل، وإنما ﴿فَكَرِهۡتُمُوهُۚ﴾، كماض، إيحاء بثبات هذه الكراهية: أن يأكل الإنسان لحم أخيه ميتاً، ثباتاً في الفطرة لكل أحد: ﴿فَكَرِهۡتُمُوهُۚ﴾: عافته أنفسكم وإن كنتم جائعين غرثى.

وترى هل تحرم غيبة المؤمنين الموافقين لك في المذهب فقط، أم وكل

---

(١) سورة النور، الآية: ١٩.

(٢) الدر المنثور: أخرج ابن أبي حاتم عن السدي أن سلمان الفارسي كان مع رجلين في سفر يخدمهما وينال من طعامهما، وأن سلمان نام نوماً فطلبه صاحباه فلم يجداه فضربا الخباء وقالا: ما يريد سلمان شيئاً غير هذا أن يجيء إلى طعام معدود وخباء مضروب فلما جاء سلمان أرسلاه إلى رسول الله ﷺ يطلب لهما إداماً فانطلق فأتاه فقال: يا رسول الله ﷺ بعثني أصحابي لتؤدمهم إن كان عندك، قال: ما يصنع أصحابك بالأدم؟ قد ائتدموا، فرجع سلمان فخبرهما فانطلقا فأتيا رسول الله ﷺ فقالا: والذي بعثك بالحق ما أصبنا طعاماً منذ نزلنا، قال: إنكما قد ائتدمتما سلمان بقولكما، فنزلت ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا﴾ [الحُجرات: ١٢].

وفيه عن أنس أن الرجلين هما أبو بكر وعمر وفيه: بأي شيء ائتدمنا؟ قال ﷺ: بلحم أخيكما، والذي نفسي بيده إني لأرى لحمه بين ثناياكما، فقالا: استغفر لنا يا رسول الله ﷺ؟ قال: مراه فليستغفر لكما.

مؤمن من أي مذهب؟ الحق هو الشمول، فإن الأخوة الإيمانية تشمل كافة المؤمنين، دون المنافقين، وإنما المؤمنين بالله ورسوله واليوم الآخر أياً كانت مذاهبهم، إذ تجمعهم كلمة الإيمان، مهما تفَرقهم مذاهب الإيمان، فعليهم جميعاً أن يعتصموا بحبل الله ولا يتفرقوا، والغيبة من أشد أسباب التفرقة!.

إن حرمة الغيبة تحور على محور الأخوة الإسلامية الثابتة على غرار الآية: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ . . .﴾[1] هذا! فضلاً عمن يأتي بأكثر من ذلك من شرائط الإيمان، ولا تعني التوبة هنا إلا عن الشرك بالله، ولا إقام الصلاة وإيتاء الزكاة الا الدخول في شريعة الله، إيماناً بالله وبرسول الله واليوم الآخر أم ماذا؟ على مختلف درجاتها، فإن الإيمان درجات كما الكفر دركات، فلا لك كمؤمن أن تواجه أخاك في الإيمان بلقب الشرك أو الكفر، بعدما حرم الله التنابز بالألقاب، فلا تجوز اغتياب مسلم غير منافق، موافقاً لك في المذهب أم غير موافق، اللهم إلا المتجاهرين بالفسوق، المستهترين في هتك حرمات الله، فليس لهم - إذاً - ستر حتى يهتك بالاغتياب، وإلا مَن الاغتياب دواؤه لكي يرتدع، أم دواء لداء عضال بين المجتمع الذي يعيشه، أم أية مصلحة راجحة توجب أو تسمح بالاغتياب، مراعياً هنا وهناك ألا تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، فإن السماح في اغتياب شخص لمصلحة، ليس لزامه السماح بإبطال هوية جماعية إسلامية، إذ يخلف جرأة المتقين أن يشذوا عن شريطة التقوى أحياناً، إذا وجدوا لهم رفاقاً، فالأصل الذي لا ينفصم هو الحفاظ على روح التقوى، والسياج على من يهوى الطغوى، لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١.

وترى هل للمغتاب من متاب، فإن تاب إلى الله وأناب كفاه الله وهداه توبة عليه؟ أم ولا بد من استرضاء صاحب الغيبة، وإلا فلا توبة؟.

إن التقوى بعد الاغتياب تتبع توبة من الله ورحمته، وكما في ذيل الآية:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾:

فما وجدت سبيلاً لإرضاء صاحب الغيبة فإليها أن يغفر لك فيستغفر لك، فلا ينفعك ولا استغفار رسول الله ﷺ ما لك سبيل إلى استغفار صاحبك وكما أمر ﷺ أبا بكر وعمر أن يطلبا من سلمان أن يستغفر الله لهما[(١)] وإلا فالإنابة إلى الله بتوبة نصوح، وأن تستغفر الله لأخيك يغفر الله لك: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[(٢)] فهو هو الذي يرضي صاحبك برحمته ليرضى عنك، فيتوب الله عليك.

وهذه هي شيمة التقوى: ومن ثم ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ بعدما تُبت إليه بشروطه، توبة منك إلى الله فتوبة من الله عليك: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾[(٣)] وكما أن توبتك إلى الله بحاجة إلى توبة أخرى من الله عليك: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾[(٤)] فالتوبة منك إذاً، وفي أي ذنب، هي بين توبتين من الله.

---

(١) كما مضى عن الدر المنثور من حديث سلمان مع أبي بكر وعمر وفيه عن ابن مردويه والبيهقي عن أبي سعيد وجابر قال رسول الله ﷺ: الغيبة أشد من الزنى - قالوا: يا رسول الله ﷺ، وكيف الغيبة أشد من الزنى؟ قال: إن الرجل يزني فيتوب الله عليه وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفرها له صاحبه.

أقول: هذا لو وجد إلى ذلك سبيلاً، والا فسبيله الاستغفار لصاحبه، ثم الله يطلب من صاحبه أن يغفرها له فيغفر كما رواه في الكافي بإسناده إلى السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سئل النبي ﷺ ما كفارة الاغتياب؟ قال: تستغفر الله لمن اغتبته كما ذكرته.

(٢) سورة النساء، الآية: ٤٨.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٣٩.

(٤) سورة التوبة، الآية: ١١٨.

ومن ثم - وبعد هذه التوصيات للمؤمنين بالنسبة لبعض - نتلفّت إلى ضابطة عامة في التفاضل لا فوقها ضابطة إلا حابطة ساقطة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾:

هتاف عام هام للإنسانية جمعاء، الصادرة من أصل واحد، أخذاً لها إلى أصالة واحدة لا تناكر فيها ولا تكاثر أو تنافر، هي أصالة ركزت لها كل رسالة إلهية - ألا وهي ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾.

فـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ نداء بعيد تضرب إلى الغور، تناسياً كافة التفاضلات الموهومة بين الناس، تاركة كافة الألقاب الأرضية المختلقة، إلا واحداً هو من خلق الله: ﴿ٱلنَّاسُ﴾ وليحملهم خالقهم - على هذا الأساس - إلى شرعة الناس، على ضوء شريعة خالق الناس: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ حيث تتوارى كافة النزعات والمنازعات، وتتهاوى كافة القيم التي يتكالب عليها الناس: حيث الميزة الوحيدة في ميزان الله هي تقوى الله؛ التي لا يتكالب عليها الناس، وإنما الناس هم الذين يتشاجرون على سائر الميزات: الطغوى!. فكل ميزة وراء التقوى هي طغوى لا تزداد إلا حياة جهنمية فوضى.

إن لواء التقوى المرفرفة على الألوية كلها، العالية من على الأعالي في أرض الإسلام، إنها لا تسمح لألوية القوميات والعنصريات والإقليميات والطائفيات أن ترفرف أو تبقى لها باقية، اللهم إلا باغية يحاربها الإسلام، ويسميها رسول الإسلام ﷺ عصبية جاهلية، دعوها فإنها منتنة[1].

تلكم اللواء هي التي تلوي بأعناق المتجبرين المتكاثرين، الذين

(١) رواه مسلم في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله الأنصاري عنه ﷺ: . .

يحملون رايات العصبيات العارمة، من قوميات عربية وسواها وكما خطب الرسول ﷺ يوم فتح مكة قائلاً: «يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم بالإسلام نخوة الجاهلية وتفاخرها بآبائها، إن العربية ليست بأب والد، وإنما هو لسان ناطق، فمن تكلم به فهو عربي، ألا إنكم من آدم وآدم من التراب، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم»(١).

وكما في خطبة الوداع: «يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، ألا إن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي، ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ألا هل بلَّغت؟ قالوا: بلى يا رسول الله ﷺ قال: فليبلغ الشاهد الغائب(٢).

إذاً فلا زاد لمسلم إلا تقوى الله: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾(٣) دون سائر الزاد، اللهم إلا ما يسهِّل ويعبِّد سبيل زاد التقوى! وإنها نسب الله يرفعها الله، وفي يوم لا أنساب بينهم ولا يتساءلون(٤) نسب هو نبراس

---

(١) تفسير علي بن إبراهيم القمي عن رسول الله ﷺ: . .

(٢) الدر المنثور: أخرج ابن مردويه والبيهقي عن جابر بن عبد الله قال: خطبنا رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق خطبة الوداع فقال: . .

وفي أصول الكافي بإسناده عن أبي بكر الحضرمي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن رسول الله ﷺ زوج مقداد بن الأسود ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب، إنما زوجه لتصنع المناكح وليتأسوا برسول الله ﷺ وليعلموا أن أكرمهم عند الله أتقاهم.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.

(٤) مجمع البيان: وروي عن النبي ﷺ أنه قال: يقول الله تعالى يوم القيامة: أمرتكم فضيعتم ما عهدت إليكم فيه، ورفعتم أنسابكم فاليوم أرفع نسبي وأضع أنسابكم، أين المتقون؟ إن أكرمكم عند الله أتقاكم.

وفي أصول الكافي بإسناده عن حنان بن عقبة بن بشير الأسدي قال: قلت لأبي جعفر الباقر عليه السلام: أنا عقبة بن بشير الأسدي، وأنا في الحسب الضخم من قومي؟ قال فقال عليه السلام: ما تمن علينا بحسبك، إن الله رفع بالإيمان من كان الناس يسمونه وضيعاً إذا كان مؤمناً، ووضع بالكفر من كان الناس يسمونه شريفاً إذا كان كافراً فليس لأحد فضل على أحد إلا بالتقوى.

=

الحياة، ومتراس على الشيطنات، يظل في ظلاله الناس بعيدين عن وسواس الخناس النسناس:

ثم وفي هذا الهتاف انعطاف إلى انحصار الأصل في: ﴿ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ إذاً فالناس كلهم مخلوقون من اثنين: آدم وحواء، فلو كان هناك بعدهما جنية أو حورية كما قد يروى، لكان أصل المجموع ذكراً وأناثى، مهما كان الأصل للنسل الأول ذكراً وأنثى، كما أن ذلك الذكر أصل الأنثى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً . . .﴾[1] فمن نفس واحدة (آدم) زوجها (حواء) ومنهما الناس أجمعون رجالاً كثيراً ونساء.

وترى هل أن ﴿ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ هنا تعني - فقط - اثنينية الأصل الأول، أو مطلقاً، أم والفرع أيضاً، أم الفرع فقط؟ أن تكون «من» بيانية تبين نوعية الناس: أنهم ذكر وأنثى، دون المخلوق منه، فـ﴿ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ عبارة أخرى عن «كم» ولكنه توضيح للواضح، ثم ولا صلة له بإثبات وحدة الأصل، المتفرع عليها توحيد الميزة التقوى، اللهم إلا أن يعنى الأمران، فـ «من»

= وفي روضة الكافي بإسناده عن حنان قال: سمعت أبي يروي عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان سلمان جالساً مع نفر من قريش في المسجد، فأقبلوا ينتسبون ويرفعون حتى بلغوا سلمان، فقال له عمر بن الخطاب: أخبرني من أنت ومن أبوك وما أصلك؟ فقال سلمان: أنا سلمان بن عبد الله، كنت ضالاً فهداني الله عز وجل بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم كنت عائلاً فأغناني الله بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وكنت مملوكاً فأعتقني الله بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم هذا نسبي وهذا حسبي، قال: فخرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسلمان يكلمهم، فقال له سلمان: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ! ما لقيت من هؤلاء؟ جبست معهم فأخذوا ينتسبون ويرفعون في أنسابهم حتى بلغوا إلي فقال عمر بن الخطاب: من أنت وما حسبك. . . فقال صلى الله عليه وآله وسلم : فما قلت له يا سلمان؟ قال: قلت: . . . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يا معشر قريش إن حسب الرجل دينه، ومروته خلقه وأصله عقله، قال الله عز وجل : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجرَات: ١٣] ثم قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لسلمان: ليس لأحد من هؤلاء عليك فضل إلا بتقوى الله عز وجل ، وإن كان التقوى لك عليهم فأنت أفضل.

(١) سورة النساء، الآية: ١.

بيانية من جهة ونشوية من أخرى هي الأحرى، ولا سيما من الأصل الأول، فإن الأصول الأخرى: أن كل إنسان مولود من أبوين، يماثل الاحتمال الآخر أنه توضيح للواضح، وأنه لا يتبنى إزالة الفوارق، وأما أن الإنسانية جمعاء تنتهي إلى أصل أول: ذكر وأنثى، فإنه يحمل بيان مجهول، ومن ثم فتفرُّع الوحدة غير المتفارقة عليه معلوم، والآية تتبنى إلغاء التفاضل الطبقي، فلا تُناسب الا إرجاع الكل إلى الأصل الأول «آدم وحواء» ليس إلا!.

وكما الأصل واحد بما خلق الله ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم﴾ كذلك الفرع المتشعب القبلي بما جعل الله ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾ وترى لماذا الكثرة الميزة بعد الوحدة لا الكثرة المتماثلة، أللتكاثر والاختلاف وهما نقمة والوحدة نعمة؟: «ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك (الرحمة الائتلاف) خلقهم اللهم لا! أم للتآزر والائتلاف؟ اللهم نعم: ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ حيث المماثلة في الألوان والأشكال واللغات تهدم أساس التعارف فالائتلاف، فلا يجوز أن يجعل هكذا اختلاف بما جعله الله وسيلة التعارف والائتلاف، يُجعل مسكة وذريعة للاختلاف، من لون أو لغة أم ماذا؟ وإنما الميزة الوحيدة الكريمة، التي تؤلف شرعياً بعد التآلف الخلقي، إنما هي التقوى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾: لوحة كريمة وحيدة في ميزان الله، لائحة لمن اتقى الله، والتخلق بأخلاق الله لزامه أن نكرم من أكرمه الله.

وما هو الفرق بين الشعوب والقبائل؟ ولم يذكرا في القرآن إلا هنا، علّ الشعوب - جمع شِعب لا الشَعب - تعني المجتمعات المتشعبة: تُجمع من جهة وتُشعَّب من أخرى، كما الشِعب من الوادي ما اجتمع منه طرف وتفرق آخر، فإذا نظرت من الجانب الذي تفرق أخذت في وهمك واحداً يتفرق، وإذا نظرت من جانب الاجتماع أخذت في وهمك اثنين اجتمعا، فلذلك قيل: شعبت إذا جمعت، وشعبت إذا تفرقت.

إذاً فالشعوب هي المجتمعات المتفرقة، تفرق الولادة القريبة، وتجمُّع الأصل البعيد، ومن ثم القبائل تجمع الشعوب، فكل قبيلة تجمع شعوباً عدة متناسبة ومتقاربة أكثر من سواها، فالكيان الأول للناس هو الطبقة الأولى من القرابات الشاملة لسائر طبقات الإرث، ثم الثاني الأقارب الأخرى، الجامعة بين طبقات وطبقات بصلات الأنساب والقرابات والأسباب، وهي الشعوب، ثم الثالث مجموعات من الشعوب تجمعهم أنساب وأسباب بعيدة، وهي القبائل.

فالقبائل هي مجامع الشعوب، كما البشرية جمعاء مجموعة القبائل، فهي إذاً عائلة واحدة بشعوب وقبائل بُغية التعارف، ثم أكرمهم عند الله أتقاهم:

وأخيراً ترى أن هذه التقوى هي - فقط - الصلة والعلاقة الشخصية بين العبد والمعبود، أم أنها - وفي نطاق واسع - هي الاتقاء عما لا يرضاه الله في كافة الميادين الحيوية، من عقائدية وثقافية، اقتصادية وسياسية، ومن حربية وقضائية وجزائية أم ماذا، فليس الإيمان محصوراً في حصار العلاقة الشخصية وكما يريده الاستعمار الكافر، حتى يجعل من المؤمنين زهاداً يزهدون عن كل تدخُّل حيوي في شؤون المسلمين، بل هو صيغة شاملة كاملة تجعل من المؤمنين بنياناً مرصوصاً رصيناً ورزيناً في كافة الميادين، فقد يكون المؤمن أتقى فأكرم في بعض الميادين ولا يكون في بعض، كما هو الحال في الأكثرية الساحقة بين المتقين، وأما أن يكون أتقى فيها كلها، فقد لا يكون إلا الرسول المصطفى ﷺ ومن يحذو محذاه من أئمة الهدى عليهم السلام فهم أكرم الناس وأتقى: تقوى علمية معرفية وعبودية وسياسية واقتصادية، يروضون أنفسهم بتقوى الله في كل زواياها ومجالاتها، اللهم أحينا محياهم وأمتنا مماتهم آمين.

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾:

ترى من هم الأعراب هنا، أهم قوم العرب؟ ومنهم مؤمنون، ومَن هم المنطلق الأول للدعوة الإسلامية، بالغين ذروة الإيمان، كالسابقين المتسابقين لإجابة الدعوة في طريق شائك بألوان البلاء، مليء بالأشلاء وسيول الدماء!

أم هم كل متكلم باللغة العربية؟ فكذلك الأمر وأحرى، كما التاريخ يشهد بسباق جماعة من العجم في الإيمان، لاحقين أم سابقين!

أو هم جماعة من أولاء أو هؤلاء؟ ولام الاستغراق تنفيه، وأدب التعبير القرآني ينافيه! إذاً فهم جماعة طبعهم اللّاإيمان وإن آمن بعض منهم بعد طول مدة الدعوة، وهو الصحيح لغوياً وقرآنياً: إنهم أهل البوادي، البعيدين عن الثقافات، القريبين إلى الشقاوات والقساوات: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[1] فالأعراب جمع العَرْب: الظاهر، الذي يحيى حياة مكشوفة بادية بدائية، تظله السماء وتقله الأرض، فهم - إذاً - الظاهرون من الناس، غير المدنيين، عرباً أو عجماً، كما الإعراب إظهار موقف الكلمة من حركات تدل على موقعها النحوي، وكما القرآن حكم عربي: ظاهر لمن استظهر، لا تعقيد فيه لا تفهماً ولا تطبيقاً: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾[2] لا أنه خاص بالعرب القومي، أو من يتكلم بالعربية، فإن رسالة القرآن عامة عالمية!: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ...﴾[3] لا عوج في عربيته: وضوحه في كافة المجالات، وسهولته في مختلف المتطلبات، دون تشديد ولا تعقيد!.

(١) سورة التوبة، الآية: ٩٧.
(٢) سورة الرعد، الآية: ٣٧.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٢٨.

هؤلاء الأعراب قالت آمنا: مدلّلين كأنهم آمنوا «ولمّا».. فهم في البداية أسلموا وقلوبهم فارغة عن الإيمان، ومنهم الذين آمنوا بعد كما توحيه «لمّا» الدالة على انتظار مدخولها، وقد آمن من آمن، وإن كانوا قلة، وكفر من كفر أو نافق وهم الكثرة - ف: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ... وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ... وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ...﴾[١].

ففي الآية سلب لما يدعى: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ وإثبات لإسلام هو قبل الإيمان: ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ ورجاء الإيمان بعد الإسلام للذين لم ينافقوا بإسلامهم: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ ورحمة ثانيه لمن سلك سبيل الإيمان، أن يؤتى - بأعماله قبل الإيمان - ثواب الأعمال بعد الإيمان: ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾! لفتة حبيبة لمن أسلموا من الأعراب «ولما يؤمنوا» فضلاً عن الذين آمنوا فأحرى لهم وأولى!.

ثم الإسلام إسلامان، إسلام أول هو قبل الإيمان فهو دونه كما هنا، وإسلام آخر هو مع الإيمان وبعده، كما في غيرها فهو فوقه، وهو إسلام النبيين وسائر الأصفياء.

فالإسلام الأول أعم من الإيمان، حيث الإيمان: «معرفة بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالأركان»[٢] وهذا الإسلام فارغ عن العقد في القلب ﴿وَلَمَّا

---

(١) سورة التوبة، الآيات: ٩٩-١٠١.

(٢) الدر المنثور: أخرج ابن ماجة وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ..

يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ كما والإسلام الثاني أخص من الإيمان، فمن المؤمنين من لم يسلموا بخالص التوحيد لرب العالمين: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[١] ومنهم من أسلموا: بعد كامل الايمان: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾[٢] ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ...﴾[٣] ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾[٤].

فالإيمان يتبع إسلاماً قبله باللسان، فعملاً بالأركان، ومن ثم معرفة بالقلب: الإيمان، ثم قد يُتبع إسلاماً بعده هو تسليم القلب لله، فتكميلٌ لإقرار اللسان وعمل الأركان، وإلى أن يصل التسليم إلى القمة، وبعد الإيمان القمة.

ثم الذي أسلم إسلامه الأول نظرة الإيمان - ولما يدخل الإيمان في قلبه - ترى أنه يُحرم عن ثواب أعمال الإيمان؟ اللهم لا! شرط المواصلة في طاعة الله ورسوله، محاولة دخول الإيمان في قلبه: ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾: لا ينقصكم منها، ولأنكم في صراط الإيمان!

ثم اللهم نعم! لو أنكم توانيتم في أعمالكم، فلا أعمال صالحة حتى تؤجروا بها كما المؤمنون، أم لم تطيعوا الله ورسوله في أعمالكم، فإنها آلة ناقصة: إما في إخلاصها، وإما في ظواهرها، فلستم هنا وهناك في صراط الإيمان حتى تشملكم رحمته تعالى أن تلحقوا بالمؤمنين في ثواب أعمال الإيمان: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٦.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٢٥.
(٤) سورة الصافات، الآيات: ١٠٣-١٠٥.

مِّن شَيْءٍۚ كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[1] فإنما الإلحاق يلحق ذرية الإيمان، الذين هم في صراط الإيمان إن وصلوا، وإن لم يصلوا قاصرين، أو وصلوا ولما يلحقوا الأصول المؤمنين في درجات الإيمان، ذلك الفضل من الله أن ﴿لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ كما لا يلِت من أعمال المتبوعين، فلا ألْت في حساب الله، وإنما فضل ورحمة ما كان له مجال.

ثم الإيمان درجات، كما الإسلام أياً كان، وقبلهما الكفر دركات، فأفضل الإيمان، وكأنه الإيمان لا سواه:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾:

إيمان بعد إسلام، ثم تركيز للإيمان في القلب فلا يرتابون، ثم مظهر جادٌ يدل على ركيزة الإيمان اللّاارتياب، فيجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، فأولئك حقاً هم الصادقون أنهم مؤمنون، ومَن دونهم دون الصادقين حقاً وعملاً، وإن كانوا صادقين قولاً وقلباً لما دونه من درجات الإيمان، فالإيمان درجات، كما الإسلام درجات، وما دونهما دركات!.

فمنهم من أسلم ولما يدخل الإيمان في قلبه، ومنهم من آمن ولمّا يَثبت في الإيمان فلم يُتبع الإسلام الناتج عن الإيمان، ومنهم من ثبت الإيمان في قلبه دون ارتياب ولم يصل إلى قمة الجهاد بالأموال والأنفس، ومنهم من وصل فهو المؤمن حقاً وصدقاً.

وقد توحي «ثم» هنا دون «و» باشتراط التهنّؤ والتهيّؤ للثبات على شريطة الإيمان الحق، دون مجرد اللّاارتياب حيناً ثم الانفلات إلى شيءٍ من الارتياب. فـ «ثم» تثبت ثبات اللاارتياب بعد الإيمان دوماً، ما كان المؤمن

(١) سورة الطور، الآية: ٢١.

في قيد الحياة دون انفلات، مجاهداً بمالِه وما لَه من طاقات وإمكانيات في سبيل الله نفساً ونفيساً أم ماذا؟ فانطلاقة الجهاد انطلاقة ذاتية من قلب المؤمن، تُحقق صورة وضيئة في قلبه في سيرة مرضية بقالبه في واقع الحياة، فحياته وحيدة مليئة بالإيمان، لا ازدواجية له بين عقيدة الإيمان وعمل الإيمان، بل هي تؤذيه وتصدمه إذا لا يطيق توحيدها لضغوط خارجية، فالخصومة بين المؤمن وحياة الجاهلية من حوله - كذلك - ناشئة من وحدوية الإيمان.

وما أهمها هنا ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ كما في ﴿الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾[1]! فالطريق شائك، وصراط الإيمان مليء بالبلاء، مفروش بالدماء والأشلاء، بحوادث وهواجس تُزلزل وتزعزع، فعند الامتحان يُكرم المرء أو يُهان، وعند تقلُّب الأحوال يُعرف جواهر الرجال.

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾:

فلماذا الادعاء «آمنا» وأنت بيِّن كاذب لمّا يدخل الإيمان في قلبك، وصادق يعلم الله ما في قلبك ﴿أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾؟ وإذ لا! فلماذا الادعاء؟ ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾:

غلطات بعضها فوق بعض من هؤلاء الأعراب ولمّا يؤمنوا، إذ يمنون عليك أن أسلموا، وليس لك من الأمر شيء! ولا يجدي إسلامهم نفعاً إلا لهم أن يحقن دماءهم ويحفظ أعراضهم وأموالهم، ويشركهم وسائر المؤمنين فيما لهم وعليهم، ثم وإسلامهم لا إيمانهم، وإن كان لا منَّ ولا في إيمانهم

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٠.

ولمّا، فلا هذا ولا ذاك ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ﴾ بالإسلام «للإيمان» حيث إن هكذا إسلام ذريعة وصراط للإيمان، وبعدُ فلا منَّ إلا لله عليهم أن هداهم لما يصلحهم، ودعاهم لما يحييهم، فهم عكسوا أمر المن، ولا منَّ حتى في الإيمان، ثم لا عليك وإنما مِن الله عليهم، ثم الله إنما يمن عليكم ويهديكم بإسلامكم ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في إسلامكم، فمن صدق في إسلامه فهو متنعِّم من الله بهداه، لا أن يمن على رسول الله أم على الله، ومن لم يصدق فلا هدىً للإيمان فلا منّ هنا أو هناك، حيث الإسلام الكاذب نفاق، ويا له من وخزة دنياً وعقبىً دون منَّ «مِن» أو «على».

إن منَّ الإيمان لمن صدق هو أكبر المنن على الإطلاق لو عرف الإنسان قيمة الإيمان وقمته، نفخة علِّينية تصل بهذه الذرة الطينية الهزيلة البائسة إلى نور العظمة الربانية، الذي يشعره بالوضاءة المنطلقة والضياء المطلق، فروحه في السماء وقدماه تدبان على الأرض، وقلبه يستحمُّ بالنور، متعلقاً بمصدر النور، نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء.

إذاً فمن يستحق المنّ؟ وعلى مَن؟ إنما المن من الله، على من هداه الله، وتأييداً من الله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾[1] إلى صراط مستقيم ودلالة من رسول الله: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾[2].

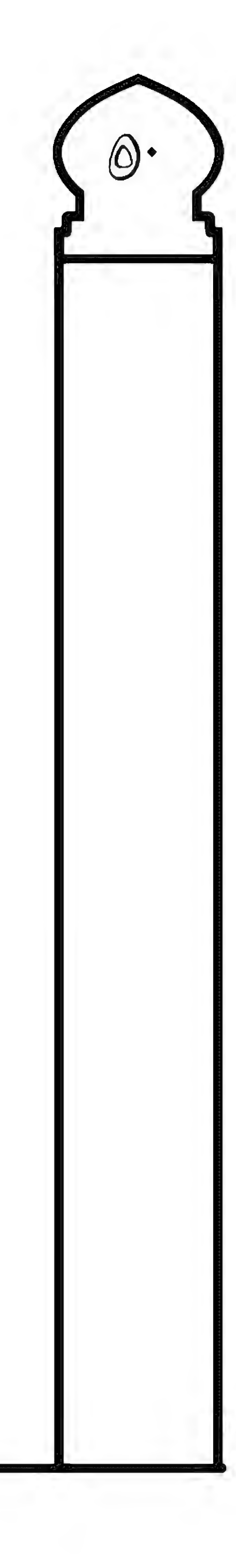
﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١٨﴾:

.. إذاً فهو العالم بغيب النفوس، والبصير بمصير الأعمال ومنطلقها، فلماذا المنّ والادعاء؟

---

(١) سورة القصص، الآية: ٥٦.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦٤.




# سُورَةِ قٓ




مدنية - وآياتها خمس وأربعون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ﴿٣﴾ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ﴿٤﴾ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ﴿٦﴾ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٧﴾ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴿٨﴾ وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ﴿١٠﴾ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ ﴿١٣﴾ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾

﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ﴿١﴾﴾:

إن المجد هو سعة الكرم والجلال، فهو لذي الجلال والإكرام سعة لا

تُحد وكرم لا يُعد: ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ﴾[(١)] فكذلك قرآنه المبين وتبيانه المتين: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ﴿٢١﴾ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ﴿٢٢﴾﴾[(٢)] [(٣)] فلا أمجدَ في الأقوال من قول الله، بل ولا مساماة ومساواة، فالبون بين قول الله وسواه كالبون بين الله وسواه، فلذلك يحق الحلف بقول الله كما بالله: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾: حلفاً بأدل دليل، وأنه خالق المدلول والدليل، لا حلفاً عند فقدان الدليل أو نقصانه، فكما القرآن بحكمته دليلٌ لنبوة ورسالة من جاء به: ﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٣﴾﴾[(٤)] كذلك وأحرى هو دليل على ما يحمله ويدل عليه من سائر الغيب كالقيامة، ولعل (قٓ) هنا توحي لها كما توحي للقرآن نفسه، فليحلف بمجد القرآن: بكرم أدلته وجلال براهينه، على صحة ما يدل عليه من غيوب لا يكشف عنها إلا بالوحي!.

ويما أن أشمل الأسماء لليوم الآخر «القيامة» وأن جواب القسم - وهو طبعاً إقرار القيامة - لم يأت بعدُ، وهو المصبُّ الأصل في آي السورة، نستوحي أن «قٓ» تشير - فيما تشير - إلى القيامة كمدلول، كما وإلى القرآن كدليل، ثم يصرح بالقرآن في صيغة قسم، ومن ثم بالقيامة طوال السورة، وكأنه يقول: قسماً بالقرآن المجيد أن القيامة لا ريب فيها، ف «قٓ» إذاً إشارة إلى كِلا الدليل والمدلول، ولأن القيامة - كالقرآن - باهرة لحد كأن لا حاجة في التدليل عليه حتى وبالتسمية، فليكتف بحرفها الأول «قٓ» ـ: ممدودة تمدنا إلى كامل اسمها كما هي الأول من القرآن، وتمدنا لإثبات القيامة بمختلف صنوف البراهين.

فلا حاجة إذاً إلى الأقاويل المحتارة غير المختارة في: ما هو جواب

---

(١) سورة البروج، الآية: ١٥.
(٢) سورة البروج، الآيتان: ٢١، ٢٢.
(٣) راجع سورة البروج ج ٣٠.
(٤) سورة يسٓ، الآيات: ١-٣.

القسم هنا، فذلك ينافي كون القرآن بياناً، أترى البيان بحاجة إلى من يختلقون لتوجيهه وجوهاً هم فيها مختلفون؟!

كما ولا صلة بما يروى في «قٓ» أنه جبل، فما هي المناسبة القريبة أو البعيدة بين جبل قاف وبين ما هو مصب السورة من إثبات القيامة، والتنديد بناكريها، ثم وهذا الجبل جبل من خرافات[1]!

فهنا القرآن المجيد برهان لا مرد له لإثبات القيامة الساعة، وكما هو برهان في «يسٓ» لإثبات رسالة نبي الساعة، كما وهو قبل الساعة ونبيها برهان لرب الساعة بما فيه من ذكر: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ . . . وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾[2] فإذاً القرآن المجيد برهان لا مرد له في هذا المثلث المجيد، أفلا يكون برهاناً لما دونه، بلى وربي على ذلك لشهيد!:

---

(١) الدر المنثور: أخرج ابن أبي الدنيا في العقوبات وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس قال: خلق الله جبلاً يقال له قٓ، محيط بالعالم، وعروقه إلى الصخرة التي عليها الأرض، فإذا أراد الله أن يزلزل قرية أمر ذلك الجبل فحرك العرق الذي يلي تلك القرية فيزلزلها ويحركها فمن ثم تحرك القرية دون القرية!.

وفيه بإسناد عن عبد الله بن بريدة قال: جبل من زمرد محيط بالدنيا عليه كنفا السماء!.

وفيه عن ابن عباس قال: خلق الله من وراء هذه الأرض بحراً محيطاً بها ثم خلق من وراء ذلك جبلاً يقال له: قٓ - السماء الدنيا مترفرفة عليه، ثم خلق من وراء ذلك جبلاً يقال له ق السماء الثانية مترفرفة عليه حتى عد سبع أرضين وسبعة أبحر وسبعة أجبل وسبع سماوات قال: وذلك قوله: ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ [لقمان: ٢٧]!.

وروى القمي مثل ما مضى عن عبد الله بن بريدة: قٓ - زمرد، وروى ما في معناه: جبل محيط بالدنيا وراء يأجوج ومأجوج!

أقول: ويا له من جبل متهافت المكان والمكانة، تتناقله ألسنة الرواة من سنة وشيعة من حيث لا يعلمون انها خرافات إسرائيليات تدخلت في أحاديثنا لتشويه سمعة الإسلام أمام العقل والعلم والحس.

(٢) سورة ص، الآيات: ١-٥.

﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾:

﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾[١] إعراضاً عن الواضح اللائح وضْح الشمس ولوح النهار، فلا هم يتدبرون القرآن المجيد، ولا في قيامة القرآن المجيد، فمن ثم ﴿عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ وترى لم يعجبون؟ ألِمجيء المنذر؟ وهو رحمة للمنذَرين! أو لأنه منهم؟ فكذلك الأمر! فلو جاءهم من غيرهم، من جن أو ملائكة لا يرونهم، فكيف الإنذار؟ أم ولو رأوهم - وليست إلا بصورة إنسان: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَـٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[٢] أم لو رأوهم بأصل الصورة، فماذا يفيدهم إنذارهم بمن هم من غير جنسهم، ولهم العذر الحجة: أننا - أو - علّنا لا نطيق ما يطيقون، فما نحن إذاً بهم مقتدين، إذاً فقولتهم هذه شيء عجيب، لا أن جاءهم منذر منهم! وعلّهم ازدادهم عجباً أن أنذرهم برجع بعيد!:

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣﴾:

وترى أن رجْعنا بعدما كنا تراباً لماذا هو بعيد وعماذا؟.. عن عدله تعالى؟ وهو قضية عدله وفضله! أو عن قدرته؟ وهو أهون عليه من بدئه! أو عن العقل لأنه مستحيل؟ فما هو الدليل؟ أم عن علمه إذ تنتشر الأجزاء وتضل بعدما تندثر، ضلالاً في واقع الأكل والمأكول، أم في أكناف الأرض: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾[٣]؟ والخالق عليم حفيظ!:

---

(١) سورة النمل، الآية: ٦٦.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩.
(٣) سورة السجدة، الآية: ١٠.

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾﴾:

صحيح أن الأرض تنقص منهم من أجزائهم: ما تأكله الحيات والديدان، وما تمتصه عروق الأشجار من قوّات الأبدان، وما تتآكله الحيوان، وما تبدله الأرض تراباً أو أياً كان، ومن أشخاصهم أم ماذا؟ ولكنها كلها بعلم الله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ﴾: من أجسادهم - فقط - والأرواح باقية كما هي! فهم - إذاً - لا يذهبون ضياعاً في أجسادهم، فالأصيلة من أجزائها - التي عاشتها حياتها أو حياة التكليف - ترجع يوم حشرها، وغيرها التي كانت من غيرها، ترجع إلى أصحابها، والزائدة الفضولة التي لا دور لها ثواباً أو عقاباً قد تنفصل عنها، وكل ما يجب حفظُه في ميزان العدل والفضل للحشر يحفظ: ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾: كتاب التكوين الحفاظ عن أيِّ ضياع، فلا تضل أجزاء الأبدان في بعض، كما ولا تضل في الأرض، وكما لا تفنى عن جواهرها، وإنما تتبدل تراباً وهي محفوظة في علم الله أينما حلت وارتحلت أو تبدلت عناصر أخرى، فسيعيدها الله سيرتها الأولى(١)، ثم لا فحسب إنها محفوظة في علم الله، بل وعند ملك الموت أيضاً - لـمَّا يتوفاهم - بإذن الله: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾(٢) فالإنسان بجسمه وروحه محفوظ في كتاب حفيظ متوفى: مأخوذ بقبضة الموت وافياً دون انفلات، فمهما ضلت أجزاء - كالمسبقة أم ماذا؟ عن علومنا، ولكنها بعين الله وفي علم الله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ فأين البُعد بعد، اللهم إلا بُعداً في

---

(١) هنا وجه آخر: هو الآخر أن قد علمنا ما تنقص الأرض - في نفسها - منهم: بسببهم - أي أن الأجزاء الارضية التي تصبح إنساناً هي معلومة لدينا، إلا أنه لا يمت بصلة للجواب عن مشكلة ضلال الأجزاء، اللهم إلا تقدمة للوجه الأول: أن الله يعلم الأجزاء الناقصة عن الأرض التي تتحول أجزاء للإنسان - وهي محفوظة في كتاب حفيظ على طول الخط - فثم إذاً نقصت الأرض من أبدانهم ما نقصت، فالأجزاء المنقوصة أيضاً معلومة - ولا بأس بالجمع بين الوجهين وأما خصوص الثاني فلا.

(٢) سورة السجدة، الآية: ١١.

عقولهم: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾[(١)] ! بعداً عن البعيدين عن عقولهم، المتحللين عن ضمائرهم، القريبين إلى شهواتهم وغاياتهم، فلا هنا إنذار بعيد ولا رجع بعيد:

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾:

تكذيب دون أية حجة أم ريبة، إلا هواجس وهوسات جهنمية! وإنه لتكذيب جاهل معاند: أن يكذب بالحق لما جاء، دون تأمل فيه، أو أية شائبة وريبة تعتريه، وإنما جحوداً للحق لأنه يربطهم عن الحريات، ويقيدهم عن الشهوات، والإيمان قيد الفتك، وناكر الحق هكذا يعيش في أمر مريج: مختلف خليط رجيج، وقد توحي «في» أنهم غائصون غارقون في يمٍّ متلاطم مائج مارج، إذ ضلوا في صراط الحياة عن الحق، إلا ما يحقق شهواتهم وكله باطل، تتقاذفه الأهواء، وتتأرجح حياته في هباء، إذ لا مستقر له إلا الهوى ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾: مختلط: حيث اختلط أمرهم في عقولهم إذ كذبوا بالحق، فلو أنهم شاكون فيه فليتبينوا والحق بنفسه بينة، ويملك من صنوف البينات ما تحققه، فإن حققوه فلماذا التكذيب؟ وإن احتاروا - ولن - فكذلك الأمر، إلا أن يقولوا: نحن في شك حتى يأتينا البيان، وإن فاجؤوا الحق وجابهوه بالتكذيب فأضل وأطغى! ومن مريجِ أمرهم أنهم مختلفون في أنفسهم ومع بعض في تكذيب الحق: أفترى على الله كذباً أم به جنة، أو هو ساحر أم كاهن أم مزدجر، أو أن كلامه سحر يؤثر أم ماذا؟ من تقوُّل مريج في وجه الحق البهيج!.

ومن ثم يمرج أمرهم في كافة شؤون الحياة، لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المسِّ، مخبَّلين في تصرفاتهم، مارجين في كل

(١) سورة السجدة، الآية: ١٠.

حياتهم، لا يعيشون إلا مَرجتها دون بهجتها مهما ادعوها: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ...﴾[1].

ومن هنا تأخذ الآيات دورها في تقريب الحق: إشارات إلى علمه تعالى وقدرته وحكمته، ثم تقريب للبعيد من رجْع عندهم: أنه رجع قريب، وكما يشاهدونه حياتهم:

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾؟:

إلفات نظر عريق إلى علم الله وقدرته وحكمته، التي تسهِّل خروج الموتى: ... ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾! فإنه بحاجة إلى علم: ﴿مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَـٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ وإلى القدرة على الإخراج كما بدأ.

وترى التنديد هنا أهو بترك النظر إلى السماء شهوداً لـ ﴿كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا﴾ لماذا لم يشهدوا كيفية خلق السماء وبناءها وتزيينها؟ و﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ...﴾[2] إذ خُلقوا بعدهما فكيف يشهدون خلقهما! أم يشهدون شهود العلم بعدهما، وخلقُهما من فعل الله، فلا يعلمه إلا الله، أو من ارتضاه من رسول! أم إن النظر هو الماكن لأي ذي بصر أن ينظر إلى السماء فوقه، من بعيد، أو من قريب بالصواريخ والسفن الجوية أم ماذا؟ ولكي يعرفوا - قدر النظر - كيفية بناء السماء وتزيينها وما لها من فروج، دالة لأي مستدل على حكمة الخلاق العليم؟ وهو الحق الذي تندد فيه آية النظر بالأعمين الذين يبصرون ولا ينظرون، أو ينظرون ولا يعتبرون: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾!.

إن في السماء المبنية المزينة فوقهم ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ سماء من

(١) سورة طه، الآية: ١٢٤.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٥١.

اللفتات، إلى صفحتها التكوينية الواسعة البارعة، في مثلث من بديع الخلق: ﴿كَيْفَ بَنَيْنَاهَا - وَزَيَّنَّاهَا - وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾!

فأما بناءها فهو السبع الشداد ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾[١] [٢] و«فوقهم» هنا، كـ ﴿فَوْقَكُمْ﴾ هناك، إشارة كتصريحه إلى كروية الأرض، فإنها لزام كون السماء فوق سكنة الأرض كلهم، ثم ولبناء السماء «فوقهم» زوايا شاسعة من حكمة التكوين تستحق مؤلفاً ضخماً فذاً علَّه يأتي بأطراف منها قليلة، من خلق دخانها وجعلها طباقاً، وتزيينها بمصابيح أم ماذا؟ تلفت أنظارنا هنا إلى الزاوية الأخيرة: ﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾ وبقاءها على حالتها الرائعة رغم بليارات القنابل الفضَّية التي لزامها فروج: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾!

فهناك تزيين لمتن السماء بلونها الجلاب ومنظرها الغلَّاب الخلّاب، ومن ثم بمواليدها المصابيح، القناديل الفضية المعلقة فيها دون عمد ترونها: ﴿رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾[٣] فثم عمد ولكن لا ترونها! ومن البروج: القصور، أم ماذا؟: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾[٤] [٥].

ثم ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ وآية الفروج هذه كآية البروج، هي الوحيدة في القرآن التي تلفت أنظارنا إلى عدم الشقوق التي هي لزام المصابيح والبروج، فكل صفحة منها موتدة بأوتاد المصابيح، مرتفعة بالبروج، فما ترى لها من فروج، اللهم إلا صفحة السماء، ولأن مصابيحها وبروجها معلقة في أعماقها، مدعمة بعمد لا ترونها، ثم المتن الخالي عن مصابيح وبروج، كذلك: ما له من فروج.

(١) سورة النبأ، الآية: ١٢.
(٢) راجع تفسير الآية في ج ٣٠.
(٣) سورة الرعد، الآية: ٢.
(٤) سورة البروج، الآية: ١.
(٥) راجع آية البروج ج ٣٠.

وهذا استعراض للسماء في دنياها أن ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ ولكنها في أخراها كلها شقوق وفروج: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ﴾[١] فالسماء غير ذات الفروج تصبح وقتئذٍ من ذوات الفروج، ولحد كأنها كلها أبواب وفروج: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾[٢] [٣]. وإن كانت فروجها يوم تدميرها بحكمة، كما هي يوم تعميرها بحكمة، سبحان الخلاق العظيم!

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧﴾:

وإن لم ينظروا إلى السماء فوقهم فلا يعتبرون، فإلى الأرض التي عليها يعيشون، والنظر إليها لزام حياتهم، مداً لها، وإلقاءً للرواسي فيها، وإنبات كل زوج بهيج: مثلث اللفتات الأرضية متوازية للسمائية حذوها:

فللأرض مدّان، مد التعمير كما هنا، ومد التدمير كما في الأخرى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤﴾[٤] فبمد التدمير تتبدد، كما هي بمد التعمير تتمدد فتنبت فيها كل زوج بهيج وموزون، من كل الثمرات: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ۝١٩ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ۝٢٠﴾[٥] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٤ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ...﴾[٦].

---

(١) سورة المرسلات، الآية: ٩.

(٢) سورة النبأ، الآية: ١٩.

(٣) راجع سورة الانشقاق ج ٣٠ والانفطار ٣٠ والتكوير ٣٠.

(٤) سورة الانشقاق، الآيتان: ٣، ٤.

(٥) سورة الحجر، الآيتان: ١٩، ٢٠.

(٦) سورة الرعد، الآيات: ٣-٥.

إن مد الأرض فإلقاء الرواسي وإنبات النبات، توحي أنها كانت منقبضة غير ممدودة، بلا رواسي ولا نبات فلا حياة، شَموساً لا تذل لراكب، مضطربة الحراك، حيث الرواسي الشامخات تمسكها عن المَيدان ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ...﴾[(١)] فهنا رواسي ملقاة، وهناك أخرى مجعولات: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾[(٢)] [(٣)] وهما الجبال الموتدة على الأرض من الأعماق، الشاهقة إلى السماء، وعلّ الجعل والنصب أعم من الإلقاء[(٤)] حيث يشمل ما خلقت من الأمواج التي برزت على سطح الأرض نتيجة الحركات والاصطدامات بالجو البارد، وقانون الفرار عن المركز، ثم الإلقاء يخص التي انبثقت من تفجرات البراكين، والتي سقطت من نجوم في السماء، ولعل الإلقاء هنا يخص ما هو نتيجة المد الضغط فتفجرت براكين، فأصبحت من عليها راسيات ملقاة من جوفها، أو ما يعم الملقاة من الأمواج سطح الأرضية، إذ كانت شموسة محترقة، أو يعمها والتي سقطت من نجوم السماء، أم ماذا؟

ثم لإلقاء الرواسي - أياً كانت - دورها الهام في إنبات كل زوج بهيج موزون، فإنها لا تكون إلا ببرودة الأرض، وإلا فلا جبال ولا سواه إلا مذاباً مايعاً في الأرض الشَّموس! وإذ لا جبال رواسي فلا ذِلَّ للأرض عن الشماس، ومن ثم: بعد الذل بالجبال الرواسي يأتي دور تكوُّن وظهور المياه عن الأبخرة ونزولها من السماء، ولولا الجبال التي تكنُّ الثلوج فتذخر في أعراقها المياه، لَما سبل السبيل لإنبات النبات، سبحان الخلاق العظيم!.

وعلّ ﴿كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ يشمل كافة الأحياء الأرضية من نبات وحيوان

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٥.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٣١.
(٣) راجع ج ٣٠.
(٤) حيث التعبير في مختلف الآيات يختلف بالجعل والنصب والإلقاء.

وإنسان: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾[1] بل وبهجة نبات الإنسان أبهج من نبات سائر النباتات والحيوان، ولأنه لا تخصها:

﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ⁨٨⁩﴾:

بل وإنهما في الآيات الأنفسية أقرب وأحرى من الآفاقية، فكل عبد منيب إلى ربه يتبصر بهذه الآيات ويتذكر، كما المعرض عن ربه المنيب إلى هواه يتعامى عنها فيتعثر.

إنها، لو أبصرتَ بها بصَّرتك، ولو أبصرت إليها أعمتك، والمنيب هو الذي لا يبصر إليها وإنما يبصر بها، يجعلها ذريعة يتذرع بها إلى الحق المرام، دون المناهج (العلمية!) التي لا تنحو في مدها وجذرها إلا الحياة الحيوانية، في معرفة زائفة زائغة عقيمة غير عميقة، لا تتخطى النظر في الكون إلى معرفة خالق الكون!.

هذا هو المنهج العلمي، الماكن الساكن في أدمغة جامدة مطموسة رانت عليها أصالة المادة والحياة الحيوانية، وأما المنهج الإيماني الصحيح فهو يزيد الناهج معرفة بارتباطات الكائنات، ثم ربطها كلها بخالق الكائنات، فلا وقفة له عن الحراك، ولا عثرة له في حراك، فإنه دائب الكدح في هذه السبيل، ذاهب إلى ربه فملاقيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾[2]!

﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ⁨٩⁩ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ⁨١٠⁩ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ⁨١١⁩﴾!:

إن مياه الأرض كلها من السماء، استقبلتها حينما ذلت بعد شماس، فاستعدت لقبول الحياة والأحياء: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ

(١) سورة نوح، الآية: ١٧.
(٢) سورة الانشقاق، الآية: ٦.

مَوْتِهَآ﴾[١] ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾[٢] وهذا الماء النازل من السماء مبارك، وطهور: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾[٣] مبارك تنبت به «جنات وحب الحصيد. والنخل باسقات: (طائلات) لها طلع نضيد: (أول ما يطلع منسقاً بعضه على بعض) رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً (فإنه حياة كل حي: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾[٤] - كذلك الخروج! فكما هناك خروج لأرزاقكم الميتة إلى الحياة، كذلك هنا خروج للمرزوقين إلى الحياة ليوفّى لهم ما كتب لهم.

وكما نبات كل شيء ميت هو بالماء، رزقاً للعباد في حياتهم الدنيا، كذلك خروج الموتى من أجداثهم أحياءً، بنفس القدرة والعلم والحكمة، والخلق الثاني مثل الأول، دون عيٍّ فيه بالخلق الأول، ومشاهد إحياء الميتات النباتية رزقاً للعباد تشهد - وأحرى - لإحياء الميتات الإنسانية رزقاً لهم أنفسهم بما قدموا جزاءً وفاقاً، أو عطاءً حساباً.

أفمن يحيي هذه النباتات رزقاً للعباد في حياة قصيرة هزيلة دنيا، عاجز أو بخيل أن يحيي هؤلاء العباد ليرزقهم في حياة طويلة عليا، كلا! وإنه أحق وأحرى.

فما ألطفه وأعطفه دليلاً نعيشه طول الحياة، وما أغفله من يعيش الدليل ويتغافل عن المدلول، وليس هؤلاء - فقط - هم المكذبون بالبعث والنشور، بل و:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾:

.. أقوام ثمان من أنحس المكذبين في التاريخ الرسالي وأشرسهم،

---

(١) سورة النحل، الآية: ٦٥.
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١٨.
(٣) سورة الفرقان، الآية: ٤٨.
(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٣٠.

فالرسالة واحدة، والكفر أيضاً ملة واحدة، مهما اختلفت شواكله، فلا تغتم بما كذبوك، ولا تهتم بما عذبوك، فالسبيل إلى الله شائك مليء بالدماء، مفروش بالأشلاء، فعليك أن تخوض المعارك بكل صبر وصمود، حتى تخلص إلى المقصود.

وإنها لفتة سريعة دون تفصيل، إيقاعاً على القلوب بمصارع الغابرين الغادرين - إذ ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ وترى كل من هؤلاء الثمان كذب كلَّ الرسل، وكما توحي به «كلٌّ»؟ ولم يكذب إلا رسالة واحدة أو رسالات، دون كل الرسالات!.

أجل - ولأن رسالة واحدة نموذج عن كافة الرسالات، تضرب بجذورها في أعماق الزمن الرسالي، فالرسل إخوة في الدعوة والمدعو له، فمن يكذب برسالة واحدة، فهو مكذب بسائر الرسالات جاهلاً أو متجاهلاً: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾[1] وما كذبوا إلا نوحاً إذ لم يكن معهم غيره! ﴿وَتِلْكَ عَادٌۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ﴾[2] وإنما هم قوم هود!

كما و﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[3] وما هو إلا صالح! و﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[4] وعلَّه - فقط - لوط - أو وإبراهيم عليه السلام و﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[5].

والمجهولون هنا منهم هم أصحاب الرس والأيكة وقوم تبَّع، وهم معروفون في مواردها من آياتها[6].

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٣٧.
(٢) سورة هود، الآية: ٥٩.
(٣) سورة الشعراء، الآية: ١٤١.
(٤) سورة الشعراء، الآية: ١٦٠.
(٥) سورة الشعراء، الآية: ١٧٦.
(٦) فأصحاب الأيكة وهم قوم شعيب يأتي ذكرهم في سورة الحجر والشعراء وصٓ وقوم تبَّع في الدخان وأصحاب الرَّس في الفرقان.

﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ (١٥) وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ (١٦) إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ (١٧) مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ (١٨) وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ (٢٠) وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ (٢١) لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ (٢٢) وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ (٢٤) مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٖ مُّرِيبٍ (٢٥) ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ (٢٦) ۞قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ (٢٧) قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ (٢٩) يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ (٣٠) وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ (٣١) هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٖ (٣٢) مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ (٣٣) ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ (٣٤) لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ (٣٥) وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشٗا فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ هَلۡ مِن مَّحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ (٣٧) وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ (٣٨)﴾

﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾:

. . . . ذلك خلق أول، من بناء السماء وتزيينها، ومدّ الأرض وإلقاء الرواسي فيها، وإنزال ماء السماء وإنبات النباتات رزقاً للعباد، أفلا يدل ذلك على إمكانية الخلق الثاني يوم المعاد الميعاد؟ بلى وهو أهون عليه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[(١)] أهون في منظر قدراتنا لا قدرة الله، إذ لا نهاية لها ولا عي فيها، أم تقولون «عيينا» عجزنا «بـ» سبب «الخلق الأول» لعظمته وعبئه، فلا نقدر على الخلق الثاني وإن كان أهون علينا؟ والفصل الشاسع بين الخلقين يزيل العي لو كان! ثم ولا عيَّ أياً كان، فلا قصور ولا تقصير من الخلاق العليم ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ غارقون «في لبس» وارتياب ﴿مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ هو إعادة القديم مادة، وتلبيسه بلباس جديد صورة، وفي نشأة جديدة سيرة، فهو إذاً إعادة أكثر مما هو تجديد ﴿يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ إذ يجدد ما يلي من أجزاء البدن المعاد، ثم يعيد فيه الروح للمَعاد، ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[(٢)] ﴿وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[(٣)] إنهم عائشون دهرهم في التباس، مائعون تائهون دوماً في ارتكاس، ثم ويوم المعادَ لاتَ حين مناص، والله يعلم ما تكن صدوركم من وسواس:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾:

إن مصطنعي الآلات أدرى من سواهم بأسرارها وخباياها، رغم أنهم

(١) سورة الروم، الآية: ٢٧.
(٢) سورة الرعد، الآية: ٥.
(٣) سورة الإسراء، الآيات: ٤٩-٥١.

لم يصنعوا موادها، وإنما اصطنعوا منها صورها، فما ترى إذاً لخالقها؟ الذي خلق موادها وصورها: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[(١)]؟:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ فيما خلقناه «و» نحن «نعلم» منه كل سر وعلانية، ومنه ﴿مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ حيث نفسه مِن خلقنا، فإذا هو عارف بوسواس نفسه وليس بخالقها، فماذا تظن إذاً بخالقها؟ إنه أقرب إليه منه نفسه!: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ قدرة وعلماً ﴿مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾: الذي يجري فيه دم الحياة!.

فحبل الوريد هو العرق الذي يسمى حبل العاتق، وريدان عن يمين العنق وشماله، فالله يعلم غيب الإنسان ووسواس إضماره، ونجى أسراره، وأقرب منه وأكثر، فالعالم بخفايا قلب الإنسان أقرب إليه من عروق حياته قرب العلم والإحاطة، وليس قرب المسافة والمساحة.

فلا أقرب إلى الإنسان من خالقه، قرب القيومية العلمية وفي القدرة، مهما بعدت ذاته عن ذاته وصفاته عن صفاته - إذ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[(٢)] فهو - إذاً - قريب إلينا في بعده، وبعيد في قربه، داخل في الأشياء لا بالممازجة، كدخول شيءٍ في شيءٍ، وخارج عن الأشياء لا بمزايلة ومجانبة، كخروج شيءٍ عن شيءٍ، بل هو داخل علماً وقدرة، خارج ذاتاً وصفات، باين الأشياء بينونة ذات وصفة، لا بينونة عزلة! فـ ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾: إلى روحه وجسمه، إلى عقله ونفسه، إلى وسواسه وهواجسه بأسبابها، وإليه كله ﴿مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾: وريد الحياة، ولكونه أقرب فـ ﴿ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾[(٣)] فهو أقرب إليه من قلبه، وهو يعلم منه أخفاه، ولا يعلم الإنسان إلا سره لا أخفاه: ﴿فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾[(٤)] فالسر ما يكنه من خابية، وأخفى منه ما لم يكنه بعد، ما سوف يكنه ولا يعلم قبل!.

---

(١) سورة الملك، الآية: ١٤.
(٢) سورة الشورى، الآية: ١١.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.
(٤) سورة طه، الآية: ٧.

إن الوسوسة: الخطرة الرديئة - وأصلها صوت الحلي والهمس الخفي - هي أخفى صنوف العلم: الخطرة النفسانية الخفية، ومنها الوسوسة في المعاد، فالله الخالق يعلم نشأة الوسواس كلها ﴿مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ فالنفس توسوس نفسها وتوسوس العقل بأسباب وآلات، قد تجهل هي تلكم الأسباب، ولكن الله يعلمها بمواليدها، فلم يقل (و يعلم وسوساتها) وإنما ﴿مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ إيحاءً بعلمه بكلا السبب والمسبب، فإن الباء هنا للآلة أو السبب: ما توسوس بسبب نفسه.

ولقد وسوست أنفس هؤلاء الناكرين عقولهم المعقولة بالهوى، وقلوبهم المقلوبة عن الهدى، وسوست في أمر المعاد أم ماذا؟ وترى بماذا؟ بالوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس، فما لم يكن قبول من النفس، لم تحصل وسوسة، أو لم تؤثر أثرها، فالشيطنات بأنواعها هي آلات يتذرعها النفس لحصول الوسوسات ومفعولاتها، والله يعلمها بأسبابها: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾!

إن هناك في جسم الإنسان حبالاً شتى تنقل الدم إلى شتى أجزائه وأعضائه وهي كلها تتصل بحبل الوريد: الحبل الأم الكائن في الحلقوم، فإذا قطع انقطعت الحياة، إذاً فهو أقرب شيء إلى حياة الإنسان، ولكن الله الخالق للحبل الوريد والإنسان، هو أقرب إليه من حبل الوريد، من نفسه، من حياته، من كيانه كله -: إليه

﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾﴾:

وترى أن «إذ» هنا ظرف لـ ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ...﴾؟ والمتلقيان هما الملكان الحفيظان على الأعمال بأمر الله، فكيف يكون تلقيهما ظرفاً لا قريبة الله؟ ثم ولا ظرف لها خاصاً، فإنها لزام ربوبيته ومربوبيتهم، دون اختصاص لها بحال! أم أن تلقيهما يعلل أقربيته بـ«إذ» على التعليل؟ والله أجلّ وأعلى أن

يعلل أقربيته إلى خلقه، بمن يؤمِّره لتلقي الأعمال من خلقه؛ وليس التلقي أيضاً دليلاً على أقربيته! أم إنها ظرف لـ «اذكر» وأمثالها، ولزامه ذكر الواو قبل اذكر، وكما في أضرابه! وإن تقديره يخص ما لم يكن هناك مظروف آخر مذكور.

أقول: علّها ظرف لما سيقت لها الآيات من ذكرى الناكرين عن غفلتهم: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا...﴾[(1)]: يقال لهم هذا عند نفخ الصور بعدما تلقى المتلقيان أم ماذا؟

وترى من هما المتلقيان؟ وماذا يتلقيان؟ وكيف؟

.. إنهما من الحافظين علينا، الكرام الكاتبين حفظ الأعمال عن الضياع: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾[(2)] وما حفْظهم للأعمال والأقوال أم ماذا، إلا تلقِّيهم إياها أنفسها: أصوات الأقوال وصور الأعمال، شاهدين لها في الدنيا وعليها في الأخرى، وليست كتابة الأعمال تلقياً لها، ولا أن فيها حجة على عامليها، وإنما هي هي أنفسها بحيث إنهم سوف يرونها كما ألقوها وتلقاها حفظتها: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾[(3)].

هذا! ولكننا لسنا في تلك العجالة التي تقصر تلقي الأعمال بأمثال الأشرطة المسجلة لكل كلمة أو حركة أو نبرة، فإنها هزيلة داثرة، وإن كانت هي تقرب لنا تصوراً أكثر وتصديقاً أوفر بانعكاس الأعمال، فتمثُّلها يوم تقوم الأشهاد، فلنكن في يقظة دائبة، وحذرة دائمة عما يسجل علينا الحفظة بأمر الله، في سجلات أعضائنا والأرض بجوها ومادتها أم ماذا؟ واقعة رهيبة تحذِّرنا فتحضرنا ليوم الطامة الواقعة!.

---

(١) سورة قٓ، الآية: ٢٢.
(٢) سورة الانفطار، الآيات: ١٠-١٢.
(٣) سورة الزلزلة، الآية: ٦.

وإنهما «الملتقيان. عن اليمين» قعيد ﴿وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾: كلٌّ مرتكن في ركنه، قاعد في مقعده من الإنسان، قعد أو مشى أو قام، فعلَّ القعود هنا إيحاء إلى أنهما لا يقومان عن الإنسان، فهما لزامه أيّاً وأينما كان، وكما أن لكلٍّ طائراً في عنقه لزام: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾[1] كما وأن أرضه وجوَّها يلزمانه فلا يفلتان، وهما من مسجلي أعماله وأقواله: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾[2] فيا لها من شهود رقباء، هم شهوده هنا وهناك بأمر الله لا يقصرون، فأنى تؤفكون وتصرفون؟!.

وترى اليمين والشمال هما الجهتان، فلا حفيظ من بين يديه ومن خلفه، أو من فوقه وتحته؟ و﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ﴾[3]! ثم ومجرد حضور الشهود كاف في تلقي الأعمال دون حاجة إلى جهات! إذاً فما هما من الجهات وكما هنا، وإنما جانب الخير لقعيد اليمين وجانب الشر لقعيد الشمال، كما العقبات تعقبه فيما تعقب من بين يديه: الجانب المستقبل دنياً من الحال - وعقبى، ومن خلقه: دنيا الماضي إلى الحال، من خير لقعيد اليمين، ومن شر لقعيد الشمال، فهما لديه دون اختصاص بجانب أو حال:

﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾:

﴿مَّا يَلْفِظُ﴾ اللّافظ ﴿مِن قَوْلٍ﴾ حسن أو سيِّىء ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾: يراقب حافظاً وهو ﴿عَتِيدٌ﴾: معَدٌّ للزوم الأمر، فالرقابة هنا هي شهادة تلقي الأعمال، والعتاد شهادة إلقائها يوم يقوم الأشهاد.

---

(١) سورة الإسراء، الآيتان: ١٣، ١٤.
(٢) سورة الزلزلة، الآيتان: ٤، ٥.
(٣) سورة الرعد، الآية: ١١.

فليس الرقيب العتيد - فقط - الملكان، أو أن قعيداً منهما رقيب والآخر عتيد، حيث النص ﴿رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ لا «رقيب وعتيد» إذاً فكل منهما رقيب عتيد: كما هو يتلقى الأعمال في الأولى، كذلك يلقيها في الأخرى، كما الله رقيب عتيد كأوّل وآخر وأفضل رقيب عتيد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(١) ﴿وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾(٢) كما وأنبياء الله رقباء شهداء: ﴿. . . وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾(٣) كذلك والأرض بأجوائها، والإنسان بأعضائه، كلٌ رقب عتيد، رقباء، عتداء أربعة، هي ﴿مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾(٤): صادرين في حفاظهم من أمر الله، وهو رقيب الرقباء وعتيد العتداء.

إذاً فـ ﴿رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ يشمل كل شهيد على الأعمال من الله وخلقه، رقابة: شهادة التلقي، وعتادة: شهادة الإلقاء، للأعمال والأقوال أم ماذا؟ إيحاءً إلى كمال العدل في الشهادة: أن المتلقي هو الملقي بعلم وعدل، فالشاهد الذي يلقي الشهادة دون تلقٍّ، أو يتلقاها دون إلقاء، ليست شهادته شهادة، وهي مردودة دون هوادة! فمن يفسر ﴿رَقِيبٌ﴾ بأحد المتلقيين و﴿عَتِيدٌ﴾ بالآخر، فقد أتى بتفسير عجيب، خارج عن أدب اللفظ، حيث لا عطف: يثني كـ «أو»، وعن أدب المعنى، فكهذا تلقٍّ لا يغني، ثم ولا معنى أن يتلقى قعيد الخير ثم يلقيه قعيد الشر، أو يتلقى قعيد الشر ثم يلقيه قعيد الخير: مثلث الانحراف عن التفسير الحق! ثم و: ﴿مَّا يَلْفِظُ﴾ هنا كنموذج ساذج عن الأفعال، لا أنه - فقط - المراقَب عليه المعاتَد، فإذ لا تضل

(١) سورة النساء، الآية: ١.
(٢) سورة هود، الآية: ٩٣.
(٣) سورة المائدة، الآية: ١١٧.
(٤) سورة الرعد، الآية: ١١.

لفظة قول، فكيف تضل أية فعل، فلا لفظة ولا لحظة ولا فعلة بل ولا نية تضل عن رقيب عتيد.

وهكذا يعيش المكلف في رقابة شديدة عتيدة حتى ينقضي عالم التكليف:

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾:

إن واقعة الموت راحة للمؤمنين، وسكرة وزعجة للفاسقين، الذين عاشوا حياتهم سكرات: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[1] سكرة فردية لفرادى الأموات، وجماعية للجماعات كما في النفخ الأول: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾[2].

وترى كيف يصبح الموت للغافلين سكرة وهو قفزة إلى حياة أخرى؟ إنه سكرة لانشغال سكراته بنفسه عما سواه، في رجفة مفاجئة فاجعة تدب في الأوصال، تفصله عن حياة أنيسة بين شغل وأهل ومال، إلى حياة بئيسة تعيسة في أهوال وأوحال، فهل هناك صيغة أدل من ﴿سَكْرَةُ﴾ على هذه الحال؟!. ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾[3] غمرات في سكرات!: الكروب التي تتغشى المحتضر عند الموت فيفقد تمييزه، ويفارق معه معقوله وكأنه سكران الخمر! إلا أن هذه منعمة منعشة وتلك مؤلمة موحشة!.

وإنها «جاءَت» دون حاجة لأن تجيئها أنت، فإنك في الموت محتار لا مختار، وحتى الموت الذي أنت تختار، فالله هو المميت لا أنت، مهما قدمت نفسك لأسبابه، ولست بمقدمها - فـ﴿ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾!

وإنها ﴿سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾: بسبب القضاء الحق فإنه من قضاء الله،

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٧٢.

(٢) سورة الحج، الآية: ٢.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٩٣.

وبإرادة الحق، فإنه من فعل الله، وهي تصاحب إرادة الحق: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا...﴾[١] ومن ثم الجزاء الحق في رحاب الحق![٢]!

و﴿ذَٰلِكَ﴾: البعيد عن رغبتك، الشديد في رحلتك ﴿مَا كُنتَ﴾ طول حياتك الميتة ﴿مِنْهُ﴾ - فقط - لا سواه[٣] ﴿تَحِيدُ﴾ حيد الفرار.

فلا يحيد الحائد عن الحق إلا عن الموت وبواعثه، لأنه ختام شهواته، أو بداية عقوباته، وأما المؤمن، فالموت أُنسه، وهذه الحياة وحشته، وعلى حدّ قول الإمام علي عليه السلام: «والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمه» فإنه يأنس بالموت أُنسه بالحياة، حيث بعده حياة أنيسة رفيقة إذ ينتقل إلى الرفيق الأعلى.

ثم ومن سكرة الموت ورحلته، إلى رحلة الحشر وهولته:

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾﴾:

علَّها هي النفخة الثانية الإحياء، أم هي والأولى الإماتة، وقد يعبر عن نفخة الإحياء بنقر الناقور: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ...﴾[٤] فالصور بوق لا كالأبواق، كما ونفختها لا تشبه النفخات[٥] فإنها صيحة الحق والصيحة بالحق في نداء من مكان قريب، كما وتأتي من قريب: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾﴾[٦] ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾: وعيد العذاب على الكافرين، كما هو وعد الثواب للمؤمنين.

---

(١) سورة قٓ، الآية: ٢٢.

(٢) فالباء في «بالحق» لكِلا السببية والمصاحبة - ثم الأولى أعم من العلة الموجدة والعلة الغائية - فإن الغاية من الموت أيضاً حق: تأمل.

(٣) يستفاد الحصر من تقديم الظرف «منه» على فعله «تحيد».

(٤) سورة المدّثر، الآية: ٨.

(٥) راجع سورة النبأ ج ٣٠.

(٦) سورة ق، الآيتان: ٤١، ٤٢.

﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ۝٢١﴾:

إنه لا بد لكل نفس هناك من سائق وشهيد، إلا من هو شهيد على كل نفس، سائق يسوقها إلى محشرها، وشاهد يشهد عليها بعملها، فإما إلى جنة أو إلى نار: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ...﴾[1] ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ...﴾[2]. وأياً كان فـ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ﴾[3] سوقاً إلى جزائه العدل أو الفضل بربوبيته، إلا أن آية ﴿كُلُّ نَفۡسٖ﴾ سيقت لأهل النار.

وليس الشهيد إلا عند سوقهم فرادى، للشهادة والحكم ﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ...﴾ ومن ثم السائق ولا شهيد في سوقهم الجماعي زمراً: «وسيق.. وسيق.. زمراً».

هنا سائق واحد يسوق للمحاكمة عند الواحد الجبار، فهل الشهيد أيضاً واحد وهناك شهودٌ من شاهديه القعيدين، ومن نبيِّه.. ومن أرضه وفضائها!

علّها تعني هنا شاهد الشمال، لأنها تعني أصحاب الشمال، فليس لهم يمين حتى يشهد لهم قعيد اليمين أو شاهد اليمين، فليس لأصحاب اليمين شمال حتى يشهد عليهم قعيد الشمال.

أو أن «شهيد» هنا تعني جنس الشهيد، الشامل لسائر الشهداء، كما يشمل قعيدي المتوسطين بين أصحاب الشمال وأصحاب اليمين، فكلٌّ يتلقى ما يلقى من صالح وطالح.

ترى وبعد لُقيا الشهادة لأصحاب الشمال، ماذا يرون، وماذا يسمعون؟ إنها كلمة النبهة القارعة:

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٧٣.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٧١.
(٣) سورة القيامة، الآية: ٣٠.

﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾:

آية فريدة غُرة، تنبه الغافلين الشاردين الذين هم كانوا في غِرة، فما هو «هذا» الذي كانوا منه في غفلة، فكشف الله عنهم يومذاك غطاء الغفلة؟.

في الحياة الدنيا أغطية تغفل الإنسان عن الآخرة، وعن ملكوت أعماله وحقائقها، وعن شهادات الشهود الذين يتلقون تلك الأعمال، فطوع الهوى، والإعراض عن الهدى تغطي عنهم وتغطيهم عن الحقائق الغيب، الواقعة يوم الدنيا، الظاهرة لمن أبصر بها، الخفية لمن أبصر إليها: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[١].

إن مثلث الغطاء في الحياة الدنيا، ليس إلا عن الواقع فيها، وإلا فلا غفلة ولا غطاء عن غير الواقع فيها، مهما وقع بعدها، فليكن واقعاً فيها حتى تصدق الغطاء، وترى الواقعة الآخرة واقعة في الدنيا، حتى تصدق فيها الغطاء والغفلة عنها؟ حقاً إنها واقعة بإحياء الموتى فيها فتصبح أحياء ترى كما مضى: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾[٢]: واقعة بآياتها الشواهد.

وأما شهادات الشهود يوم الدنيا وإلقاءها في الأُخرى، فهي من الغيب، والمتقون يؤمنون بالغيب، فيؤمنون بأخبار الغيب، وهناك الشاشات التلفزيونية وسائر المصورات ومسجلات الأصوات، هي شهود صدق تصدق الشهود الإلهية وأحرى.

وهناك حقائق الأعمال كائنة ظاهرة للبصائر، مهما خفيت عن الأبصار، بصائر مشرقة نافذة حديدة بنور اليقين، تدرك ما أخبر به الله: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[٣] نار لا ترى هنا إلا بنور، ثم يراه هناك من لم يجعل الله له من نور.

---

(١) سورة الروم، الآية: ٧.
(٢) سورة ق، الآية: ١١.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٠.

إن المهم هنا ألاَّ يصبح الإنسان غافلاً عن الأخرى وشهودها، وحقيقة الأعمال المشهود بها، فلا يكون في غطاء الغفلة عن ﴿هَٰذَا﴾ المثلث؛ لا سيما الزاوية «الاخرى» كـ ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾[1] ذلك! وإن لم يكونوا في غطاء الكفر والتكذيب والنكران، فما فائدة التصديق علماً ما لم تعتقد؟ أو العقيدة ما لم تتذكر، وإن كان مصب آية الغطاء غطاء النكران.

وكما الغطاء دركات أسفلها الجحود، كذلك الكشف درجات أعلاها الشهود، ولحد: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً» كما عن علي أمير المؤمنين عليه السلام!

فهناك في الأخرى تُكشف أغطية الكفر، فالكافر يرى الحق كما المؤمن، فتزول عنه اعتراضات الشكوك، ومشبهات الأمور، فيصدق بما كذب، ويقر بما جحد، ويصبح كأنه نفّذ بصره بعد وقوف، وأحدَّه بعد كلال، ولكنها له حسرة ونكسة، وللمؤمن جرة ورحمة، كشف يشمل أهل الحشر أجمع إلا من لم تكن له أية غطاء:

وتكشف أغطية حق اليقين وعين اليقين، لمن كان في غطاء عنهما، وعلم اليقين لمن كان في شك، فلا تبقى أية غطاء، إلا غطاء ذات الله.

إن الأبصار البصائر هنا عليلة كليلة إلا من هدى الله فهي لهم نافذة حديدة ترى الحقائق الغيب، ومن ثم في الأخرى تصبح الأبصار كلها حديدة نافذة، لا تخفى عنها خافية ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ ولكنما المؤمن يحشر ببصر حديد فلا جديد! ومهما جدِّد له بصر فهو أنفذ وأقوى، رحمة له، إلا أن حديد الكافر في الأخرى له عذاب شديد! إذ كان عنها أعمى، مهما يحشر أعمى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١٠١.

عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾[١] : أعمى البصر وحديد البصيرة.

فالغطاء المكشوف هنا هي عن البصيرة لا البصر، كيف وهو فيه أعمى؟.

إن هناك غطاءً عام، ليس للإنسان في تحصيله سبيل، ولا هو مكلف في كشفه كسائر التكليف، هي غطاء الحياة الدنيوية، مهما كان الإنسان مؤمناً صالحاً إلا من أخلصه الله، وهي غطاء عن الذكر والمعرفة التامة، وعن رؤية الحقائق كما هي، فهي تكشف بالموت شيئاً ما، ثم تكشف في الآخرة تماماً، فتصبح الحقائق له مكشوفة الحجب اللهم إلا حجاب الذات الألوهية.

ومن ثم أغطية خاصة من كفر ونكران نتيجة التكذيب والعصيان وهي أسفل دركاتها، كما آية الغطاء تعنيها، ومن غفلة ونسيان فعصيان على دركاتها، وهي سوى الأسفل، والكل تكشف يوم يكشف عن ساق فيدعون إلى السجود فلا يستطيعون.

فكشف الغطاء للمؤمن نور وبهاء، وبشرى وجلاء، ولغير المؤمن نذارة وحسرة فابتلاء، فأين كشف من كشف؟ وأين غطاء من غطاء؟.

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَـٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾﴾:

هو قرينه الشهيد القعيد عن شماله إذ لم يكن له يمين، دون سائقه إذ ما هو له قرين، ولا شيطانه إذ هو يلقى معه في النار، فكيف يؤمر أن يلقيه في النار، وهو العتيد: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ : فعقيد الشمال رقيب عتيد كما رقيب اليمين رقيب عتيد، فقرين الشمال يقول يوم الحشر

(١) سورة طه، الآية: ١٢٤.

المحاكمة: ﴿هَٰذَا﴾ الذي أشهد به من طالحات ﴿مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ حاضر مهيأ، دون حاجة إلى إحضار وأعتاد: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا. . .﴾[(١)].

ومن ثم يصدر أمر الجبار بإلقاء المجرمين في النار، جهنم يصلونها وبئس القرار:

﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾﴾:

وترى من هما الملقيان هنا؟ أهما الشاهدان؟ ولا شغل هنا لشاهد اليمين! أم هما ملكان من زبانية النار؟ ولا شاهد له ولا سابقة ذكر! أم شاهدان من غير الملائكة من نبي وولي؟ فكذلك الأمر! أم هما قعيد اليسار: السائق والشهيد، : ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ علّهما هما، حيث الصيغة اللفظية، والصياغة المعنوية، تؤيدانه، وقد يكون السائق هو شاهد اليمين وإن لم يكن له يمين، كشاهدٍ عدل لسلب اليمين، ثم يؤمر هو وشاهد اليسار: ﴿أَلْقِيَا. . .﴾! أو أن السائق مؤمر للسوق غير شهيد.

ولأن الشهيد - في وجهة عامة - تشمل كل شهيد، فأحرى أن يكون الرسول ﷺ شهيداً ومن يحذو حذوه، إذا كان الملك الذين دونهم شهداء، فليشمل «شهيد» - هنا - رسول الله ﷺ ومن ينحو منحاه، وأما أعضاؤه الشهود، وفضاؤه الشهيد، فهما له حاضر عتيد، لا حاجة إلى مجيئهما، والأعضاء بأصحابها تُلقى في العذاب الشديد ولا تلقي، فإنما دور الشهادة ثم الإلقاء في النار لشهيد ملائكي وبشري.

﴿أَلْقِيَا . . . كُلَّ كَفَّارٍ﴾. كثير الكفر والكفران «عنيد» كأنما العناد لزامه، فلا حق إلا وهو له عنيد ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾: معنوياً في هدي الناس،

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٠.

ومادياً في إمدادهم بمال أم ماذا؟ ﴿مُعْتَدٍ﴾: على الله، إذ جعل معه إلهاً آخر، وعلى خلق الله، إذ هو بعد منعهم الخير يوجه لهم كل شر ﴿مُّرِيبٍ﴾ بأقواله وأعماله، يجعل الغافلين حيارى فضُلّالاً، يسلك بهم غياً وضلالاً.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾:

فأم البلاء والضلالة لكل كفار عنيد هو الشرك بالله، الذي يخلف ثالوث: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ﴾.

﴿۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾﴾:

وهنا الكفار العنيد يتهم قريناً له أطغاه: حمله على الطغوى، ومنعه عن التقوى، وطبعاً ليس هو قرينه الأول القعيد عن يساره الشهيد، فإنه شهيد عدل كريم ومن عمال رب العالمين، يؤمر بإلقاء الشهادة، ثم وبمن معه من سائق، بإلقاء المشهود عليه في النار، إذاً فقرينه الثاني شيطان يقابل قرينه الأول: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَـٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾[١]: من شياطين الجن والإنس: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾[٢] فهذا القرين يقرنه بعد يوم الدنيا في يوم الدين:

إنه يدافع عن نفسه ويدفع تهمة الإطغاء: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَـٰكِن كَانَ فِى

---

(١) سورة الزخرف، الآيات: ٣٦-٣٩.

(٢) سورة الصافات، الآيات: ٥١-٥٥.

ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ﴾ ولقد صدق الكاذب هنا بعض الصدق، أن عملية الإطغاء ليست منه فقط، فلو لم يجد المضلل ظرفاً صالحاً للتضليل لم يحصل ضلال، فالضلال البعيد عن الهدى ظرف صالح للمزيد، وليس لأصل الضلال!: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

فـ ﴿مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ تعني: ما حملته على الطغوى إلزاماً وتسييراً، وإنما دعوته إليها تزييناً وتخييراً، فهما إذاً يختصمان، فيرد أمر الجبار: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾ إذ لا يجوز الخصام عند الملك العلام - حال: ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾:

للمضلين ألا يُضلوا، وللمضلين ألا يستضلوا، فإذ أضل أولاء وضل هؤلاء فهما في العذاب مشتركان: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾[2].

﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾:

والقول هنا يعني - فيما يعني -: كلمة العذاب: ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾.

إن تبدّل قول العذاب من الله - أياً كان - هو كثير، فإن العبيد كثير، والله هو العلي العلام الكبير، فاليسير منه كثير، إن ظلماً وليس منه، أو عدلاً وفضلاً وهما منه، فلا يعني - إذاً - نفي الظلم الكثير ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ﴾ هنا - إثبات اليسير.

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٢.
(٢) سورة الصافات، الآيات: ٣٠-٣٣.

فلو لم يقدم الله قولاً بالوعيد ثم عذب، كان فيه ظلم كثير، فإنه إغراء بالجهل، فأخذ على غرة وجهالة! ولو لم يعذب بعدما لا يقدم فهو ظلم كثير، بالنسبة للعبيد الذين عاشوا التقوى بحرمان شهوات الهوى، فالتسوية بين الأبرار والفجار ظلم كثير! ولو قدم قول الوعيد العدل ثم خالفه إلى مزيد فهو ظلم كثير! أم لو عذب الضالين دون المضلين، أو المضلين دون الضالين فهو ظلم كثير! أم لو خالف قول الوعيد العدل إلى الجزاء غير الوفاق - أياً كان - فإنه ظلم كثير: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ لا في تقديم القول بالوعيد، ولا في تحقيق الوعيد، فهو قول عدل ووعيد عدل، دونما ظلم لا كثير ولا يسير!.

ومن القول المقدم بالوعيد: ﴿فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ ۝٨٤ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٨٥﴾[1] فما يبدل هذا القول لدى الله، فإنه يدخل كثيراً من الجن والإنس في الجحيم، فما نصيب الجنة إلا قليل: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ﴾[2] فالجحيم تُملأ بهذا الكثير ثم تقول: ﴿هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾؟:

﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ ۝٣٠﴾:

حوار تحير العقول، تمثل لنا تحقيق حق الوعيد، لحدّ كأن جهنم تتحدث بما تكدس من أجساد المجرمين فوق بعضهم ركاماً، ويا له من مشهد رهيب!

فليس ملؤ جهنم أن يجتمع فيها أهلوها ماشين أو جالسين وقائمين أو نائمين، وإنما ﴿هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾ حتى تكدسهم على بعض وتركمهم مع بعض بما يركم الله: ﴿وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ﴾[3]:

---

(١) سورة ص، الآيتان: ٨٤، ٨٥.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٣٧.

فهم - إذاً - ركام في النار، في دركاتها كلها، ليس لهم في سجن الجحيم مجال التجوال، ولا أي مجال، فإنها لا تزال تَقُولُ: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾؟ وما مزيد المليء إلا ركاماً هو الملؤ الأكثر، فهنا التجاوب بين آيات المليء وآية المزيد، إذ تفسرهما آيات الركام!.

ومن ثم نرى هناك على الضفة الأخرى جنة مزدلفة لأهلها المزدلفين إليها غير بعيد:

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾:

وقرّبت الجنة للمتقين حال أنها غير بعيد، فهي على قربها لهم تزلف لهم تقريب التكريم التعظيم، كي لا يتكلفوا طي مسافة إليها على قربها، إذ تكلفوها يوم الدنيا فاقتربوا إليها بما يقربهم إلى الله زلفى.

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾﴾:

وعد حنون لكل إثم الأوبة: الرجوع إلى الله، دائب التوبة عن معاصي الله، يدأب في الحفاظ على حرمات الله فهو يخشى الله في غيبه، ويأتيه بقلب أواب منيب:

﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾:

فمن مواصفات الحفيظ خشية الرحمن بالغيب: بغيب الرحمان وهو دائب الغيب - فالمتقون يؤمنون بالغيب - ويغيب عباد الرحمن، فليست خشيتهم منهم حتى يخشوه - فقط - بمحضرهم، وأنما يخشونه في غيبهم، ففي حضورهم أولى وأحرى!. كما ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ من مواصفات الأواب، فلا يتقلب بقلبه إلا في مفازات الإنابة إلى الله، فحياته - إذاً - خشية الرحمن بالغيب بقلب منيب، حتى «جاء» إلى دار كرامة الله، للقاء الله ﴿بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ إلى الله، عاقبة حسنى بعد حسنى الأولى!.

ثم ويستقبل هكذا جائين بذلك المجيء قولة كريمة رحيمة من الرحمن الرحيم:

﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ٣٤﴾:

ادخلوا الجنة «بـ » سبب «سلام» قدمتموه لأنفسكم «بـ » مصاحبة «سلام» مدخر موعود لكم - «بـ »: في «سلام» خالد ليس له انفصام في دار السلام والله هو السلام، فـ «ذلك» البعيد المدى، العظيم المدى هو ﴿يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ﴾!

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ ٣٥﴾:

بعد المشيئة غير المحددة التي - طبعاً - ليست لها نهاية؟ بل إنه فوق اللانهاية، فكل لا محدود عند خلق الله، محدود في حساب الله، وإن لدى الله للمتقين ما يناسب كرامة الله، وهو ﴿مَزِيدٞ﴾ عن ﴿مَّا يَشَآءُونَ﴾ فالله عنده كرامة «مزيد» يؤتيهم رغبة وإدراك «مزيد» عما هم يشاؤون.

وترى أن «مزيد» يختص بأصناف ما يشاؤون، فليست العطية على حد المشية؟ وهو تحديد بلا دليل، واطلاق المزيد يحلله عن هذا التحديد!

أم أنه يعمه وما لا يشاؤون مما لا يعرفون، لأنه من كمال أو قمة معرفية فوق ما يعرفون، فكيف يهرفون؟ بما لا يعرفون؟ إن المزيد يعم ما لا تتعلق به مشيئتهم، فيؤتيهم مزيداً بعدما يعرفهم، وهذا هو الحق الذي يصدقه إطلاق ﴿مَزِيدٞ﴾ وتصدقه كرامة الله التي لا تعد ولا تحد ﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾[1].

فهنا في الجنة للمتقين مزيد، حيث يجدون الله في رحمته فوق ما يشاؤون وكأنه يقول لهم ﴿هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾؟.. وهناك في النار ﴿هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾؟ فأين مُزاد من مزاد، وأين مزيد من مزيد؟!

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٢.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾﴾:

ذكرى سريعة خاطفة إلى أعماق من تاريخ الغابرين المستكبرين، تهين بطشة الحاضرين، ولقد كانوا أشد منهم بطشاً على الحق وأهله، وبطشاً على الشعوب الضعيفة وطيشاً في الباطل وأهله، فهم لبطشهم وطيشهم ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ تقلباً في البلاد ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾(١) وتنقباً فيها عن أسباب الحياة، في توسعية ظالمة فاتكة، استضعافاً لمن في البلاد، واستهانة لهم فاستعماراً واستثماراً، بفرعونية جبارة، وقارونية غدارة!.

فكم أهلكنا منهم بصنوف الهلاك - فـ ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾؟ لهم أو لكم من هلاك في الأخرى، ولا محيص - أحياناً - في الأولى، و«هل محيص» لكم؟ وليس لهم وهم أشد منكم بطشاً، كلا! إنه لا حيصة عن عذاب الله، ولا هيصة في حكم الله، ولا جزع ينجيهم عن قضاء الله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾(٢) ﴿أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾(٣).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾:

إنه القلب الحي، قلب الإنسان كإنسان، القلب البصير، أو السمع الملقى إلى القلب دنواً من سماعها وميلاً إلى قائلها، العائش كل مسموع فيه الذكرى، الذي يتذكر من «ذلك»: الذكريات، من مصارع الغابرين، وبرهنات آفاقية وأنفسية أم ماذا، الآيات الذكريات المشهودة ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ فالذكرى لا تفعل فعلها في النفوس إلا بقلوب حية واعية، أو

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩٦.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٢١.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٢١.

آذان بأسماع صاغية، فمن يتركهما أو يتغافل عنهما فإنه من أصحاب السعير: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[١].

إن السير النابه الهادف المقصود في آيات الله، في الأرض بما فيها من آيات: تاريخية غابرة وجغرافية حاضرة، إنه لمما يكوّن قلباً عاقلاً وأذناً سامعاً: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[٢] والقلوب العميانة المطبوع عليها لا تسمح للآذان بالسمع: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[٣] ولكنما القلوب الضعيفة، غير القادرة على العقل الكافي، هي تتمدد بالسمع الملبّي إلى كلمات الحق، وأما القلوب الواعية فقلما تحتاج إلى إلقاء السمع إلا إلى ملقيات الذكر الوحي.

في «سورة الملك» يتقدم السمع، لأنه الأقدم للبسطاء الساذجين، والمتحرين عن الحق الناضجين[٤]، وهنا يتقدم القلب - وهو قلب الروح المنتهي إليه لباب العقل - لأنه الأقوم في تلقي الذكرى، ومن ثم السمع، ولكن لا كل سمع، إنما السمع الملقى بحرية وانطلاق، ولكي يتلقى ما يسمعه بلباق، سمع يلقى إلى نبرات الذكريات بإنصات ووعي، كأن صاحبه السمع كله، أو أنه لا يشغل سمعه بشاغل غيره، ثم يستخلص ما يسمعه بعقله النابه إلى قلبه فيحيى بحياة طيبة.

فمن كان له قلب ولكنه مقلوب، أو سمع ولكنه لا يلقى إلى المسموع، بل يلغى، أو يشغل بما يلهيه، إنه هو الميت بعينه، فلا يتذكر بأية ذكرى،

---

(١) سورة الملك، الآية: ١٠.
(٢) سورة الحج، الآية: ٤٦.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٠٠.
(٤) راجع ج ٢٩ ففيه تفصيل البحث عن السمع والعقل.

ولا يكون شهيداً لأية ذكرى، والدنيا كلها ذكرى، يعيشها كما الأموات، فلا تعيّشه فإنه من أصحاب القبور: و﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾(١) ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾(٢) -: ملائكية وبشرية أم كونية - تطلب إلقاء السمع بقلوب واعية، فأما الملغون السمع: الذين ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾(٣) أو المعزولون عن السمع: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾(٤) فهم موتى لا يتذكرون! ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾(٥): و﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾: ينبض بحياة الذكرى والعقل «أو» وعلى أقل تقدير، وإعتاداً لحياة قلب منير ﴿أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ الواعي ﴿وَهُوَ﴾ بروحه وقلبه ﴿شَهِيدٌ﴾ حاضر عتيد: لتلقّي ما يسمع، فتحويله إلى قلبه ليستزيد هدًى ونوراً!

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾:

فترى - إذاً - يمسنا من خلقهم الأول من لغوب: تعب ونصب - فنعيى به عن خلقهم الثاني؟ ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؟ وما خلقهم بجنب السماوات والأرض إلا كقطرة في فلاة في: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٦).

كأن ناكري الخلق الثاني المُعاد ينكرون الخلق الأول فهم في ريبهم يترددون؟ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ

(١) سورة فاطر، الآية: ٢٢.
(٢) سورة المرسلات، الآية: ٥.
(٣) سورة الشعراء، الآية: ٢٢٣.
(٤) سورة الشعراء، الآية: ٢١٢.
(٥) سورة الفرقان، الآية: ٤٤.
(٦) سورة غافر، الآية: ٥٧.

﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[١] أو أنه لغب من الخلق الأول عاجزاً؟ ولم يمسه في خلق السماوات والأرض وهو أكبر من خلق الناس، فهل يمسه - إذاً - من خلق الناس من لغوب، ولكي يعيى لاغياً عن الخلق الثاني؟

وهناك في التوراة نجد فرية اللغوب في خلق السماوات والأرض في ستة أيام، فآية اللغوب، بضمن ما هي تنديد بالمشركين في زعم اللغوب، وما سمعناهم هكذا زاعمين. إنها تندد بالذين حرفوا التوراة فاختلقوا فرية اللغوب: «. . .ثم استراح في اليوم السابع».



(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦١.

﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ﴿٤١﴾ يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ ﴿٤٤﴾ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾

﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾:

﴿فَٱصۡبِرۡ...﴾: بعد تمام الحجاج عليهم، وتمام اللجاج منهم، إذاً فلا حياة لمن تنادي! ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ وإلى متى؟ ﴿يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ...﴾ إذ تراهم إلى محشرهم يعذبون، ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ دون جبر عليهم ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ﴾ و«اصبر» تركاً لذكراهم بعد التي ذكرتهم ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ وأما ذكرى الذي لا يخاف وهو عنيد، فلا عليك إلا إتماماً للحجة إيضاحاً للمهجة، ثم لا حجة ولا مهجة.. ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ واستعن لصبرك بتسبيح الحمد لربك، فمهما جرحوا قلبك المنير، وهرجوا خاطرك الخطير، فطمئن قلبك بذكر الله العلي الكبير: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾[1].

ولا راحة عن التعب، ولا إزاحة للنصب إلّا راحة ذكر الله، وكما

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

الرسول ﷺ كان إذا غمه شيء استراح إلى الصلاة، وكان يقول: «وقرّة عيني الصلاة»!

هنا تسبيح بالحمد، وليس الحمد فقط، فإن فيه شائبة التحديد والتشبيه، ولا التسبيح فقط، فعمّاذا يسبح وينزه لولا إثبات صفات؟! فليكن تسبيح بالحمد، أن تحمده كما يليق بذاته، فبحمده تسبحه، كما بتسبيحه تحمده، نفياً مع إثبات، وإثباتاً مع نفي، فإذ تحمده بعلمه فلتسبحه عن علم من سواه، عالم لا كسواه، بعلم لا كسواه، كما في قدرته وحياته كصفات ثلاث للذات، كذلك وسائر الأفعال والصفات.

ولأن الصلاة هي خير موضوع للتسبيح بحمد الرب، وإن لها كفريضة أوقات خصوص، فلتكن الأوقات الثلاثة ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾ هي أوقاتها المفروضة لها وكما في آية أخرى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾[١]:

وعلّه بداية فرض الصلاة أنها كانت ثلاث[٢] ومن ثم الإشارة إلى فرض الظهر في آية أخرى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾[٣] فأطراف النهار تشمل الطرف الوسط «الظهر» كما تشمل طرفي قبل الطلوع وقبل الغروب، وإلّا فلماذا ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ وهما طرفان؟ كما في آية الطرفين، وهما المذكوران نصاً قبل الأطراف، كما و﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾[٤] قد تعني - فيما تعني - العشاءين.

---

(١) سورة هود، الآية: ١١٤.

(٢) الدر المنثور: أخرج الطبراني في الأوسط وابن عساكر عن جرير بن عبد الله عن النبي ﷺ في قوله: «و سبح» . . قبل طلوع الشمس صلاة الصبح وقبل الغروب صلاة العصر.

(٣) سورة طه، الآية: ١٣٠.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١١٣.

ومن ثم التصريح بفريضة الظهر والعشاء أيضاً: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[1] فالظهر هنا هي فريضة الدلوك، والعشاء هي فريضة غسق الليل، ثم قرآن الفجر هنا وقبل طلوع الشمس هناك هي فريضة الفجر، وقبل الغروب هي العصر، و﴿وَمِنَ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ﴾ تشمل فريضة المغرب: تدرجاً في بيان الفرائض اليومية وكما في سائر الفرائض[2].

إن طلوع الشمس وغروبها تحوّل، وإن ظلام الليل بغسقه ثم فجره تحوّل، فلتتحرك أنت بتسبيح الحمد مع تحول الكون، فليشرق قلبك قبل إشراقة الشمس بتسبيح الحمد، ولتجدد فيه إشراقة بعد غروبها، ثم ومن الليل إلى غسقه أم ماذا؟ تماشياً مع الكون في تسبيح الحمد، وعند مظاهر التحول ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ دبر كل صلاة، وعلّه لتكميل ما نقص منها تطوعاً، من تعقيبات تحمل التسبيح بحمد ربك، أو نوافل ركعات[3].

وبصيغة جامعة فهنا جو للصبر والتسبيح بالحمد موصولاً بصفحة الكون في مختلف مظاهره نظرة الاستماع للمناد من مكان قريب، بعدما سمعتهم ينكرونها من بعيد ومن قريب!:

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٨.

(٢) تجدد تفصيل البحث عند آية الغسق واضرابها إن شاء الله.

(٣) الدر المنثور ٦: أخرج مسدد في مسنده وابن المنذر وابن مردويه عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن إدبار النجوم والسجود فقال: إدبار السجود الركعتان بعد المغرب، وأدبار النجوم الركعتان قبل الغداة.

وفي الكافي بإسناده عن حريز عن زرارة عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: قلت: وإدبار السجود؟ قال: ركعات بعد المغرب. ورواه القمي في تفسيره بإسناده عن ابن أبي نصر عن الرضا عليه السلام قال: أربع ركعات بعد المغرب.

وفي قرب الإسناد للحميري بإسناده إلى إسماعيل بن عبد الخالق قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ركعتين اللتين بعد المغرب هما أدبار السجود.

أقول: على الجمع بين الركعتين والأربع، أن الأولين هما الأفضل، ومن ثم الأخريين.

﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾﴾:

إنه منادي الصيحة الصارخة، حيث ينفخ في الصور وينقر في الناقور! نداءً ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ إلى أهل المحشر أجمع! فللكل منها نصيب على حد سواء، فإنها بمقربة من الكلّ، قد تنفخ في الأحياء لإماتتهم، ومرة أخرى لإحيائهم، والمنادي النافخ في الصور هو الله: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾(١) وإن كانت هناك عامل أو عمال للنداء من ملائكة الله أمّن ذا؟ وهي نداء الدعوة للخروج:

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾﴾:

فهناك سماع جماعي لصيحة الخروج الإحياء يفزع لها أهل الحشر إلا من شاء الله: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾(٢) وكما الأولى تشملهم إلا من شاء الله في صيحة الإماتة: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ...﴾(٣) وممن شاء الله وأحراهم رسول الله ﷺ فإنه لا يسمع الصيحة المفزعة المصعقة إلا أن يستمع كما وتوحي به ﴿وَٱسْتَمِعْ...﴾ استماع لا فزع فيه، و﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ﴾ لا «تسمعون» لكي لا تشمل ﴿مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ حيث هم هنالك آمنون، ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾(٤) ﴿...وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾(٥).

ثم وهذه الصيحة ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ هي: بإرادة الحق، مصاحبة حق الدعوة،

---

(١) سورة الروم، الآية: ٢٥.
(٢) سورة النمل، الآية: ٨٧.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٦٨.
(٤) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٣.
(٥) سورة النمل، الآية: ٨٩.

ويهدف الحق من الجزاء الحساب، فلا ظلم هناك ولا فوضى، فصيحته المفزعة المصعقة حق لهم، إلا من شاء الله، بفضل الله ورحمته.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾﴾:

إحياء مرتان وإماتة مرتان: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾[1]: إحياء للحياة الدنيا ثم إماتة عنها، فهو حي في البرزخ، ثم إماتة أخرى هي عن الحياة البرزخية[2] ومن ثم إحياء للحياة الثالثة الأخرى، فالبرزخية الوسطى لا تحتاج إلى إحياء، فإنها تجرّد عن الحياة الدنيا فانتقال إلى الوسطى، وعلّه هو السر في تقديم الإحياء ﴿نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ هنا، فلو عنى الإحياء - فقط - في الأخرى لكانت الإماتة هي الأولى كما في أضرابها: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾[3].

كما ﴿وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ هو المرحلة النهائية بعد اثنتين واثنتين، بعد الإحياء للأخرى، وكما تشهد لها آياتها الأخرى: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[4].

وترى متى الإحياء مرة أخرى ومن ثم المصير؟:

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾!

يوم تتشقق الأرض - الدافنة لهم - عنهم، وتتكشف عن أجسادهم الرفات، وعظامهم الذرات، التي تاهت في سارب الأرض، تتشقق عنهم

---

(١) سورة غافر، الآية: ١١.

(٢) فالإماتة الأولى تزهق الروح عن البدن الدنيوي ثم هي مستمرة في البدن البرزخي، والإماتة الثانية تزهقها عن البرزخي أيضاً وتصعقها في نفسها كذلك، فالإحياء للأخرى إحياء تام عن الصعقة إلى الحياة الخالدة الأخرى.

(٣) سورة النجم، الآية: ٤٤.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٣٦.

حشراً لهم كما خلقوا أوّل مرة، سراعاً إلى الداع دون بطاء: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾[1] ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾[2] و«ذلك» البعيد البعيد في ميزانكم ﴿حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾: غير عسير، وكل خلق علينا يسير!

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ۝٤٥﴾:

لا أنت - فحسب - تعلم ما يقولون فـ ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾[3] ثم ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ إذاً - وأنا الجبار - لا أجبرهم على ترك ما يقولون، «فـ» لا عليك إلا أمر واحد أن ذكر ﴿بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ مواصلاً في ذكراه، وأما من لا يخاف، فإنما هي ذكرى الحجاج، ثم تقطعها وتعرض عنهم عند اللجاج!: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾[4].

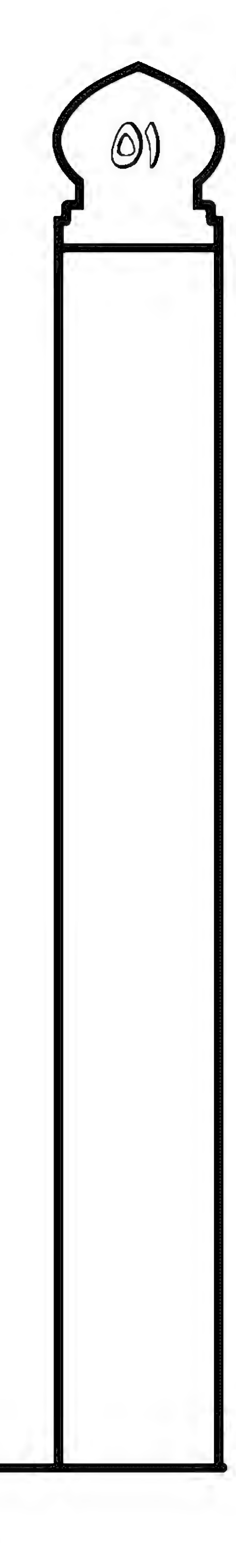


(١) سورة طه، الآية: ١٠٨.

(٢) سورة القمر، الآيات: ٦-٨.

(٣) سورة طه، الآية: ١٣٠.

(٤) سورة يس، الآية: ١١.




# سُورَةُ الذاريات



## مكية - وآياتها ستون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا (١) فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا (٢) فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا (٣) فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ (٦) وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩) قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ (١٠) ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤) إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (١٥) ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ (١٩) وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ (٢٣)﴾

سورة الذاريات تزامل النازعات في آياتها الأولى، إذ تحمل أقساماً بقوات ذاريات فحاملات فجاريات فمقسمات أمراً، توطئة وتوطيداً لصدق مواعيد الرب يوم الدين الواقع، فما هذه القوات الأربع؟ ثم ما هي الصلة الوطيدة بينها وبين صدق الوعد في الدين الواقع؟

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝١﴾:

إطارة وإثارة، من الرياح الذارية لتراب أو هشيمها: ﴿كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾[1] أو المطيرة المثيرة للسحاب بإذن الله: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾[2] ﴿... فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾[3]

ومن الرياح اللواقح، اللاقطة النطف من فحولة النبات، فالمطيرة لها والمثيرة بها بين أنثاها، ولكي تحمل جنينات الثمار، أو اللاقحة أجزاء السحاب المنبثة لتحمل ماء: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾[4] ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ﴾[5] فمن وظائف الرياح الذاريات إزجاء السحاب وقلعها من البحار والأنهار، ومن مختلف أكناف السماء، ثم تأليفها وجعلها ركاماً لكي تحبل بالأمطار: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ...﴾[6] ثم ومنها المطيرة للسفن الحاملات الجاريات.

هذه، ومن ثم قوات ذاريات أخرى لمختلف الذاريات والعناصر والجزئيات كامنة في أصولها أو سواها بما كمنها الله فيها وأمكنها من مختلف التصرفات، أو كائنة في سائر كائنات العالم ملائكية وبشرية أم ماذا؟ صادرة عن الله وبأمره دون فسق ولا نشوز... فلا تختص الذاريات - إذاً - بالرياح، طالما ورد تفسيرها بها عن الرسول ﷺ وعن باب مدينة علمه،

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٥.
(٢) سورة الروم، الآية: ٤٨.
(٣) سورة فاطر، الآية: ٩.
(٤) سورة الحجر، الآية: ٢٢.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ٥٧.
(٦) سورة النور، الآية: ٤٣.

تفسيراً بأظهر مصاديقها، دون المفهوم الواسع الذي تسعه اللفظة، مهما لم تسعه إفهام الناس إلا الخواص، وعلّه هو السبب فيما فعله الخليفة عمر من تهديد وتنديد بمن سأله عن تفسيرها[١] ولكن ترى هل يستحق المستفسر عن معاني آي من الذكر الحكيم هكذا إهانة ومهانة؟ بل الترغيب والتبجيل! وكما فعله الرسول ﷺ فيما يرويه عنه عمر نفسه من تفسير الذاريات[٢]! وتبعه خليفته علي عليه السلام[٣].

---

(١) عن السائب بن يزيد قال: أتى عمر بن الخطاب فقيل يا أمير المؤمنين!: «إنا لقينا رجلاً يسأل عن تأويل شكل القرآن فقال عمر: اللهم مكني منه، فبينما عمر ذات يوم جالساً يغدي الناس إذ جاء الرجل وعليه ثياب وعمامة صفدي حتى إذا فرغ قال: يا أمير المؤمنين! ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝﴾ [الذاريات: ١-٢] فقال عمر: أنت هو؟ فقام إليه وحسر عن ذراعيه فلم يزل يجلده حتى سقطت عمامته فقال: والذي نفس عمر بيده لو وجدتك محلوقاً لضربت رأسك، ألبسوه ثياباً واحملوه على قتب وأخرجوه حتى تقدموا به بلاده ثم ليقم خطيب ثم يقول: إن صبيغاً ابتغى العلم فأخطأه، فلم يزل وضيعاً في قومه حتى هلك وكان سيد قومه».
تجده في: سنن الدارمي ١: ٥٤ - ٥٥ - تاريخ ابن عساكر ٦: ٣٨٤ - سيرة عمر لابن الجوزي ١٠٩ - تفسير ابن كثير ٤: ٢٣٢ - إتقان السيوطي ٢: ٥ - كنز العمال ١: ٢٣٨ نقلاً عن الدارمي ونصر المقدسي والأصبهاني وابن الأنباري والألكائي وابن عساكر - فتح الباري ٨: ١٧ - الفتوحات الإسلامية ٢: ٤٤٥.

(٢) الدر المنثور ٦: ١١١ - أخرج البزاز والدارقطني في الافراد وابن مردويه وابن عساكر عن سعيد بن المسيب قال: جاء صبيغ التميمي إلى عمر بن الخطاب فقال: أخبرني عن ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾ قال: هي الرياح، ولولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته، قال: فأخبرني عن ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾ قال: هي السحاب ولولا أني (يكرر روايته عنه) قال: فأخبرني عن الجاريات يسراً قال: هي السفن ولولا أني... قال: عن المقسمات أمراً قال هن الملائكة ولولا أني.. ثم أمر به فضرب مائة وجعل في بيت فلما برأ دعاه فضرب مائة أخرى وحمله على قتب وكتب إلى أبي موسى الأشعري امنع الناس من مجالسته فلم يزالوا كذلك حتى أتى أبا موسى فحلف له بالأيمان المغلظة ما يجد في نفسه مما كان يجد شيئاً فكتب في ذلك إلى عمر فكتب عمر ما أخاله إلا قد صدق فخل بينه وبين مجالسة الناس.

(٣) وفي الدر أيضاً أخرج عبد الرزاق والفرياني وسعيد بن منصور والحارث بن أبي أسامة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان من طرق عن علي بن أبي طالب عليه السلام وذكر مثل ما رواه الخليفة عمر عن النبي ﷺ.

﴿فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۝٢﴾:

ثقلاً على ظهر أو بطن أو صدر، من الرياح الحاملات: ثقلاً على ظهرها من السحاب اللاقحات، الحاملات وقراً من النطف النباتية للتلقيح، ومن السحاب الحاملات وقراً من الماء في بطونها، يسوقها الله به حيث يشاء، والملائكة الحاملة وقراً من أوامر الله، ورجالات الوحي الحاملين وقراً من شريعة الله في صدورهم، وكافة الحاملات وقراً، صادرات من الله ومنفذات بأمر الله.

وفي تفريع الحاملات على الذاريات إشارة إلى تفرّع الحمل على الذّر كما هو الواقع، فالذرو أياً كان هو كبذرة للحمل وكما في النساء الحاملات.

﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۝٣﴾:

من الأمور والأوامر الجارية في مجاريها، بما ذرته الذاريات، وحملته الحاملات، ومن السفن الجواري كالأعلام في يسر على سطح الماء بإرادة الله، وبما أودع الله الماء والهواء والرياح والسفن من خصائص تسمح بهكذا جري يسير: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ۝٢٤ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٥﴾[(١)].

﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤﴾:

الطاقات المقسمات بين الكائنات أمراً من الأمور أو الأوامر، تكويناً وتشريعاً، دنياً وعقبى، مقسمات كونية بما أودع الله فيها من طاقات، وملائكية أو بشرية أم ماذا؟ التي تقسم أمر الله كما أمر الله دون نشوز ولا شذوذ، كما الملائكة ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[(٢)] من تقسيم لأمر الأرواح والأجساد دنياً وعقبى، وتقييم لها كما تحق كذلك،

(١) سورة الرحمن، الآيتان: ٢٤، ٢٥.
(٢) سورة التحريم، الآية: ٦.

ومن نزول بالوحي على أنبياء الله، وبالإلهام على عباد الله المخلصين ومن.. كما لغير الملائكة فيما حملوا من أمر وتقسيم لأمر.

فما تعني المقسمات خصوص الملائكة، لمكان التأنيث الحقيقي فيها دون الملائكة الذين هم لا ذكران ولا إناث، فالراجع إليهم بين ضمير مذكر أو مؤنث مجازي.

هذا - ولأن تقسيم الأمر لا يختص بهم، فالله عمّال منهم الملائكة ومنهم غيرهم وكثير ما هم!.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝٦﴾:

ترى ما هي الصلة بين هذه الأربع وبين صدق الوعد ووقوع الدين؟ فهل هي أقسام بدلاً عن الدليل إذا لا دليل؟ سبحان الرب الجليل عن هكذا دليل عليل! أو هي أدلة لصدق الوعد ووقوع الدين وكيف هي؟

إن مشكلة المعاد فالجزاء بعد العود، هي عائدة أولاً وأخيراً إلى استحالة الحياة الجديدة أو إمكانيّتها، فثبات إمكانيتها إثبات لوقوعها، فإن الحوار والمشاجرة حول المعاد ليس إلا مع المقرين بوجود الله مهما كانوا به مشركين - فإمكانية الحياة بعد الموت - الثابتة بأمثال ما يقسم به هنا وهناك، إضافة إلى قدرة الله تعالى، ثم علمه الشامل وعدله الكامل، أنها تنتج ضرورة: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾: من الحياة الأخرى ﴿لَصَادِقٌ﴾ ومن ثم ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ﴾: الجزاء ﴿لَوَٰقِعٌ﴾ فإن علم الله وحيطته بما يصدر عن الظالمين وما يلقاه المظلومون، وبما يطيعه المطيعون ويعصيه العاصون، ثم قدرته على الجزاء الوفاق، ثم عدم واقع الجزاء هنا إلا شذراً قليلاً، مع قدرته تعالى على إعادة الحياة ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، إنها تثبت ضرورة صدق الوعد ووقوع الدين، فإن

نكرانهما نكران لوجود الله وهم مصدقوه، أو نكران لعلمه وقدرته وعدله وهم عارفوه، أو إحالة للحياة بعد الموت وهي تكذيبه أنه يحيى الموتى، ونكران لما يلمسونه ليل نهار من ذاريات حاملات جاريات مقسمات... ومن أضرابها: تلكم البراهين الحسية التي يعيشونها طوال حياتهم.

فكما أن الذاريات ذرواً، فالحاملات وقراً، فالجاريات يسراً، فالمدبرات أمراً، تبرز لنا دوماً تغييراً وتحويراً، من موت إلى حياة ومن حياة إلى موت: قوات تُطير وتُثير وتُغير، ناقلة مواد الحياة إلى الأموات فتحييها يوم الدنيا بإذن الله، كذلك هي هي في الأخرى - وبأحرى - تنفذ مشيئة الله العليم القدير العدل البصير.

فالله يسوق السحاب إلى بلد ميت فيحييه بأمطارها الغزيرة لأناقة الحياة الدنيا وهي الأدنى، كذلك الله هو السائق لسحاب رحمته إلى أراضي الأبدان لتحيى مرة أخرى، فتجزى كل نفس بما تسعى، وهي أهون عليه وأحرى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[1] أهون بحساب الخلق، وأما في حساب الله فالكل له هين على سواء.

ومن جهة أخرى، فهذا النظام الدقيق الأنيق المحير للعقول، غير حقيق أن يحصر في دنيا الحياة الدائرة فيصبح عبثاً، وإنما هو بصورة أدق وآنق يتجلى يوم الدين ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾[2].

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ من وعد الحياة بعد الموت، والجزاء بما عملتموه قبل الموت، ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ﴾: الطاعة ﴿لَوَٰقِعٌ﴾ فالدين طاعة في الدنيا، وظهور للطاعة بحقيقتها يوم الدين، فليس الجزاء إلا نفس العمل صالحاً وطالحاً، طالما الطاعة يزيدها فضل من الله ورحمة.

---

(١) سورة الروم، الآية: ٢٧.
(٢) سورة الدخان، الآية: ٣٨.

وهل هذه الأربع المقسم بها واحدة في حالات أربع بتأويل أن الفاء لترتيب الأفعال والذات واحدة؟ أم أربع، لأن الفاء لترتيب الفواعل في مختلف الأفعال؟ أم متداخلات بعضاً ومستقلات في بعض؟ إن تفاسيرها المسبقة تشير إلى الأخير، وإن كانت الفاء في الثلاثة الأخيرة تفرعها على الأولى، فليس لزامه الوحدة، كما ليس الكثرة، فترتب الأفعال يناسبهما معاً وتتبع القرائن للتمييز.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝٧﴾:

جمع الحبيكة، وهي الطريقة الحسنة[١] المتينة الشديدة، يقال: بعير محبوك القَرى: محكمُه، والاحتباك شدّ الإزار، كما الحُبْك هو الشد.

فالسماء هي ذات طرائق سبع: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾[٢] طرائق حسنة ومن حسنها أنها شداد: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾[٣] [٤]: سماء منسقة محكمة التركيب، حسنة الهيئة، كتنسيق الزرد المتشابك المتداخل الحلقات، المحبوكة المشدودة رغم طباقها السبع، المتفاصلة الأجواء، تحكمها وحدة الحكمة الناصعة الناسقة رغم حُبكها العديدة، ولكنها حسنة شديدة متناسقة.

فهنا طرائق محسوسة للأبصار مجردة ومسلحة، وهناك طرائق معقولة للبصائر، حبك قلبية وقالبية، وهي فيها متلائمة متناصرة، فمنتهية إلى توحيد

(١) لقد جاء في النظم هذا المعنى عن عمرو بن مرة يمدح النبي ﷺ: لأصبحت خير الناس نفساً ووالدا «رسول مليك الناس فوق الحبائك» وفي اللغة كل شيء أحكمته وأحسنت عمله فقد احتبكته.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١٧.

(٣) سورة النبأ، الآية: ١٢.

(٤) راجع ج ١ من الفرقان تستوضح السبع الطرائق الشداد.

المُحبك المُطرق الجبار القهار: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾[١] مهما رأيت فيه من مختلف الخواص والآثار والأشكال!.

وكما أن السماء المادية لها حبك وطرائق، كذلك السماء المعرفية، فإنها الرسول الأقدس ﷺ[٢] الذي يتلقى الوحي كله، ثم له حبك: طرائق وأبواب، يصدرون عنه ويدلون عليه، فهم كثير لا يقولون إلا واحداً دون اختلاف، إثنا عشر إماماً هم استمرار لرسالة الرسول ﷺ، فاتّباعهم إذاً ينتج قولاً واحداً، ولكنكم لنكرانكم سماوات المعرفة الرسالية والرسولية ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ ولتخلفكم عن مدرسة السماء الحسية والمعرفية.

فقسماً بهذه السماء المحبوكة، ذات الطرائق الحسنة الشداد:

﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾﴾:

رغم أن هذه الطرائق بمتناولكم حسياً وعقلياً وعلمياً، فأنتم أنتم الأوغاد، غارقون في قول مختلف، كمن ينظرون إلى الشمس في رابعة النهار بمنظارات عدة، ثم يختلفون في نورها وظهورها، وفي كيانها!.

﴿إِنَّكُمْ﴾ أنتم المشركين الناكرين ليوم الدين ﴿لَفِى قَوْلٍ﴾: فيه ﴿مُّخْتَلِفٍ﴾: عن الواقع، ومتناقض متهافت مع بعض، رغم أن السماء ذات الحبك حسياً ومعرفياً، والذاريات الحاملات الجاريات المقسمات أمراً، والكائنات كل الكائنات، إنها تدلكم بقول واحد على إمكانية الحشر الحساب وضرورته.

فقولكم: إن الله قدير عدل حكيم، يفرض التصديق بصدق الوعد ووقوع الدين، وتقوّلكم: أإنا لفي خلق جديد؟ يختلف تماماً عما تصدقون أولاً، فهل إن الله عاجز؟ أم جاهل بما تحصل من ظلامات؟ أم ظالم؟ أو إن

---

(١) نور الثقلين ٥: ١٢١ عن تفسير القمي بإسناده إلى أبي حمزة قلت: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقصر في قول الله ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ [الذاريات: ٧]: السماء رسول الله ﷺ وعلى ذات الحبك.

(٢) سورة الملك، الآية: ٣.

الإحياء بعد الموت محال! رغم أن الكون كله بتنقلات الموت والحياة ليل نهار، وبما بدأ الله به من حياة، إنه يصدق المكون الأول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[1] ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾؟!.

فرغم أن الكائنات تقول في محراب الحس والعقل والعدل ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝٦﴾ فأنتم أنتم العميان الضمائر، الموتى القلوب، عائشون ﴿لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ غارقون في أوهام وأحلام، تقولون أقوالاً وأقاويل متناقضة، ولكي تتحرروا عن أسر الشريعة الإلهية!

﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨﴾: مختلف بعضه مع بعض تناقضاً، ومختلف بعضكم مع بعض فيه، ومختلف عن الحق الواقع، المؤيد بالآيات الآفاقية والأنفسية، وبالعقل والفطرة، والمصدق بوحي السماء على رجالات الوحي، فهم فيه مختلفون لأنه مضطرب، لا قوام له ولا استقرار، وهكذا يكون الباطل دوماً مرجرجاً مهتزاً، لا نور فيه إلا الظلام، فلا يجتمع عليه أهله إلا لغايات وحاجات، فإذا قضيت تفرقوا عنه، ودبّ الخلاف بين أهليه وظهر، طالما كان خفياً، أو ظاهراً لا يعرفه الجاهلون.

إن القول المختلف المتزعزع الضنين هو من أشر القول وأخسئه، ثم القول الكذب الذي يثبت عليه صاحبه، ثم أحسن القول هو الصدق الواحد غير المتفاوت مع بعضه ومع واقع العقيدة وواقع الكون.

﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ في الله، ومختلف في رسالات الله، ومختلف في كتابات وحي الله وأخيراً في القرآن: إنه سحر أو كهانة أو شعر أو عبارات جنونية أو سحر يؤثر، فإذا كان سحراً فكيف يؤثر؟ ومن آثار السحر أنه لا يؤثر وإنما يفنى ويُدثر! فقد تراهم - على طول الخط - في أمر مريج: ﴿قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾:

---

(١) سورة يس، الآية: ١٢.

﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾:

والإفك هو الصرف عن وجه الحق، ويقال للرياح العادلة من المهابّ مؤتفكة، إذاً فالمؤفك عنه ليس إلّا الحق، وإليه يرجع ضمير الغائب «عنه» لا إلى قول مختلف، فالصرف عن هكذا قول ليس إفكاً، وإنما يرجع إلى حق مختلف فيه ومختلَف عنه: حق التوحيد والرسالة والمعاد والقرآن ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾[1].

وقد يحتمل رجوعه إلى قول مختلف بتجريد الإفك عن الكذب أن يعني مطلق الصرف وإن كان عن الباطل، يصرف عنه من صرف، بتفكيره وبتأييد الله، أو يقال إنه يشمل إفك الحق وإفك الباطل وعلّه أوجه وإن كان إفك الباطل أظهر وأنسب لغوياً.

﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾: أنتم فيه ومختلف هو فيكم، ومختلف هو عن الحق: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ﴾ عن الحق «من أفك» عنه، فالوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس، يأفك النسناس عن سيرة الناس، عن الحق الذي فطرهم عليه إله الناس، وعمّا سن لهم بما شرعه وأنزل على الرسل، حراساً لهم ومتراساً عن الإفك ووسواسه، ونبراساً ينير لهم الدرب إلى صراط مستقيم.

إن الوسواس لا يستطيع أن يأفك عن الحق إلّا من أفك في نفسه، دون العباد الصالحين ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾[2] فما لم يكن الإنسان في نفسه شيطاناً أو مائلاً إلى شيطان، فلا سبيل لسائر الشياطين أن يأفكوه عن الحق ويصرفوه عن وجهه، وإنما ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾:

﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ۝١٠﴾:

والخرص أصله من خرص الثمار وهو تقديرها دون وزن ولا عدّ، فهو

(١) سورة النبأ، الآيات: ١-٣.
(٢) سورة الحجر، الآية: ٤٢.

الحدس والتخمين، دون سناد إلى برهان متين، فلا يعدو الوهم والظن ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾[1] ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾[2] والخرص فاتك وقاتل أياً كان، وإن اتفق وفقه للواقع أحياناً، والعلم هو المسنود إلى برهان حق وإن خالف الواقع أحياناً.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾﴾:

أصل الغمر إزالة أثر الشيء، ومنه قيل للماء الكثير الذي يزيل أثر سيله: غمر وغامر، فالغمرة هنا مَثَل للجهالة والانحلال عن العقل والفطرة الإنسانية، إذ زالت آثارها، فأصبح صاحبها مغموراً في السهو، دونما يقين أو تصميم فهو - إذاً - كتفسير لنتاج التخريص:

إنهم غارقون في غمرة الأضاليل والأباطيل، لا يشعرون بشيء مما حولهم ولا يستشعرون، وهي حياة الحيوان المجنون مهما كان في قالب الإنسان، فقد قتلت إنسانيته إذ فقد حكم العقل والفطرة وهما حياة الإنسان كإنسان.

فـ ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ إخبار بحساب الله أنهم مقتولون بما قَتلوا عقولهم، مهما كان دعاء بحساب الخلق - دون الله فإنه لا يدعو - إذ يحق لهم الدعاء عليهم بالقتل، أن يزيدهم الله عمىً ويذرهم في طغيانهم يعمهون، ثم ويقتلهم في أجسادهم كذلك لإراحة المجتمع الإنساني من خرصهم وغمرتهم في سهوهم، وأما الله فممّ يدعو ويلتمس أن يقتل الخراصين؟.

والخراصون: المبالغون في خرصهم، حياتهم غمرات السهو والخطأ، لا يصدرون عن مصدر العقل والشعور، وإنما هم فوضى في حركاتهم

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١٦.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٢٠.

وتصرفاتهم وأحكامهم، وإذ يسألون عن حقيقة، فليس للتحري عنها، وإنما للتجري عليها والاستهزاء منها، كما:

﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾﴾:

ترى لو أجيبوا عن أيّانه وزمانه هل كانوا يؤمنون به وهم كافرون بأصله؟ كلّا! ثم ولا صلة بمعرفة الزمان لإثبات ما يحصل في الزمان! إذاً فسؤالهم هذا تعنّت واستهزاء وهُراء.

ولأنهم كانوا على علم من عدم التعيين ليوم الدين، يسألون عن زمنه تعجيزاً، ولكي يستدلوا بجهله على بطلانه في أصله، وتُرى ما هي الصلة بين الأمرين؟

فلو علمتَ أنني كائن ولم تعلم متى كوّنت، هل لك أن ترتاب في أنني الآن كائن؟.

إذاً فكهذا سؤال متعنت هُراء جاهل لا جواب عنه إلا الإرجاع إلى العقل وحجج المعاد المسبقة، وإلا - أخيراً - الإخبار بما يحصل لهم يوم الدين من فتنة النار كما هم الآن يفتنون:

﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾:

وكما كانوا يوم الدنيا على نار الشهوات يفتنون: وهذا إعراض عن جوابهم، وإخبار للرسول ﷺ بما يفتنون فيما فتنوا، وأصل الفتن إدخال الذهب النار لتظهر جودتها من رداءتها، وإدخال خليطها إياها لتخلص عن خلطها، وإدخال ما تتظاهر بكونها ذهباً النار لتحرق وتفضح: فتنة خير وفتنة شر ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[1] ففتنة الأولياء لظهور وازدياد الولاء بالمحن: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾[2] على

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٥. (٢) سورة ص، الآية: ٣٤.

درجاتهم في فتنتهم الخيرة، وفتنة الكفار لازدياد الشر والبوار ولكي يعرفوا هم أنهم أهل النار، ففتنتهم على النار هي حرقهم عن آخرهم تدليلاً على أن ليس في ذواتهم وصفاتهم ذهب، إلا كل عطب ونكب، وإلا حصباً لا يستحق إلا الحرق: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾[1] والكافر كله خبث وحطب فليحرق كله، وإن كانت فتنة الكفار دركات، كما أن فتنة المؤمنين درجات.

وإضافة إلى حرقهم في فتنة النار، يسمعون من الجبار في هذا الموقف العصيب، ناراً على نار:

﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾:

علاجاً لتساؤلهم المتعنت الهراء، وهو مِن قتلهم الذي أخبر الله به مسبقاً: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ . . . يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ وكما قتلوا قتلات عدة على طول الخط في الأولى والبرزخ والأخرى.

وبما يلوح من سؤالكم عن وقت يوم الدين أنكم له مستعجلون، وإن كان تعنتاً واستهزاءً، فهذا هو الذي كنتم به تستعجلون، وكما كانت أعمالكم تعجل بكم إليه، عجلة سير الشر إلى قراره.

وحتى الآن كانت الآيات تتكدس فتتحدث عن الضفة اليسارية الكافرة، ومن الآن تركز على الضفة اليمينية المؤمنة، فريق مستيقن لا يخرص، وليس في قول مختلف آفك، وإنما مؤتلف سالك، وليس في غمرة السهو والارتباك، وإنما تحت رحمة الفطرة والعقل والإدراك، مستنيراً بوحي السماء، وهؤلاء الطيبون هم المتقون:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾﴾:

لا فحسب في يوم الدين، بل وفي يوم الدنيا كذلك هم في جنات عقول

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٩٨.

الوحي، تجهنم عن حرق الشهوات، وعن الوسواس الخناس من الجنة والناس، وفي عيون المعرفة والحنكة، تعينهم على نزوات الشيطنات، ومن ثم فهم في الآخرة - من البرزخ والقيامة - هم في جنات وعيون، بما اتقوا دوافع الهلاك، وابتغوا رضوان الله، وترى ماذا يأخذون هناك وماذا يرون ويسمعون؟ ولماذا؟ :

﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾﴾ :

هم في عيون في الأخرى، حال أنهم آخذون ما آتاهم ربهم، آتاهم بما وعدهم واستحقوا فضلاً من ربك، وأخذوه دون مماسكة أو مماكسة، راضين عن إحسانه، ماضين في رضوانه، غير متهميه بانتقاص، وهذا الإيتاء الإحسان، والأخذ الرضى، لأنهم كانوا قبل ذلك: - في حياة التكليف - محسنين: فيما يجب فيه الإحسان، ويحسن، ومن إحسانهم النفل زائداً على الفرض أنهم:

﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ :

فقد كان قيام أكثر الليل على النبي فرضاً، وعلى غيره ندباً، فالرعيل الأعلى من المتقين لم يرضوا إلا متابعة الرسول ﷺ ومشابهته، فداوموا على ما داوم عليه من قيام الليل، فالهجوع هو النوم ليلاً، وهم كانوا ينامون قليلاً من الليل، أيقاظاً في جنح الليل والناس نيام قائمين في عبادة ربهم.

والليل هنا قد يكون جنسه أيضاً فالمعني أنهم قليلاً ما يتفق نومهم طول الليل، وكثيراً ما يستيقظون بعض الليل في العبادة[1] وقد تنافيه ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ

(١) نور الثقلين ٥ : ١٢٢ عن تفسير القمي عن محمد بن مسلم قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن هذه الآية - قال: كانوا أقل الليالي تفوتهم لا يقومون فيها.

يَسْتَغْفِرُونَ﴾ لمكان الجمع المحلى باللام، الدال على كل الليالي، اللهم إلا جمعاً بين المعنيين: كانوا قليلاً من الليالي ينامون، أو قليلاً من كل ليلة ينامون، مهما اختص بكل قلة فريق، فهم كلهم متقون على درجاتهم.

﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾:

فهل من ذنب وخطيئة يستغفرون؟ وهم قبلها قيام عابدون! أم من قصورهم فيما يحق لله دون تقصير ولا تقتير؟ وهذا استغفار السابقين وأصحاب اليمين! أم دفعاً عما يعتور الإنسان - أي إنسان - من خطيئة أو نسيان؟ فهذه عصمة إلهية! أم ومن ذنوب لا يخلو عنها إلا المخلصون المعصومون؟ فقد تحصل لبعضهم وهم متقون، فإن التقوى درجات كما الطغوى دركات.

ثم ترى ماذا في تخصيص الاستغفار بالأسحار، اللهم إلا خيراً ليس في غير الأسحار، ولأن أكثرية النفوس الشريرة عندها نائمة والمتقون ساهرون، مما يخلق جوّاً روحانياً يتجلّى فيه الدعاء أكثر من غيره، وأن أفضل الأعمال أحمزها وأشقها، وهم يحرمون أنفسهم بالأسحار لذة النوم والاستقرار، مستغفرين الرب الجبار، عله يختصهم برحمة منه ورضوان وهو الرحيم.

﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾:

وكما كانت أحوالهم مكرّسة في خدمة الله وعبادته، كذلك أموالهم، ففيها حق لأهله، معلوم وغير معلوم: معلوم كالضرائب المستقيمة المعلومة بما فرض الله: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾[1] وغير معلوم كالضرائب غير المستقيمة من الإنفاقات الهامشية في مجالها المقررة

---

(١) سورة المعارج، الآيتان: ٢٤، ٢٥.

في محالها[1] للسائل وإن لم يكن محروماً، وللمحروم وإن لم يكن سائلاً، فلكلٍّ حق سؤالاً أو حرماناً، فهم متطوعون بفرض هذا الحق، غير المحدود في أموالهم، طالما لا حد للسؤال والحرمان اللهم إلا حسب المستطاع، فهم يعتبرون أنفسهم في أموالهم كأنفس الباقين.

﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾:

لفتة إلى آيات كونية: آفاقية كالسماء والأرض، وأنفسية تتوسطهما، ففي الأرض آيات تدل على وحدانية الله وأنه يحي الموتى: ومن آياته أنك ترى ﴿ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾[2] ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ. . .﴾[3].

وهذه الآيات الأرضية حية لمن يسلكون مسالك اليقين، وميتة للميتين، لذلك ينتقل إلى آيات الأنفس قبل آيات السماء، ولأن الأنفس الحية الموقنة هي التي تستفيد من هذه وتلك، فـ «من أبصر بها بصرته ومن أبصر إليها أعمته» - ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾

ثم وفي تتابع الآيات الثلاث إيحاء أنّ هناك علاقة بين الأرض وأنفسنا ورزقنا السماوي الصادرة منها لنا في الآخرة والأولى، وفي تخصيص آيات الأرض بالذكر بين سائر الآيات في الكائنات إيحاء بأهميتها من جهة، وأنها أقرب الآيات وألمسها لسكنة الأرض لظهورها لمن على ظهورها،

---

(١) راجع ج ٢٨ - الفرقان في ضوء الآية ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾ [المعارج: ٢٤-٢٥].

(٢) سورة الحج، الآيتان: ٥، ٦.

(٣) سورة يس، الآية: ٣٣.

فالسالكون سبيل الإيقان بتوحيد الله لهم مجالات واسعة في فسيحات الآيات الأرضية، مهما عمي عنها الواقفون، المخلدون إلى الأرض، التابعون أهواءهم، فهم في فرُط من أمرهم.

إن أرضنا هذه معرض لآيات إلهية لم نتعرف حتى الآن إلا إلى القليل منها، وعلى ضوء تقدم العلم نكشف على طول الخط جداً منها، كما وأن أنفسنا معارض لآيات أخرى، مثلاً عن الكون أجمع، وعلى حد المروي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: أتزعم أنك جرم صغير. وفيك انطوى العالم الأكبر، وأنت الكتاب المبين الذي بأحرفه يظهر المضمر): أسرار خفية تضم أسرار الكون كله، لا أسرار الأرض وحدها!.

إن كتابي التدوين والتكوين الإلهيين يدفعان الإنسان - متضامنين - إلى اللانهاية من تقدم المعرفة والبصيرة، فالقرآن التدوين يحرك الإنسان إلى التفتيش عن خفيات الآيات الكونية، باستعمال العقل والتدبر، وكل ما يملكه من وسائل الكشف والاختراع، دون أن تبرز له النتائج بلا سعي وعمل، إلا أمهات من مفاتيح العلوم، ولكي يعيش الإنسان حياته كدحاً إلى الله، ولا يصبح عاطلاً باطلاً.

هنا في أرضنا آلاف الموافقات، معروفة ومجهولة، تتحكم في صلاحيتها لاستقبال هذه الحياة، لو نقصت أو ازدادت أو ضعفت أو تخلفت واحدة منها اختلت أو استحالت هذه الحياة عليها، لكنها تتدفق وفق تدبير العليم الحكيم الذي خلق هذا المحضن لهذا النوع من الحياة، نباتية وحيوانية وإنسانية أم ماذا؟.

لو قضت البشرية أعمارها، ومضت في التأمل أو مجرد الإشارة إلى ما في الأرض من آيات، ما انتهى لها قولة ولا إشارة، فضلاً عن أن تسبح طويلاً في بحار القوانين المتحكمة عليها، وأخيراً ينتهي هذا السيح والسبح

إلى يقين، طالما له درجات حسب مختلف المساعي ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾!: مشاهد حية لمن يبصر بها فيتبصر، وهي ميتة جوفاء لمن يبصر إليها كحيوان، لا يدرك ما وراءها من تدبير وإبداع، وكثير هؤلاء الذين يمرون بالمعارض الإلهية مغمضي الأبصار والبصائر ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾[1] ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْأَخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾[2] فهم مهما كانوا علماء، لا يفقهون من آيات الكون لغة إلا ما تدير لهم وتدبر حياة الحيونة بطناً وفرجاً، لأن لمسة اليقين لم تُحي قلوبهم، ولم تبث الحياة فيما حولهم.

ثم آية أخرى تدب على الأرض هي الآية الأنفسية ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾: إلى آيات الأرض وبها، لتنفذوا منها إلى معرفة إله الأنفس والآفاق، الذي فطركم على معرفته، وبصركم فيها ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؟! وإن كان الإبصار بالأنفس أقرب:

﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾[3] إلا إذ حجبت بصيرته بغشاوات الأوهام، فلو تعاونت بصيرة الإنسان وما يريه الرحمان من الآيات الآفاقية والأنفسية، لكان في ذلك نبوٌ للإنسان عال: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[4] فالأنفس هي الذوات الإنسانية قلباً وقالباً، لا المقابلة للأجساد فحسب.

لقد أرانا الله تعالى آيات هنا وهناك قبل نزول القرآن، وعنده، وبه، ثم يعدنا خيراً منذ نزول القرآن إلى يوم القيامة أنه: سيرينا آيات آفاقية وأنفسية

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٥.
(٢) سورة الروم، الآية: ٧.
(٣) سورة القيامة، الآيتان: ١٤، ١٥.
(٤) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

أخرى وصالاً دون فصال، ما عشنا على هذه البسيطة، حتى يتبين لنا أنها الحق، إضافة إلى المسبقة من آيات، ما يدل على مواصلة الرحمة الإلهية إلينا لو كنا نابهين! ففي تقدم العقل والعلم البشري تقدم ملموس للحصول على آيات جديدة تدلنا إلى الحق أكثر مما مضى ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾؟

إن آية النفس الإنسانية - روحاً وجسماً، قلباً وقالباً - هي الآية الكبرى إذ لا أكبر منها مهما كانت لها زملاء ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[١]: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[٢]! إذ تتجاوب الآيتان أن للإنسان زملاء في ﴿أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

إذاً فمعرفة النفس هي من أعظم أبواب المعرفة الإلهية لحد «من عرف نفسه فقد عرف ربه» فمن لم يعرف نفسه لم يعرف ربه: - ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

فهنا في النفس الإنسانية آيات للموقنين كما في الأرض آيات، وأين آيات من آيات؟!.

آيات متواجدة فيها منذ خليتها الأولى، إلى الأجنة، إلى الولادة، وإلى ميادين الحياة وحتى الموت، ما تتطلب مؤلفات عدة ضخمة معمقة، لكي تشمل طرفاً من أطرافها العديدة المديدة.

إن الخلية الأولى الإنسانية تحمل كل رصيد الجنس الإنساني من خصائص، وكذلك ما ورثته من الجدود، ترى كيف تكمن هذه وتلك؛ وكيف تهتدي إلى طريقها الطويل، فتمثلها أدق تمثيل، وتنتهي إلى إعادة هذا الكائن الإنساني العجيب!.

(١) سورة التين، الآية: ٤.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٧٠.

ثم ترى أعجوبات تحير العقول، وتغرق العلماء في بحور من الاحتيار، تراها في التحورات التي تتبدل فيها هذه الخلية حتى تصبح جنيناً كاملاً ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾(١)!

ثم في هذا المتحف الإلهي العظيم الذي يضم بلايين، كل فرد منها نموذج خاص يختلف عن غيره من أفراد في شكله وملامحه، في روحه ومشاعره، في عقله ومداركه، وفي كل جزء من أعضائه حتى وفي بنانه التي تختلف بصماتها مع بعض، وبصمات كل مع الآخرين: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾(٢)!

ثم ترى أعجب من الاختلافات الشكلية والعضوية، اختلافات عقلية وفطرية رغم اشتراك الكل في أصل العقل والفطرة، كما وفي أصل البنية الإنسانية.

﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾(٣): رزقكم الحالي ليوم الدنيا، مادياً بالأمطار والرياح وإشراق الشمس، ومعنوياً بما ينزل من وحي وإلهام، ثم رزقكم المستقبل: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ من جنة عرضها كعرض السماء والأرض، وما فيها من رحمات، ومن رضوان من الله وهو أكبر: جنة معنوية بعد المادية ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾(٤).

فالسماء هنا لا تعني جهة العلو المادية فحسب لكي يختص رزقها بها

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٤.

(٢) سورة القيامة، الآية: ٤.

(٣) علل الشرائع بإسناده إلى أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام عن جده أمير المؤمنين علي عليه السلام قال ابن سبأ: يا أمير المؤمنين! أليس الله عز وجل في كل مكان؟ قال: بلى - قال: فلم يرفع يديه إلى السماء؟ فقال: أوَ ما تقرأ: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢] فمن أين تطلب الرزق إلا من موضع الرزق وما وعد الله عز وجل السماء (نور الثقلين ٥: ١٢٤).

(٤) سورة الرحمن، الآية: ٤٦.

حالاً أو استقبالاً، بل والمعنوية أيضاً وأحرى، فهي - ككل - سماء خزائن الله عند الله، التي تضم كل الكائنات: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[١] سواء أكان نزولاً من الفضاء العالي كالأمطار والأنوار أم نزولاً معنوياً من سماء الربوبية دون أن تختص بجهة مكانية، سماوية أو أرضية كالوحي والإلهام.

ومما نوعد هي الجنة التي عند سدرة المنتهى، فوق السماء السابعة، مما يدل على أن السماء المادية تشمل السبع وما فوقها من الجنة المأوى.

فكما أن الرزق منه مادي ومنه معنوي، ثم منهما حالي واستقبالي، كذلك السماء تشملها كلها وتشمل كل ما ينزله الله إلينا: من ذوات الجهات وسواها، الماديات وسواها.

لا نقول: إن السماء حيثما تذكر تشملهما، فإن الآيات في خلق السماوات تختص بالمادية، وإنما استيحاء من عموم الرزق، وظاهر اختصاصه هنا ككل بالسماء، نقول هنا إنها تشملهما.

وترى ماذا يعني رفع اليدين بالدعاء إلى السماء وليس الله ساكن السماء وماكنها؟ ذلك.. لأنها موضع الرزق، إن مادياً فأصله نازل من السماء وإن معنوياً فهو ينزل من سموّ الربوبية، من مكانة عالية وإن لم يكن من مكان عال: اللهم (واجعل ما صرحت به من عدتك في وحيك، وأتبعته من قَسْمك في كتابك، قاطعاً اهتمامنا بالرزق الذي تكفلت به، وحسماً للاشتغال بما ضمنت الكفاية له، فقلت وقولك الحق ووعدك الصدق، وأقسمت وقسمك الأبرّ الأوفى ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ ثم قلت: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾)[٢].

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٢١.

(٢) الصحيفة السجادية عن الإمام علي بن الحسين السجاد عليه السلام.

ترى إذا كان رزقنا في السماء، أليس علينا ابتغاؤه بالكدح والسعي؟ أن تبقى مكتوفي الأيدي عن كل شغل، أو أن نكتفي بالتماس الدعاء؟!

كلا! فـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ حياة السعي والكدح في ابتغاء الأرزاق المادية، وبأحرى المعنوية! اعتباراً أنه من أسباب إدرار الرزق على قدر معلوم ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾: معلوم حسب الحكمة البالغة ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾[1] فليست سعة الرزق للبغاة المحتكرين، مصّاصي دماء المظلومين، ليست هي من عند الله تشريعاً أو تقديراً منه من عنده، وإنما بما طغوا وبغوا فامتلكوا أموال الشعوب واستغلوا طاقاتهم واستثمروهم، وإنما الله لا يمنعهم تكويناً بعد منعهم تشريعاً، إذ «لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين». . فالرزق ينزل من عند الله بقدر معلوم حسب الحكمة، ومعلوم قدر السعي، متكلين على الله في ابتغاء ما عنده، دون استقلال للاتكال فنبقى دون سعي، ولا استقلال للسعي فنبقى دون اتكال، وإنما أمر بين أمرين: لا اتكالية ولا استقلالية.

ثم وليس في إلفات النظر إلى رزق السماء إهمال الأرض وأسبابها، وإنما مزج أسباب الأرض بأسباب السماء، دون أن يثّاقل إلى الأرض أو يخلد إليها منقطعاً عن أسباب السماء، ولا أن ينقطع إلى أسباب السماء ويهمل أسباب الأرض، سواء في ذلك سماء الأرزاق المادية، أو المعنوية السامية، متسبباً بها إلى خالق الأرض والسماء، متطلعاً إلى الرزق المقسوم والحظ المرسوم، فليكدح في الأرض ويعمل متطلعاً إلى السماء، وبذلك ينطلق قلبه من إسار أسباب الأرض، ويرفّ بأجنحته إلى ملكوت السماء، فيعيش موصولاً قلبه بالسماء، وقالبه على الأرض، وهذا هو الإيقان المنوّه

(١) سورة الشورى، الآية: ٢٧.

في تلكم الآيات و«إن اليقين أن لا ترضي أحداً على سخط الله، ولا تحمدن أحداً على ما آتاك الله، ولا تذمن أحداً على ما لم يأتك الله، فإن الرزق لا يجره حرص حريص ولا يصرفه كره كاره»(١) ف «اطلبوا الرزق فإنه مضمون لطالبه»(٢) فالرزق داخل في القضاء الإلهي دخولاً أولياً ذاتياً، لا هامشياً، فإن المخلوق أياً كان لا بد وأنه مرزوق لضرورة بقاء الحياة، والرزق أياً كان - وهو ما يمد شيئاً آخر - لا بد له من رازق ومرزوق، معنوياً كان أو مادياً: هواء أو ماء أو غذاء، زوجاً أو لباساً أو مكاناً، أو أياً كان، مما يمد الحياة وتمتد به الحياة، وإن كانت لها درجات، حسب المساعي والتقديرات.

ثم الربوبية الظاهرة في هذه الثلاث بآياتها، الزاهرة على علّاتها، أنها برهنة بيّنة ملموسة أنها حق مثل ما أنكم تنطقون:

﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

إن ربوبية رب السماء والأرض، وربكم أنتم، تبرهن على ﴿إِنَّهُۥ﴾: الوعد والدين، بما تدل عليهما من آيات الأرض والأنفس ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ لا مرية فيه ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾.

فكما أن كونكم تنطقون، هو حقيقة، دون مرية ولا جدال، كذلك أمر الوعد الصادق، والدين الواقع، إذ يملك من البراهين في الأرض وفي أنفسكم وفي السماء، ما لا ينكره من يحترم عقله أو حسه، إلا أن يتنزل عن كونه إنساناً، بل وحيواناً!.



(١) نور الثقلين عن إرشاد المفيد عن علي عليه السلام.

(٢) المصدر عن توحيد الصدوق عن علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: يا علي!...

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾

تسليات وتثبيتات لخاطر النبي الأقدس ﷺ باستعراض أحاديث عن النبيين مع أقوامهم، وما لاقوه من أذى ولاقت أقوامهم من لظى، ابتداءً بحديث إبراهيم لأنه شيخ المرسلين:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾:

ملائكة دخلوا عليه كأناسي فاعتبرهم ضيفاً آدميين، فقال عنهم الله ضيفاً كما حسبهم إبراهيم عليه السلام أو أنهم كانوا ضيفاً حقيقيين وإن كانوا ملائكة اعتباراً أن الداخل على الإنسان ضيف وإن لم يأكل أو ليس ممن يأكل، توسيعاً في معنى الضيف.

و﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ كاستفهام بشأن تفخيم أمر القصة، فإن هذا الحديث يضم

من فخائم الأمور عظائم، و﴿ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾: عند الله إذ أرسلهم إلى خليله: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ...﴾[1].

ومكرمين عند إبراهيم إذ أكرمهم قبل أن يعرفهم، تدليلاً على مدى حقوق الضيف وإن كانوا منكورين لا يعرفهم المضيف.

﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ۝٢٥﴾:

يرد عليهم تحيتهم بأحسن منها كما توحي به الجملة الإسمية: ﴿قَالَ سَلَٰمٞۖ﴾ بخبرها المحذوف، الدالة على الدوام، بعدما أوحت جملتهم الفعلية ﴿فَقَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ بسلام غير دائم.

ثم يضيف إلى إضافتهم في هذه التحية الحسنى، إضافة لهم عملية، وهو ينكرهم ولا يعرفهم:

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ۝٢٦﴾:

دون أن ينتظر تعريفهم بأنفسهم أو ينظر في أمرهم: فقد أدى واجبه الأول أن رد تحيتهم بالحسنى، والثاني تقديم أدب من آداب اللقاء الإيماني: التعارف بين المتلاقين، أن يعرّف كلٌّ نفسه ويتعرف إلى الآخر، فضيفه المكرمون كانوا يعرفونه وهو لا يعرفهم، ولكنه عاملهم كمن يعرفهم.

والثالث المبادرة إلى إحضار الطعام قبل أن يعرفوا أنفسهم، في مثلث الإضافة المحترمة أخيراً أن راغ ﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾ ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ﴾[2] عجل - سمين - حنيذ! وهو يروغ للمجيء به إلى أهله!.

فالروغ طلب بضرب من الاحتيال والتخفي، مما يوحي كأنه لم يكن لدى أهله إلا عجل واحد، أو إلا سمين واحد لا يرضون بذبحه بسهولة،

(١) سورة هود، الآية: ٦٩.
(٢) سورة هود، الآية: ٦٩.

ولضيف غير معروف! يجيء به حنيذاً: مشوياً بين حجرين نظيفين، يقربه كله إليهم، وهو طعام عشرات، وهم كانوا ثلاثة فيما يقال، يكفيهم كتف من هذا العجل!.

فإلى هنا لا يظهر منه مخلفات من نكرانه لهم إلا في البداية في قوله: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ اللهم إلا كل تجليل وتبجيل يستحقه كل ضيف عزيز معروف جليل، إلى أن:

﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾:

﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً...﴾[١] فالوجس هو الصوت الخفي، والإيجاس إخفاء الصوت في النفس، مما يدل أنه كان خوفاً خفياً أو مشارفاً كما تعنيه الوجل، وإنما استشعر منهم الخوف، إما لأن عدم الأكل من طعام المضيف، ولحدّ لا تصل أيديهم إليه، ينبئ عن نية شر وخيانة، أو يلمح فيهم شيئاً غريباً في نوعه، فحتى لو كانوا شبعانين، عليهم أن يمدوا أيديهم ليأكلوا ولو قليلاً، أو يسفروا عن عذرهم بعد تقريب الطعام إليهم، فإذ لم تصل أيديهم إليه، ولم يعتذروا، إذاً فحق لإبراهيم - وهو يعيش بين أعداء له كثير - أن يخافهم، ولكنه أوجس منهم خيفته، رعاية لهم، إلا أن ملامح الوجه بطبيعة الحال تسفر عن الخيفة الموجسة، مهما حاول الخائف في إيجاسه، فلما عرف أنهم عرفوا ما أوجسه، بادر بإظهاره، ولكي لا ينافقهم في واقعه، وليُظهروه على أمرهم، حتى يعرف واجبه تجاههم بعدما قام به من واجبه، فـ ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾[٢] مصارحة بالحق ما أحلاها، دون مسايرة بإيجاس الخيفة، التي قد تخلف آثاراً سيئة، حتى خبروه عن حالهم بما يحمل له بشارتين:

---

(١) سورة هود، الآية: ٧٠.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٥٢.

﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾:

﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾﴾[1] ﴿نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾[2]. هنا وهناك نرى شيخ المرسلين كيف يضيف ضيفه المنكرين قبل أن يعرفهم، لحد يكرمهم كما يرضى الله، إذ يعبر عنهم بـ ﴿ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾.

ثم لما يرى منهم ما يخيفه يخفيه عنهم مغبة تكريمهم، وألا يتأثروا بما يعرف من عجيب أمرهم، ثم لما عرفوا الخيفة الموجسة في نفسه من ملامحه، أبرزها لهم ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾: نستشعر منكم الخوف فإن أمركم مريب، فهذه الخيفة الموجسة لم تكن خوفاً ثابتاً، وإنما استشعاراً يعنيه الوجل، وما أعدل إبراهيم إذ لم يحصل له من أمرهم المريب واقع الخوف، وإنما مشارفته المساءلة، لا عداءً لهم وامتهاناً، وإنما بغية ظهور الحال وعلاجها، وقد عولجت بالبشارتين، أن عرفهم رسل ربه المكرمين، فاستبشر بغلام عليم، والقضاء على قوم لوط المجرمين.

﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾: بشارة بإسحاق من زوجه العجوز العقيم سارة، بعد أن بشره ربه قبل ذلك بغلام حليم ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾[3] من هاجر وهو إسماعيل، ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾﴾[4].

(١) سورة الحجر، الآيتان: ٥٢، ٥٣.
(٢) سورة هود، الآية: ٧٠.
(٣) سورة الصافات، الآية: ١٠١.
(٤) سورة الحجر، الآيات: ٥٤-٥٦.

﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾:

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾[١].

إن دور إبراهيم في هذه البشارة كان استبشاراً حمله على استفسار بشأنه خاصة ﴿عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ﴾[٢] دون زوجه العجوز العقيم، ولم يكن سؤاله ﴿أَبَشَّرْتُمُونِى﴾[٣] إنكاراً لقدرة الله، قنوطاً من رحمة الله، إذ حكم هو بضلال القانطين، وإنما استعظاماً للبشارة، وهل أنها حقاً من الله؟ وهؤلاء هم رسل الله؟ فلمّا ﴿قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾[٤] اطمأن قائلاً ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾[٥].

وأما زوجه فقد استغربت هذه البشارة وتعجبت منها في مثلث الاستبعاد: (عجوز ١ عقيم ٢. . وهذا ٣ بعلي شيخاً)؟ قالته لما سمعت البشارة: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ﴾: في صياح شديد ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾: لطمت وجهها ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾؟ فإنها بغتت وفوجئت بهذه البشارة، فندّت منها صيحة الدهشة، وصكت وجهها صكة الوحشة، إذ لم تكن تتوقع هكذا بشارة!.

﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ بما يحكم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يريد ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾[٦] ولقد نفذت رحمة الله

---

(١) سورة هود، الآيات: ٧١-٧٣.
(٢) سورة الحجر، الآية: ٥٤.
(٣) سورة الحجر، الآية: ٥٤.
(٤) سورة الحجر، الآية: ٥٥.
(٥) سورة الحجر، الآية: ٥٦.
(٦) سورة هود، الآية: ٧٣.

الخاصة هنا في ثالوث الاستحالة بحساب الإنسان، فلم يمنع عقمها المزدوج: ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ ولا شيخوخة بعلها الخليل عن نفاذ أمر الجليل.

هذه البشارة كانت بحق إسحاق وفي مثلث الاستغراب، وأما التي كانت بحق إسماعيل قبل إسحاق فلم تحمل خارقة للعادة، إذ لم تكن زوجه لا عجوزاً ولا عقيماً، ولا هو شيخاً لحد الإياس، ولذلك نراه يبتدىء هو بالطلب: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ. . .﴾[1].

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾﴾:

توحي هذه المقالة أن إبراهيم لم يعدّ بشارته في عداد خَطب المرسلين، فإنه الأمر العظيم الذي يكثر فيه التخاطب، ما يوحي بأنهم أكثروا معه الحوار ليهيئوا الجو لبيان أمرهم العظيم: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ وعلّه بداية الحوار، فلتستكن نفس الخليل بما أرسل به المرسلون عن الجليل.

فقد زال عنه روع أوّل، ثم ابتلي بروع ثان أروع هي قصة العذاب على قوم لوط ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾[2] مما يدل أنهم بدؤوا بتعريف أنفسهم، ثم البشارة، ثم الحوار مقدمة الخطب، ثم التصريح بالخطب إذ سألهم:

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾:

وهم قوم لوط، ترى ما هو الدافع لإطلاع إبراهيم بهذا الخطب، ورسالة العذاب كانت على قوم لوط؟! لأن إبراهيم كان رسولاً على لوط والنبيين معه وبعده إلى موسى، فحفاظاً على كرامة القيادة العليا الرسالية، لا بد وأن يبدأ له بما يراد للقيادات الجزئية، وعلى الأقدام.

---

(١) سورة الصافات، الآيتان: ١٠٠، ١٠١.

(٢) سورة هود، الآيتان: ٧٤، ٧٥.

﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾:

ترى ما هو دور إبراهيم في هذا الإنذار بعد الاستبشار؟ هل يسكت راضياً عن تعذيبهم مهما كانوا مجرمين، وبعد أن رضي الله وأراد؟ أم يغتنم الالتماس، لعلّ الله يستجيب له لأنه ليست إرادة حتم؟.. إنه يجادل ربه فيهم بالحسنى التماس العفو وتأخير العذاب: ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾[1] فحلمه يدفعه إلى الجدال، ولكنه بعد أن يعرف حتم الإرادة الإلهية فأوّاه منيب، حليم عن المجرمين ما دام الأمل، أواب منيب إلى الله إذا زال الأمل: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾[2] كما ونجد نفس الحلم في لوط: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾[3] إلا بعدما تبين له كما تبين لإبراهيم من قبل، وهكذا يكون دور الرسالات مع الأمم المتخلفة، حنونة حليمة إلا إذا خاب الأمل وجاء أمر الرب وخسر هنالك المبطلون.

﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾ وهي منضود.

إنها حجارة تخلق من تحجر الطين، المعبر عنها بصيغة أخرى بسجيل: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾[4] ﴿... مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾[5].

وكما أرسلت على أصحاب الفيل ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾[6] وهو

(١) سورة هود، الآيتان: ٧٤، ٧٥.
(٢) سورة هود، الآية: ٧٦.
(٣) سورة هود، الآية: ٧٧.
(٤) سورة الحجر، الآية: ٧٤.
(٥) سورة هود، الآيتان: ٨٢، ٨٣.
(٦) سورة الفيل، الآية: ٤.

معرب (سنك كل) الفارسية: حجر الطين، فهل أن حجر الطين أصلب وأقوى من سائر الحجر وكيف؟!

وبما أنه متحجر عن طين في ضغوط جوية أو تحت الأرضية، وفي حرارة خارقة، إذاً فلا بد وأنه أصلب من سائر الحجر، دون الطين الذي يتحجر بمرور الزمن، وبتعامل الموافقات فإنه أوهن من الحجر الأصل ولا شك.

والسجيل هذا قد يُرسل على المجرمين من الفضاء، من مقاذف الكواكب التي ترمي إلى الشياطين، فالمحترقة منها في الأجواء هي الشهب والنيازك النارية، والواصلة منها إلى الأرض هي الأحجار السماوية التي قد ترمى إلى المجرمين، فهي باحتراقها في الجو، وتبدّل قسم من سطوحها الخارجية إلى الرماد، ومرورها على المياه والرطوبات، ثم رجعها إلى الحالة الصلبة الحجرية تحت عامل الحرارة والسرعة، بعد ذلك تتصلب، وعلّها أكثر مما كانت، حين انفصالها عن مقاذفها، وهذه صورة من صور اصطناع حجارة من طين.

وقد يكون مرسلاً من باطن الأرض، حجارة بركان ثائر يقذف بالحمم الطيني من جوف الأرض، ترسل من قاذفات البراكين، إلى جماعة من المجرمين.

وقد يكون مصطنعاً من غبارات منتشرة بين الأرض والسماء، من الأرض أو السماء، تتحجر تحت ضغوط جوية وموافقات ومنها الحركة والحرارة والرطوبة والرياح.

وأياً كان سجيل المجرمين، فليكن أصلب حجر وأقواه وأشده إيقاعاً وكما في قصة أبابيل، المرسلة على أصحاب الفيل ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ

﴿٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ٥﴾[١] ترى كأنها قنابل ذرية لا تبقي ولا تذر.

ثم السجيل ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ كما هنا، ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ كما في هود ١١: فلتكن محضرة قرب الظالمين، ومعلمة للمسرفين، دون فوضى فيها ولا في إرسالها، ولا المرسل بهم، والمرسل إليهم، وزمان الإرسال ومكانه، وقدر الظلم والإسراف: ﴿مُّسَوَّمَةً﴾: معلمة عند ربك ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾: المجاوزين الفطرة والعقل والدين، ومعلمة للظالمين: المنتقصين، علّ كل طائفة منها لها علامة تخص طائفة من الظالمين المسرفين، أو أن كل واحدة منها تحمل علامة لكلّ منهم، فهي مسومات، كما أن المسرفين دركات، لكلّ ما يستحقه من سجيل وأصل التسويم هو في تسويم الخيل للحرب، أي تعليمها بما تتميز بها من خيل العدو، شبهت بها هذه الحجارة لأنها معلمة بعلامات تدل على مكروه المصابين، فإرسال هذه للهلاك كإرسال تلك للعراك.

وهي كذلك منضودة: ركاماً بعضها فوق بعض، إنْ في السماء أو في باطن الأرض... جنود ربانية تصدر عن مصدر العزة فتذل المسرفين الظالمين.

ولقد كان أمطار السجّيل تتمة التدمير بعد الصيحة: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ٧٣ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ٧٤ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ٧٥﴾[٢] وترى كيف ابتداء العذاب؟:

﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ٣٥﴾:

وهم آل لوط إلا امرأته، فقومه تآمروا في إخراجهم تخلصاً منهم: ﴿فَمَا

(١) سورة الفيل، الآيتان: ٤، ٥.
(٢) سورة الحجر، الآيات: ٧٣-٧٥.

كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[1] : إخراج مهانة، ولكن الله تكفل لهم إخراج كرامة: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾[2] ﴿... كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾[3] أجل - أهله - آله فحسب، كانوا من المؤمنين الذين وجدهم الله:

﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾:

هم آل لوط أنفسهم وكان الخروج ليلاً ﴿... فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾[4] ﴿وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾[5].

﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾:

والآية هي تدميرها التي تضم آيات، والخائفون العذاب الأليم هم المؤمنون: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾[6].

فالمتوسمون وهم المتأثرون يستفيقون من آيات سدوم، فالمؤمن يزداد إيماناً، ومن غير المؤمنين من هم يؤمنون، ومنهم من يتأملون.

---

(١) سورة النمل، الآية: ٥٦.
(٢) سورة النمل، الآية: ٥٧.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٨٣.
(٤) سورة هود، الآية: ٨١.
(٥) سورة الحجر، الآية: ٦٥.
(٦) سورة الحجر، الآيات: ٧٣-٧٧.

﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (٣٨) فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (٤٠) وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ (٤٢) وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ (٤٤) فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ (٤٥) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ (٤٦) وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ (٤٨) وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥١) كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٥٥) وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ (٥٨) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ (٥٩) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ (٦٠)﴾

﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (٣٨)﴾:

كما تركنا في قرية لوط آية للمؤمنين، كذلك تركنا في موسى وعاد

وثمود آيات لهم علّهم يتذكرون، وسلطانه المبين هو مجموعة السلطنة الروحية ببرهانه القاطع القويم، وآياته الخارقة الحسية بعصاه التي تبدلت الثعبان العظيم، وسواهما من آيات، ترى ما كان دور فرعون الطاغية أمام هذا السلطان المبين، الذي أبان الحق بكافة جلواته؟.

﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾﴾:

تولى عن الحجة والسلطان المبين، والرسول الأمين، ترى بأي سناد؟ بسناد ركنه، وهو جانب الشيء الذي يسكن إليه ويعتمد عليه، من عقله الغارب وعقلاء حزبه! ولم تكن حجتهم إلا فريتهم أنه ﴿سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ اعتذار كل عاجز مرتكس العقل، منتكس القلب، لا حجة لهم إلا الخناء والفرية، وإلا الضرب بالقوة إذ لا يفهمون لغة الإنسان.

إنه تولى بركنه بنفسه وحزبه الذي يركن إليهم، لا إعراضاً عن حجة الحق فحسب، بل وملاحقة لأصحاب الحجة أيضاً قتلاً وتدميراً أو تسفيراً، حتى جاء أمر الله وخسر هنالك المبطلون: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾[1]:

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾:

نفسه: إذ ألام نفسه حين أدركه الغرق: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[2] فهذه إلامة نفسه، ثم يلومه ربه ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[3] فالمليم هو الآتي بما يلام عليه، فمن قبل لامه ربه بما طغى، وهنا هو يلوم نفسه إذ يتوب، ثم

(١) سورة الدخان، الآيتان: ٢٣، ٢٤.
(٢) سورة يونس، الآية: ٩٠.
(٣) سورة يونس، الآية: ٩١.

يلومه ربه أنها لا تنفعه عند رؤية البأس، وهذا مثلث اللوم ابتلي به فرعون المليم! ثم نرى الآية الباقية هنا للذين يخافون العذاب الأليم، إنها جسد فرعون الباقي حتى الآن: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾[1] [2] وإنها كذلك آية للطاغين، وإن كان لا يتذكر بها من غرب عقله وعزب ضميره.

﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾﴾:

وآية ثالثة في عاد إذ. . . (ريح عذاب لا تلقح شيئاً من الأرحام ولا شيئاً من النبات وما خرجت إلا على قوم عاد)[3]: عقيم لا تحمل الأمطار، ولا تلقح الأشجار، ولا تعود بخير، ولا تنكشف عن عواقب نفع، فهي كالمرأة التي لا يرجى ولدها، ولا ينمى عددها: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾[4].

ريح عقيم تعقم عن الحياة، وترجع بذوي الحياة وكذا الأموات إلى الرميم:

﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾:

وَي كأنها ريح الجحيم! لا تحمل ماء ولا حياة، وإنما مماتاً، ترمّ ما تأتي عليه وتحوله فِتات (جند من جنود الله)[5] تمشي وتمضي كما أراد الله،

---

(١) سورة يونس، الآية: ٩٢.

(٢) ولقد رأيته أنا في متحف الآثار المصرية بقسم المومياء وقرأت هذه الآية بمجمع كبير من السوّاح واحتاروا من هذا التصادق العجيب بمن فيهم من مختلف الطوائف والأديان.

(٣) نور الثقلين ٥: ٤٠١ عن روضة الكافي عن الإمام الباقر عليه السلام راجع ج ٢٩ الفرقان، وج ٣٠ تجد تفاصيل عن عاد.

(٤) سورة الحاقة، الآية: ٧.

(٥) نور الثقلين ٥: ١٢٨ عن الإمام الباقر عليه السلام: إن لله عزّ وجلّ جنوداً من الريح يعذب بها من عصاه. .

وفيه عن علي عليه السلام: الرياح خمس منها الريح العقيم فتعوذوا بالله من شرها.

إلى تنفيد نقمة الموت أو رحمة الحياة، وكما أن ريح الرحمة من الآيات كذلك ريح العذاب التي اعتبرت في عاد من الآيات: ﴿وَفِي عَادٍ...﴾ آية للمتوسمين، مؤمنين أم فاسقين.

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾﴾:

وآية رابعة في ثمود إذ: قال لهم صالح بعدما عقروا الناقة: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾[1] ومن مُتعهم الممنوحة فيها، محاولة التوبة في هذه الفرصة، وهي من الهداية الإلهية: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾[2]:

﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾﴾:

إذ أمرهم ربهم بعد طغواهم بالتقوى في هذه المهلة، توبة إلى الله ليتوب عليهم، لكنهم عتوا بعدما طغوا: نشزوا ونبوا، رغم أنهم ندموا بعد عقرهم ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾[3] ولكنهم لم يتوبوا ويستغفروا رغم ما أمروا وأمهلوا! ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[4] ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ - ﴿فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾[5] ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ إلى الصاعقة الطاغية كيف تأخذهم بطغواهم، فيا لهم من طغواهم!

﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾:

من قيام: لا عن مواضعهم من وطأة الواقعة، ولا عن قريتهم فراراً عن الصاعقة، ولا قياماً في مكافحة الصاعقة، ولا فيما يردها على أعقابها

---

(١) سورة هود، الآية: ٦٥.
(٢) سورة فصلت، الآية: ١٧.
(٣) سورة الشعراء، الآية: ١٥٧.
(٤) سورة النمل، الآية: ٤٦.
(٥) سورة الحاقة، الآية: ٥.

بتوبة؛ إذ مضى وقتها، ﴿وَمَا كَانُوا۟﴾ في حالتهم الطاغية ﴿مُنتَصِرِينَ﴾ من الريح والصاعقة الطاغية ولا على طغواهم بالتوبة و﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[1].

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾:

وأهلكنا قوم نوح، اذكر قوم نوح، من قبل هؤلاء الأقوام. أهلكناهم لأنهم كانوا قوماً فاسقين: خارجين عن طاعة الله، فإهلاكهم كذلك آية وكما بقيت على شيء من أنقاض السفينة حتى الآن: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[2] [3].

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾:

السماء منصوباً بالمفعولية معطوف على الآيات المسبقة، الآفاقية والأنفسية «وفي الأرض.. وفي أنفسكم» ففي بنائها وتوسيعها آيتان من آي القدرة والرحمة الإلهية، تتأيدان بتقدم العلم، ولا سيما الثانية: إن المملكة السماوية في توسع دائم، فاسم الفاعل موسعون ولا سيما بتأكيدية: (نا) (ل) يوحي بدوام التوسيع: (نظرية التوسعة)!.

ترى أن اتساع مملكة السماء يعم طباقها السبع أيضاً، كما يعم أجواءها وكراتها، ولتصبح ثماني أو أكثر؟ وقد لا تنافيه الآيات المستعرضة لخلقها سبعاً لأنها في عرض بدايتها! إلا أن الحاكية عن كونها سبعاً عند نزول القرآن: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ...﴾[4] متجاوبة مع المصرحة بمنتهى المعراج وهو الأفق الأعلى ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٢.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ١٥.
(٣) راجع ج ٢٩: تجد فيها بشارة محمدية باللغة الآرامية على لوحة من سفينة نوح.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾(١) قد تنافي ازديادها على السبع كنقصانها، اللهم إلا في توسيع جنة المأوى، المحيطة بالسابعة، الواقعة على صرحها، وهي من ضمن السماء.

ثم ترى أن اتساعها هو منذ سبعها؟ أم منذ خلقها؟ إن إفراد السماء هنا يوحي بأنه منذ خلق الدخان (الغاز) السماوي، الثائر من تفجر المادة الأم (الماء) فمن توسيعها جعلها سبعاً، ثم خلق أنجمها: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾(٢).

ثم السبع بجنتها المأوى، وبأجوائها وأنجمها مستمرة في التوسع إلى قيامتها، والعلم حتى اليوم لم يكشف النقاب إلا عن شيء من توسعها في أنجمها وأجوائها.

إن آخر ما أنتجته التحقيقات الفلكية أن (قطر كل سلسلة سحابية من الجزائر السماوية أربعون ألف سنة ضوئية، والقسم المركزي منها كتلة نارية إلكترونية ذرية، تدور عليها السلسلة السحابية، ونتيجة للدوران تنفتح وتنتشر القطر السحابي الحلزوني لحد ما، وتصبح كقطع سحابية مضيئة، أو مجموعة كواكب، وبعد آلاف الملايين من السنين ينمحي المحل الأصل للسلاسل الحلزونية، وبدلاً عن القطع المضيئة التي هي مراكز الكواكب وأصولها، تظهر في صحنة الفضاء كواكب منفردة، وهكذا يكون دوران المجموعات السحابية مولدة للكواكب وسائر النقط النورانية في الفضاء).

كما وأن بعض الكواكب تقوم قيامتها قبل القيامة الكبرى، إلا أن

---

(١) سورة النجم، الآيتان: ١٤، ١٥.
(٢) سورة فصلت، الآيتان: ١١، ١٢.

المواليد منها أكثر من الأموات، وإلا لم يكن لتوسع المملكة السماوية من معنى!.

ثم الأيدي الإلهية المبنية بها السماء، والموسعة بها، هي أيدي العلم والقدرة والرحمة والحكمة، كما أن (نا) هنا وهناك، توحي بأن الله جمع في هذه السماء، كما في الأرض وأنفسكم، جمع كافة أياديه ورحماته، الممكن جمعها في الخلق، فما هو بالخلق وعلى الخلق بضنين!.

﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

توحي بأن الأرض لم تكن مفروشة ممهدة لأهليها منذ خلقت ولفترة لا نعلم عنها شيئاً، ثم شاءت إرادة الرحمة الإلهية أن تفرشها وتمهّدها للأهلين، ولا سيما لنا كما جعلت كذلك ذلولاً: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾[1] [2] أعدها الله مهداً ذلولاً، وهما يوحيان باليسر والراحة ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ بما خلقنا مهداً ناعماً ومحضناً رفيقاً.

﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾:

آية عديمة النظير في كيفية البرهنة على وجود الله وتوحيده، تحمل أعمق الأدلة الواقعية والعقلية الدالة على الله: «ظاهرة التركب في كل شيء»! ما يدل دلالة قاطعة لا محيد عنها على الحاجة الذاتية في كل شيء، في أعماق ذاته، إلى ما وراءه، الذي يباينه في كيانه ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾؟

هذه الآية تتطلب في إيضاح ما تعنيه دراسة واسعة عميقة فصلناها في (حوار)[3] ونستعرض هنا ما يناسب موسوعتنا، صادرين عن آيات الله البينات.

---

(١) سورة الملك، الآية: ١٥.
(٢) راجع الفرقان - ج ٢٩ حول آية الذلول.
(٣) راجع كتابنا: (حوار بين الإلهيين والماديين).

إنها تحكم على كلّ شيء بكونه زوجين، بغية التذكر: أن الكل فقراء إلى الله، فالفرار عن الكون الفقير اللاشيء، إلى المكوّن الغني الذي خلق كلّ شيء.

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ﴾: ما كنا نعرفه، وما عرفناه بالجهود العلمية، وما نحن في سبيل معرفته، وما لن نعرفه لاختصاص معرفته بمكونه: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]: ما لا يعلمونه حالاً، أو ولا استقبالاً، لاستحالة أن يعلمه إلّا الله كالمادة الأمّ: المادة الأولية الفردة التي خلقت لا من شيء، ومنها يخلق كلّ شيء، فلا يعلمها إلا الخلاق العليم، مهما علم الخلق عن مواليدها شيئاً.

فالشيء - أياً كان - كيانه أنه زوجان، في أقل تقدير، شريكان في كونه وكيانه، لولاهما أو أحدهما، لم يكن هو شيئاً قط، أو ليس هو ذلك الشيء.

إن الشيء المادة كسائر المواد، أو المادي كسائر الأرواح، إنه ككلّ ودون استثناء، محكوم بازدواجية الكون والكيان، كيفما كان وأياً كان، فلا تجد، ومحال أن تجد: خلقاً هو فرد كائن واقع دون قرين، وإن كان في المادة الأم نفسها، كما وأن الزوجية والتركّب والأبعاد لزام الكيان المادي ما دامت كائنة، فإذا زالت عن الوجود زالت الزوجية كما تزول المادة نفسها، وكما أنها توجد لأوّل وهلة مركبة الكيان.

إن ازدواجية كيان المادة قد تتبنّى كونها كأصل، ولأوّل ظاهرة من مظاهرها كالمادة الأم، وقد تتبناها كحالات غير أوّلية، كالحالة الشخصية: موجبة أو سالبة، كأجزاء للذرات، ثم الذرية، ثم الجزئية، ثم العنصرية، ثم العناصرية، ولا بسيط مستحيل التجزؤ فيزيائياً هنا وهناك، اللهم إلّا المادة الأمّ بزوجيها، فإن تجزئتها هي إعدامها، كما أن إيجادها هو خلقها زوجين

---

(١) سورة يس، الآية: ٣٦.

توأمين، ثم وليس لكل من زوجية زوجان، كما لا يمكن كون كلّ منهما بكيان مستقل عن زميله.

لقد كانت البشرية تزعم أن العناصر الأربعة بسائط، إلى أن كشفت النقاب عما دونها من جزئيات، ثم عن ذرات أنهتها حتى الآن إلى زهاء ١٠٦ ذرة، زاعمة أنها بسيطة: أجزاء لا تتجزى، وأقل تراكيبها هما الشحنتان: الموجبة البروتونية، والسالبة الإلكترونية، ثم ظهرت على أجزاء أخرى لها كالنيوترون والبوزيترون، واستطاعت أن تفتح القلاع الذرية بمدفعيات جبارة علمية، فتجزئها إلى شيء من أجزائها، وتبديل عناصر إلى أخرى بقذف القلاع الذرية في نواتها، وقد سماها العلماء بالكيمياء النواتي.

فالبشرية على ضوء العلم والجهود الجبارة استطاعت حتى الآن أن تعرف تراكيب وأزواجاً فيما لم يكن بحسبان: ﴿وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ولكن هل للإنسان أياً كان، وكيفما تقدم في العلوم، أن يعرف حقيقة المادة الأم فضلاً عن زوجيها؟ من المؤكد أنها ﴿وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ﴾ نهائياً، فإن المادة الأم هي ملكوت المادة، مما يختص علمه بالخلاق العليم.

إن الذي يستحق اسم الشيء، المحكوم عليه بأزواجية الكيان، ليس إلّا المادة الأم، وبأحرى مواليدها الذرات بأجزائها، والجزئيات، وسائر العناصر، وأما الزوجان للمادة الأم، فهما معاً شيء وأم الأشياء، وأما كل واحد منهما مستقلاً عن الآخر في واقعه فليس شيئاً حتى يحمل زوجين أم سواه، اللهم إلّا في تصور مبهم في أعلى صروح العقل، أما في الواقع الخارجي فليس بالإمكان كونه ولا كيانه إلا مع زميله التوأم، كما يخلقان معاً هوية وزمناً، ويعدمان كذلك مع بعض.

وإذا سئلنا: ما هي حقيقة كلّ منفصلاً عن الآخر؟ فالجواب: أن لا حقيقة إلا الخيال!.. وإذا كان عدماً، فكيف بالإمكان أن يتحصل من توأمين عادمين

كائن مادي يحمل زوجين كائنين؟ فالجواب: أنهما معاً خلقا لا من شيء، لا من شيء كان قبلهما، لا من اللاشيء، وإنما: لا من شيء، فكل منهما إذاً قبل الانضمام، إنه قبل الوجود، كسائر الأعدام الممكنة الوجود، وهما حال الانضمام موجود واحد، وكل منهما مستقلاً عن الآخر مستحيل الوجود، ومع حال الآخر مندغم الكيان معه كالعكس، فالمجموع - إذاً - مادة فردة هي أم المواد، وكل منهما مادي، لا مادة ولا لا مادة، ليس مادة لعدم تركبه والمادة مركبة أياً كانت، ولا لا مادة تعني العدم المطلق لأنه موجود ضمن المادة الأم، أم بصيغة أخرى، هما موجودان معاً بعد خلقهما كمادة واحدة أمّ، وهما معدومان معاً قبل خلقهما، ثم لا برزخ بين حالتي الوجود والعدم، إلا فرض انفصال كل عن توأمه، فرضاً غير واقع مع الحفاظ على كيان الأم، وفيما يكون واقعاً فليس إلا بإعدامهما بإعدام الأم.

ومن ناحية أخرى إن القول باللانهاية في أجزاء المادة ممكنة التجزؤ أم مستحيلته، إنه قول بجمع الأجزاء المادية اللامحدودة في المواد المحدودة، جمعاً بين المتناقضين، وهو يحيل الكيان المادي على أية حال.

وفيما إذا سئلنا: هلاّ يمكن تجزئة المادة الأم، وإن كانت بالقدرة الإلهية؟ فالجواب: إن التجزئة هنا بمعنى انفصال الزوجين وبقائهما أو أحدهما منفصلاً عن الآخر، إنها مستحيلة وليس للمحال جواب! وهي بمعنى انفصالهما عن الوجود، وانعدام المادة الأم جذرياً، إنها بهذا المعنى ممكن، إذ القادر على الإيجاد قادر على الإعدام، لو صح التعبير عن إعدام المادة الأم بتجزئتها! ولكنه إعدام لها كما أوجدت، أوجدت زوجين مع بعض، وتعدم كذلك زوجين مع بعض، وليس لأحدهما كيان مستقل عن توأمه واقعاً على أية حال.

وفيما إذا سئلنا: ترى كيف بالإمكان أن تكون المادة الأم ذات زوجين فقط، والكيان المادي لزامه - أياً كان - أبعاد ثلاثة، وكيف يحمل زوجان بسيطان أقل من ثلاثة أبعاد؟

فالجواب: إن الثلاثة لزام مواليد الأم، الزائدة في تراكيبها عنها، وأما هي فيكفيها بُعدان، وهما أقل تقدير للكيان المادي، بُعدان فيزيائيان، أم هندسيان! وقد يعنيهما الإمام علي عليه السلام في قوله: (... دالة بتفريقها على مفرقها وبتأليفها على مؤلفها وذلك قوله عز وجل: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ففرق بينها وبين قبل وبعد ليُعلم أن لا قبل له ولا بعد..)[1].
والإمام الرضا عليه السلام في قوله: «فرق الله بالأشياء بين قبل وبعد ليُعلم أن لا قبل له ولا بَعد»، إذ يفسران الزوجين بقبل وبَعد: بعدان هما لزام المادة في كيانها الذاتي الأولي، سواء أكانا زمنيين، فلكل كائن قبل - إذ لم يكن - وبَعد فسوف لا يكون، والله تعالى قبل القبل أزلياً وبَعد البَعد أبدياً، أو كانا ماهويين داخل الذات وهما البُعدان فيزيائياً، أم هندسياً، بُعدان مكانيان قبل وبعد، والله تعالى خارج عن المكان وعن الأبعاد أياً كان.

وأخيراً ما هي الصلة بين الزوجين هذين وبين تذكر الألوهية وراءهما والفرار إلى الله منهما؟.

أقول: إنه تذكر للغافلين عن الحيطة الربوبية بالأشياء، إن الفقر والحاجة مندغمان في أصول كيان المادة، ولنأخذ المادة الأم - وهي أغنى المواد وأولاها - مثالاً لهذه الذكرى.

هذان الزوجان كما عرفناهما، كل منهما ليس في ذاته إلا (لا) لا يملك كوناً ولا كيانا فضلاً عن تكوين زميله، وكل منهما متوقف في كونه على

(١) التوحيد للصدوق بإسناده عن الإمام الصادق عليه السلام قال: بينا أمير المؤمنين يخطب على منبر الكوفة إذ قام رجل... فقال: يا أمير المؤمنين! هل رأيت ربك؟ فقال... وهي خطبة توحيدية عظيمة.. (راجع كتابنا «حوار» في شرح الخطبة).

الآخر كالعكس، لا توقف المعلول على علته، إذ لا تتصور العلية لما ليس له نصيب من الوجود، ولا المعلولية لما لا يمكن أن يوجد مستقلاً عن زوج، إذاً فكل منهما بحاجة إلى زميله في إمكانية إفاضة الوجود عليه، فلا تجد هنا وهناك إلا فقراً، فإمّا أن يُحرما عن الوجود، أو يفيض لهما الوجود خلاق الوجود، أفليست هذه الزوجية في كل شيء، هي التي دلتنا على الحاجة الذاتية في كل شيء؟ إلى مَ؟ هل كل إلى مثيله؟ والفقر مع الفقر لا يزداد إلا فقراً! أم إلى غير مثيله؟ فهو الله تعالى شأنه الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[1]! ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾: فرار العاقل المتذكر، من اللاشيء إلى مَن خلق كلّ شيء لا من شيء، من الفقر المحض إلى الغنى المطلق، من الكائنات - كل الكائنات - التي هي أزواج، ولا أقل من زوجين، إلى الواحد الأحد الفرد الصمد ممن لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياتاً ولا نشوراً، إلى من بيده ناصية كل شيء.

تُرى هل توجد غنى ذاتية في أيّ شيء، والزوجية آية الحاجة في كل شيء؟ سواء أكانت في المادة الأمّ حيث الزوجان هما كيانها كأم في أصل كونها! وإذ لم يكن إفاضة الوجود من كل للآخر لمكان استحالتين فهي بحاجة ماهوية إلى ما وراءها من كائن ليس زوجين وهو الله الفرد الأحد.

هنالك استحالة أولى هي علية اللاشيء، فإن كلًّا من الزوجين مستقلاً عن الآخر ليس شيئاً، واستحالة ثانية هي لزوم تقدم الشيء على نفسه لو اعتبرنا كلًّا منهما شيئاً، أن يكون الشيء علة لما هو معلول له، فحال كون أحد الجزئين علة للآخر يجب تقدمه عليه، وحال كونه معلولاً له يجب تأخره عنه، ولزامه تقدم وتأخر شيء عن آخر، والنتيجة تقدم الشيء على نفسه وتأخره عنه!

(١) سورة الشورى، الآية: ١١.

هذا هو الفقر الذاتي في المادة الأم، وبأحرى في مواليدها، فالشحنة في كيانها الخاص بحاجة إلى ازدواجية ما، وكذلك الذرة، والجزئي، ومختلف العناصر.

فأي باب ندق من كائنات العالم نسمع صرخات الفقر والعدم من ذواتها، فإلى من هي مفتقرة إلا إلى الغنى المطلق؟ ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾؟

وهنا التعبير بالفرار لطيف جداً، وعجيب حقاً، فهو يوحي بالأثقال والأغلال التي تثقل وتغل النفوس البشرية إلى هذه الكائنات الحقيرة الفقيرة، فتأسرها عن الانطلاق، ونحصرها في عقال الأوهاق، وتنسى أخيراً أن لها ربّاً!

فلا بد - لكي نتحلل عن أسرها وحصرها - أن نعرفها أولاً بالفقر والعدم الذاتي، ثم نفر بكل ما نملك من سرعة وجلادة، إلى الله الذي خلقها ويفيض لها دائباً، نفر بأجنحة العقل واللّب والعلم، مستخدمين كافة الطاقات، ولكي لا نرجع مغلولين لو تباطأنا في السير، أو أخطأنا المسير، والله هو الولي القدير، ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ...﴾:

ثم الفرار إلى الله درجات، كما الفرار عنه دركات، فأولى درجات الفرار إلى الله رفض الشركاء والأنداد عنه، وأشرفها وأولاها الفرار عما سوى الله، وعن نفسك أيضاً، إلى الله، وإلى حد الدنو والتدلي ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾[1] أن يصبح كله معرفة لله، وعبادة لله، ناسياً نفسه إلا تذرعاً بهما إلى ابتغاء مرضاة الله، ومن صح فراره إلى الله صح قراره مع الله، فلا تجد فيه حالة مع من سوى الله إلا الفرار، ومع الله إلا القرار.

(١) سورة النجم، الآية: ٨.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾:

فتعدد الآلهة يزيف مكانة الألوهية، ويجعل كلاً من الشركاء قريناً وزوجاً للآخر، فيعود الكل محتاجين كالخلق، نتيجة الزوجية والتعدد: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[١]: الآلهة إلا الله، كما فسدتا الأرض والسماء، فكيف يكون التركب وازدواجية الكيان دليلاً على الفقر والحدوث في غير الآلهة، وليس فيهم أنفسهم؟!.

﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾:

قولة كافرة ساخرة مائرة من مكذبي الرسل طوال التأريخ، كأنهم تواصوا بها وتواطؤوا عليها!: ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ بحق الرسل والرسالات الإلهية، ولكي يتخلصوا بهذه الرمية الجنونية عن أسر التشاريع وحصرها إلى حريات الإباحيات اللامحدودة، التي تجعل من الإنسان حيواناً وحشياً وأشرس وأطغى!.

﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾:

كأنما تواصوا بهذا الاستقبال لرسل الله على مدار الزمن، ولكنهم أينما كانوا مجتمعين؟ وهناك مفرقات الزمن! فلا تواصي واقعياً، وإنما هي طبيعة الطغيان تجمع بينهم في فريتهم هذه، طبيعة النشوز عن الحق، متجاوبة مع العجز عن رد الحجج البالغة، تخلقان على مدى القرون رفض الرسالات بتهمة السحر أو الجنون، فالسحر خلو عن أية حقيقة، والجنون لا يعرف الحقيقة - كيف والعقل أحياناً يشذ عنها فضلاً عن الجنون، مما أجمعت البشرية على رفضها، وهكذا يشوّه للطغاة سمعة الحق، فيضللون الجهال «فهنالك استحوذ الشيطان على أوليائه ونجى الذين سبقت لهم من الله الحسنى».

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٢.

وحينما يصل أمر الطغيان والتعامي عن الحق إلى هذه الدركات والدمدمات:

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾:

تول عن تذكير هؤلاء الأوغاد الطغاة، الذين لا تزدادهم الذكرى إلا عتواً ونشوزاً ﴿فَمَآ أَنتَ﴾ إذاً ﴿بِمَلُومٍ﴾ حيث اللوم ليس إلا على من قصر فما ذكّر وما أنذر، وأما أنت فقد بلغت من الذكر الإنذار مبلغه الأخير، فمسموح لك حينئذٍ أن تتولى عنهم، وتواصل في تذكير من سواهم غربلة لهم علهم يتذكرون ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: الذين يؤمنون بالحق إن وجدوه، فلا يدفعك اليأس عن الطاغين، أن تتوانى في تذكير الباقين، وهكذا تكون الذكرى دوماً، أن تكوّن الإيمان الفعلي لمن يتحرى الحق فتذكره، وتزيد في إيمان الماضين في الإيمان، الماشين على صراطه، وتظهر طغوى العاتين المتواصين على الحق، مثلث النفع للمؤمنين: فالذكرى نفاعة للمؤمنين - أياً كانوا - في أنفسهم، وتنفعهم ضد الكافرين إذ تظهر المستور من غيهم العامد، وكل ما ينفع المؤمنين فهو يضر الكافرين.

إن مهمة رسل الله هي التذكير والإنذار والتبشير لتحقيق الغاية القصوى من خلق المرسل إليهم:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾:

إن الحكيم لا يفعل فعلاً إلا لحكمة وعائدة، راجعة إليه إن كان مستكملاً لنفسه كسائر الخلق، أم إلى غيره إن كان مكملاً له دون أن يعود إليه، لكماله وغناه كما الله وهكذا تكون أفعال الله تعالى فإنه الغني المفيض، والخلق فقراء يفاض عليهم.

وعبادة الجن والإنس لله تعالى، فائدة عائدة إليهم لا إلى الله، وإن كانت غرضاً لخلقهم مقصوداً، وكما توحي به ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾: أن لخلقهم

غرضاً هو أن يعبدوا، فالخلق منه تعالى، والعبادة منهم، فعائدة إليهم، فلم يقل «لأعبد» كي لا يظن أنه هو المقصود من خلقهم، أن يصبح معبوداً لهم كما كان معبوداً لسواهم، فليس لله تعالى نصيب من عبادتهم، ولا يريده: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ﴾: معنوي ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾ من رزق مادي، ومن المعنوي استكماله سبحانه بأن يعبد، فهو لا يريد إلا استكمال الخلق بأن يعبدوه، لا استكماله بأن يُعبد، فقد كان ولا يزال معبود الملائكة المقربين، الذين لا كيان لهم إلا عبادة رب العالمين، فما هي عبادة الجن والإنس بجنبها إلا هزيلة قليلة، اللهم إلا المعصومين منهم وهم الأقلون.

وعبادة الله لخلقه لا تعني إلا اتقاءهم - على ضوئها - عما يضرهم أو يصدهم عن الكمال والاستكمال، فهي لا تقي إلا صاحبها دون سواه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[1]: اعبدوه لعلكم تتقون - خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون، ولا ذريعة للتقوى إلا العبادة، ترى أن تقوى العابدين عما هم يحذرون، هي راجعة إلى رب العالمين؟!

فالعبادة، والتقوى الناتجة عنها، هي الهدف الرئيسي من خلق الجن والإنس، وهي الرحمة المقصودة من خلقهم: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ﴾[2] خلقوا للرحمة، لا للعذاب ومنه الاختلاف، وإن كان الكثير منهم يميلون للعذاب بما قدمت أيديهم، وكأنهم ذُرئوا لجهنم: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ﴾[3] لا ذرءاً وخلقاً هادفاً للعذاب، وإنما للرحمة، ولكنهم - ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾[4].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١.
(٢) سورة هود، الآيتان: ١١٨، ١١٩.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

إنه ليس من الله إلا أن يعبدوه ويتقوا فيرحموا ويثابوا، وكما فطرهم على معرفته وعبادته ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١) وكما زادهم هدى مجملة الرسالات ومختلف ألوان الدلالات، ولكن أكثرهم عموا وصموا واستحبوا العمى على الهدى.

فخلقهم للعبادة والتقوى، ودلالتهم لها، عمل إلهي أصيل، ورحمة إلهية أصيلة، ثم ذرئهم لجهنم ليس أصلاً في خلقهم، وإنما كنتيجة لطغواهم، فلم يخلقهم إلا لتقواهم، لا كالأنعام أو أضل، وإنما في أحسن تقويم ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾(٢) كأصل إلهي ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾(٣) كجزاء لما قدمت أيديهم، وإن الله ليس بظلام للعبيد.

ترى لو أجمع الجن والإنس على الكفر بالله هل يضرونه في ذاته أو صفاته؟ أم لو أجمعوا على عبادته هل ينفعونه شيئاً؟ كلا! ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾(٤) ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ. . .﴾(٥). فكفركم عليكم لا عليه، وشكركم لكم وليس له.

إذاً فالعبادة والتقوى هي الغاية الوحيدة المعنية من خلقة الجن والإنس، تتمثل في عقائد وأعمال وأقوال وأحوال، من قام بها وأداها فقد حقق غاية خلقه، قدر القيام والأداء، ومن قصر فيها أو نكل عنها فقد أبطل معنى خلقه وظلت حياته فارغة مما أراده الله، خاوية عما هيأه الله.

---

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.
(٢) سورة التين، الآية: ٤.
(٣) سورة التين، الآية: ٥.
(٤) سورة إبراهيم، الآية: ٨.
(٥) سورة الزمر، الآية: ٧.

ولا تحصر العبادة بالعلاقات الفردية: ذكراً وصلاة - بين العابد والمعبود، فإنها تشمل سائر جوانب الحياة وزواياها، أن يخضع لأمر الله ونهيه في كافة شؤونه، لحد تصبح أعماله وأقواله وحركاته وسكناته كلها عبادة لله في مختلف المحاريب، : محراب المسجد ومحراب الحرب، محراب السياسة والاقتصاد، محراب الثقافة والاجتهاد، محراب الأعمال الفردية والجماعية، المادية والمعنوية، لتصبح كلها محاريب يعبد ويطاع فيها الله، ويحارب فيها الشيطان ويعصى، مهما اختلفت أشكال هذه المحاريب وصور العبادة فيها.

إذاً فليست عبادة الله وتقواه إلا لصالح العابد المتقي، كما لا تعني سبيل الله إلا سبيل صالح الإنسان، التي لا يمكن سلوكها سليماً إلا على ضوء هداية الله وعبادته.

إن عبادة الله تتوسط بين معرفته وتقواه، فالعبادة دون أية معرفة - لو أمكنت - فهي غباوة، والعبادة المتخلفة عن نتاج التقوى ليست إلا طغوى في صورة العبادة، فكلما ازدادت المعرفة بالله ازداد العارف عبادة لله فتقوى، وكلما ازدادت العبادة فالتقوى، ازدادت المعرفة، لذلك فقد تفسر العبادة هنا بالمعرفة تفسيراً بالمقدمة والنتيجة، وقد تُجعل الغاية من الخلقة المعرفة، وكما يروى عن الحسين بن علي عليه السلام: «أيها الناس إن الله عز وجل ذكره ما خلق العباد إلا ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه، فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة من سواه...».

ثم ترى هل العبادة المقصودة من الخلق هي اللااختيارية التكوينية! وهي لا تخص الجن والإنس! فـ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾[1] أم هي الاختيارية التشريعية؟ وهي قليلة قليلة، بجنب الكثير من

(١) سورة مريم، الآية: ٩٣.

العصيان والطغيان! ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾[١] فكيف تعتبر غاية وحيدة للخلقة؟.

نقول: إن التكوينية منها كائنة لا محالة فليست هي الغاية، والتشريعية هي المقصودة تخييراً لا تسييراً، فعلينا العمل إذ يسرنا الله لما له خلقَنا، وكما يروى عن الرسول ﷺ: «اعملوا فكل ميسَّر لما خُلِق له» وحصول هذه الغاية المجيدة في الأقلين كالمرسلين وسائر المعصومين، وكالصالحين، يكفي حكمة لخلق الجنة والناس أجمعين، مهما انفلت الكثيرون من تحقيق هذه الغاية وتذرعوا للجحيم وكأنما ذرئوا لها!.

فالعبادة هي غرض اختيارى للخلق، يحصل ممن يختارها، ثم الفالت عن هذا الغرض لا يجعل خلق نفسه عبثاً كفعل الله، وإنما عبثاً كفعله نفسه، ثم وهناك غايات أخرى من خلقه.

فهنا الغرض العبادي من خلق الجن والإنس حاصل كتشريع واختيار، وغير حاصل كتكوين وإجبار، فلم تكن العبادة المسيّرة المجبر عليها غرضاً لكي يكون الخلق إذاً عبثاً! حيث المستثنى منه في الآية ليس كل شيء، وإنما «لشيء من الأفعال المختارة» استيحاء من المستثنى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ﴾ لشيء من الأفعال الاختيارية ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ فالعبادة - وهي عمل تشريعي اختياري - لا تستثنى إلا عن أضرابها من الأمور الاختيارية: طاعة ومعصية وسواهما، فقد استثنيت الطاعة عن هذا المثلث، ثم ولا يعني هذا الاستثناء حصر الغاية من الخلقة في العبادة، حتى يخلو خلق غير العابدين عن أية غاية، وإنما هي أشرف الغايات، فالتخلف عنها ينزل بنفسه عن درجات معنية إلى دركات.

---

(١) سورة سبأ، الآية: ١٣.

﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ۝٥٧﴾:

فالرزق يعم رزق الروح والجسم، فما أريد الالتذاذ من عبادتهم فلست بمستكمل، ولا أن يطعمون، فأنا مجرد عن الجسم وحاجياته.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ۝٥٨﴾:

هو الرزاق لا سواه، وله القوة لا سواه، وهو المتين لا سواه، فإنهم مرزوقون ضعفاء هزلاء.

«اللهم إني أخلصت بانقطاعي إليك، وأقبلت بكلي عليك، ورأيت أن طلب المحتاج إلى المحتاج سفه من رأيه، وضلة من عقله، فكم قد رأيتُ يا إلهي من أناس طلبوا العز بغيرك فذلوا، وراموا الثروة من سواك فافتقروا، وحاولوا الارتفاع فاتضعوا.. فأنت يا مولاي دون كل مسؤول موضع مسألتي، ودون كل مطلوب إليه ولي حاجتي»[١].

وفي حديث قدسي يرويه الرسول ﷺ: «يا بن آدم؟ تفرغ لعبادتي املأ صدرك غنىً وأسدّ فقرك، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسد فقرك»[٢].

وترى ما هي الحِكَمة في تقدم الجن هنا - وفي موقف العبادة - على الإنس، والإنس أحسن منه تقويماً وأفضل تقييماً، وقد اختصت الرسالات الأصيلة بهم دونهم وهم فروع؟.

علّ من الحكم في تقدمهم ذكراً تقدم خلقهم: ﴿وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾[٣] وأنهم أكثر من الإنس: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ﴾[٤] وعصيانهم كذلك أكثر لكثرة التخلف والعدد، فليتقدموا في موضع التأنيب،

(١) من صحيفة الإمام علي بن الحسين السجاد عليه السلام.
(٢) الدر المنثور ٦: ١١٦ - أخرج أحمد والترمذي وحسنه وابن ماجه عن أبي هريرة عنه ﷺ.
(٣) سورة الحجر، الآية: ٢٧.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٢٨.

حيث الآية هي آخر رمية على العاتين هنا، أن في انفلاتهم عن عبادة الله انفلات عن الهدف الأصيل من خلقهم، وكما نرى الجن تتقدم في أمثالها: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ...﴾[1] وسوف يتقدمون في النار: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِ﴾[2].

ومن ثم يتفرع على هذه الحجج الدامغة أن يتذكر الظالمون ولو شيئاً ما فلا يستعجلون:

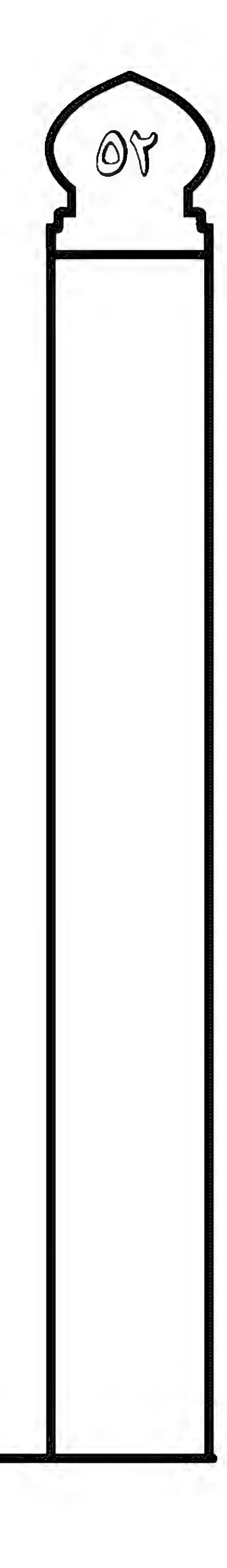
﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبٗا مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ ۝٥٩ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ۝٦٠﴾:

لقد عرفوا ذنوب أصحابهم المسبقين بذنوبهم: ذَنبهم الطويل تبعةً لذنوبهم، أن أتاهم العذاب باستعجالهم قبل يومهم الذي يوعدون، وليعرفوا من هذه الحجج الباهرة أن العذاب الموعود يستقبلهم لأجله، إذاً ﴿فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ﴾ كما استعجل أصحابهم بقولهم ﴿أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾؟[3] ولِمَ يستعجلون؟ بعد الذي سمعوه من تبعة الاستعجال للسابقين، وبعد الذي عليهم أن يتأكدوه من العذاب الحتم يوم الدين!. ﴿فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ﴾ نهي أن يستعجلوا الله في العذاب[4].

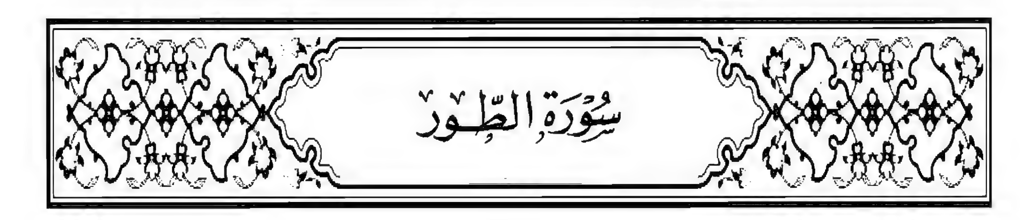
﴿فَوَيۡلٞ﴾ كل تأوه وتحسر مما عملوا ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من قبل وفي هذا ومن بعد: ﴿مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾ يوم الدين - يوم هم على النار يفتنون.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٣٠.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٣٨.
(٣) سورة الذاريات، الآية: ١٢.
(٤) كسر النون هنا دليل على حذف ياء المتكلم ونون الجمع محذوف بجزم النهي.




# سُورَةُ الطُّورِ




مكية - وآياتها تسع وأربعون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ

﴿٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ٢٨﴾

﴿وَٱلطُّورِ ١﴾:

قسماً بالطور، وحق له أن يقسم به، وكما يذكر في القرآن اثنتي عشرة مرة: «الطور الأيمن.. طور سيناء.. طور سينين» فإنه مهبط الوحي ومحطه على موسى الرسول عليه السلام وعلى حد المروي عن الرسول الأقدس صلى الله عليه وآله وسلم: «الطور من جبال الجنة»[(١)] ولا يعني إلا تطوره - كأنه - إلى جبال الجنة، لنزول الكتاب المسطور فيه على نبي محبور.

﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ٣﴾:

هو التوراة التي أنزلت على موسى إذ ناداه ربه في الواد المقدس طوى، مسطوراً بقلم القدرة والرحمة الإلهية: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ...﴾[(٢)] واللوح هو اللائح الواضح وهو الرق المنشور، ألواح هي رق منشور نزلت على موسى في جبل طور.

فالرق ما يكتب فيه شبه الكاغذ، لكنه يختلف عنه اسماً ورسماً لأنه إلهي وذاك بشري، كما المسطور فيه يختلف عن المسطور فيه، والمنشور من الرق ما ليس فيه لف وخباء، وإنما نشر بجلاء، فكله نور.

وخير ما يعبر عن الطور ورقه المنشور، بعد القرآن، هو ما يروى عن نبي القرآن: «الحمد لله الذي خلق النور، وأنزل النور على الطور، في كتاب مسطور، في رق منشور، بقدر مقدور، على نبي محبور»[(٣)].

(١) الدر المنثور ٦: ١١٧ - أخرج ابن مردويه عن كثير بن عبد الله عن أبيه عن جده عنه صلى الله عليه وآله وسلم.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٤٥.
(٣) نور الثقلين عن مهج الدعوات لابن طاوس عن فاطمة الزهراء عليها السلام عن أبيها صلى الله عليه وآله وسلم:

وإنما يقسم هنا بالطور وكتابه النور، وقبله كتب نزلت على أنبياء عظام كنوح وإبراهيم عليه السلام لأن التوراة هي أول كتاب مفصل سماوي، يحمل من شرائع الله ما لم يحمله كتب قبله، اللهم إلا ضوابط عامة.

﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾﴾:

ثم ويقسم ثانياً وأخيراً بالبيت المعمور، عله البيت العتيق المعمور قبل كل بيت ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[(١)] بما في حياله من بيت معمور في السماء السابعة.

وكما نزل وحي القرآن على البيت المعمور على حد المروي عن الإمام الصادق[(٢)] فلا يمنعه أن يكون في السماء أيضاً بيت معمور بحيال الكعبة، تعمره الملائكة بما يكون منها فيه من العبادة[(٣)] فالرسول صلى الله عليه وآله وسلم هو أول العابدين؟، أو هو بفناء البيت الحرام لو سقط عليه[(٤)] في السماء السابعة[(٥)] أو أياً كان، فهو بحذاء الكعبة[(٦)] وإن شرف الكعبة بما في حيالها من بيت السماء وشرف البيت المعمور السماوي أنه كله حاصل في بيت الرسالة المحمدية،

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٦.

(٢) نور الثقلين ٥ : ٦٢٤ عن الكافي عن حفص بن غياث عنه عليه السلام قال: نزل القرآن جملة واحدة في شهر رمضان إلى البيت المعمور..

(٣) نور الثقلين ٥ : ١٣٦ عن أمير المؤمنين عليه السلام.

(٤) الدر المنثور ٦ : ١١٧ - أخرج ابن مردويه عن عبد الله بن عمر رفعه إليه صلى الله عليه وآله وسلم أن البيت المعمور بحيال الكعبة لو سقط شيء منه لسقط عليها، يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، والحرم حرم بحياله إلى العرش..

(٥) الدر: في شعب الإيمان عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «البيت المعمور في السماء السابعة» أقول: وأحاديث الفريقين مجمعة على كونه في السماء السابعة فوق العرش، إلا رواية يتيمة رواها في المجمع عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: البيت المعمور في السماء الدنيا.. وعن ابن عباس عنه صلى الله عليه وآله وسلم يقال له الضراح وهو بفناء البيت الحرام.

(٦) الدر المنثور ٦ : ١١٨ - أخرج جماعة من الحفاظ وأرباب المسانيد عن علي عليه السلام أنه السماء وقرأ الاية.

المعمور فوق كل معمور وقبل كل معمور، فإنه نور على نور، وما البيوت المعمورة الأخرى إلا تقدمات وتهيؤات لهذا البيت الطاهر الذي لا يدانيه أي بيت ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾(١)!.

ومن ثم بيت الرسالة القدسية المحمدية الذي هو أعمر البيوت في بيوتات الرسالات الإلهية، أرضية وسماوية، بشرية وملائكية أم ماذا!

هذا البيت المعمور الذي يضم في جنبيه كافة بيوتات الوحي وزيادة تجعلها خاتمة الرسالات وأفضلها.. ثم لا يقسم بالوحي الإنجيلي بين الطور والبيت المعمور لأنه لا يستقل عن وحي التوراة إلا بتوجيهات أخلاقية دون أية تشريعات زائدة عليه أو مختلفة عنه، إلا شذاذاً هامشية تحمل رفع عقوبات فرضت على المتخلفين من بني إسرائيل!

﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥﴾:

هو السماء المرفوع فوقنا ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ وهو السماء المحمدي أيضاً، مرفوعة فوق سماوات الرسالات وأراضيها، الرسل والمرسل إليهم، ولقد انزل الذكر الرسول علينا من على أرفع سماوات الوحي ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝١٠ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ...﴾(٢).

﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦﴾:

والتسجير: هو تهيج النار وتسعيرها، أو إضرامها بتكثيرها على من فيها: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ۝٧١ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ۝٧٢﴾(٣).

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.
(٢) سورة الطلاق، الآيتان: ١٠، ١١.
(٣) سورة غافر، الآيتان: ٧١، ٧٢.

فهل أنه بحر واحد كما توحيه ﴿وَٱلْبَحْرِ﴾ الواحد! وهو بحر النار في الأخرى؟ أم أنه بحار الدنيا إذ تسجر عند قيامتها ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾[1] بأن تصبح بحراً واحداً بالزلازل والبراكين التي تزيل الحواجز؟ وقد يوحي به ظرف العذاب الواقع: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا . . .﴾[2] فإنه يوم قيامة التدمير، وفيه بالذات ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾[3] عذاباً لأهله كبداية، ثم في قيامة التعمير العذاب الأصيل.

على الجمع أجمل، بعد أن كلاًّ محتمل، فالقسم هنا يشمل البحرين المسجورين كعذاب شامل عند القيامة وبعدها.

ومهما كانت لآية الطور وكتاب مسطور. . والبيت المعمور والسماء المرفوع. مهما كانت لها روعتها بعظمتها معنوياً ووقعاً في القلوب، فلآية البحر المسجور هيبتها ودلالتها على المقسم لأجله لتاركي الوحي المعمور:

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾:

أمر داهم قاصم، ما له من دافع ولا عاصم، فإنه واقع لا محالة بأمر الله على الذين قدموه بأعمالهم، لا مرد له من الله فضلاً عمن سواه.

﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩﴾:

المور: هو التردد في عرض، والتكفؤ، والموج، والسرعة، والاضطراب، والجريان، والدور، والحركة[4].

إذاً فالسماء يوم قيامة التدمير تصبح مائرة دائرة، متكفئة مترددة، مائجة جارية مضطربة متحركة سريعة، فإنها على إثر انشقاقها ترتخي فتصبح واهية:

---

(١) سورة التكوير، الآية: ٦.
(٢) سورة الطور، الآية: ٩.
(٣) سورة الطور، الآية: ٦.
(٤) لسان العرب لابن منظور الإفريقي.

﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ﴾(١) لـحـدّ وردة كـالـدهـان.. ﴿فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ﴾(٢) والمهل ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ﴾(٣) (٤).

وإن مور السماء هو من رجعها إذ كانت دخاناً حينما ولدت، ثم تمور مور الدخان: الغاز - بحرق وحرارة زائدة الوصف حال احتضارها، ولأنها غلبت في حربها الأخيرة فرجعت كما كانت، وإنه لمشهد مروع مهيب كيف تضطرب السماء كأمواج البحر وهي سبع شداد!.

﴿وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ١٠﴾:

تجعلها كالسراب: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا﴾(٥) والأرض بارزة: ﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ﴾(٦) وهذا السير على أثر الزلزال الدكداك: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾(٧) فـالـنـسـف: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ١٠٧﴾(٨).

هكذا (تذل الشم الشوامخ، والصم الرواسخ، فيصير صلدها سراباً رقراقاً، ومعهدها قائماً سملقاً)(٩) فكيف بهذا الإنسان الهزيل الضعيف، في هذا الهول المذهل المخيف، وهو يذهل من كل حادث خفيف طفيف!.

---

(١) سورة الحاقة، الآية: ١٦.
(٢) سورة الرحمن، الآية: ٣٧.
(٣) سورة المعارج، الآية: ٨.
(٤) راجع تفسير سور: الحاقة ١٦ والمعارج ٨ والمرسلات ٩ والنبأ ١٩ والتكوير ١١ والانفطار ١ في الجزء ٣٠ من الفرقان.
(٥) سورة النبأ، الآية: ٢٠.
(٦) سورة الكهف، الآية: ٤٧.
(٧) سورة الحاقة، الآية: ١٤.
(٨) سورة طه، الآيات: ١٠٣-١٠٧.
(٩) المصدر السابق رقم (٤).

﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾﴾:

إنه لهم ويل وتأوه عظيم، على قدر تكذيبهم، إذ كانوا في خوض لهم يلعبون بآيات الله ويتلاعبون، فالخوض هنا هو الغور فيها بقصد التزييف والتشكيك والإبطال، ثم يتخذونها لعباً وهزواً! فـ﴿إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾[1] ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾[2].

﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾﴾:

يُدعّون إليها كما كانوا يدعونها ويكذبونها بخوضهم ولعبهم، فليخوضوها دعاً: دفعاً - ولتتلاعب بهم نارها، إذ دفعوا إلى ما كذبوا فالدع هو الدفع الشديد: أن تغل أيديهم إلى أعناقهم، وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم، ثم يدفعون إلى جهنم دفعاً على وجوههم صماً وعمياناً، وكما توحيه آيات متجاوبة بهذا الصدد.

ولقد كانوا يتقولون على القرآن أنه سحر، وعلى رسول القرآن أنه ساحر أو مجنون، فحين إذ يدخلون النار يسألون هزأً:

﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾﴾:

فقد كنتم تقولون عن القرآن: أنه سحر! فهل هذه النار التي تحرقكم كذلك سحر؟ أم هي حق ملموس منه تصرخون، كما كان القرآن حقاً، ولكنكم كنتم لا تبصرون. فقد كنتم تقولون: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾[3] فهل سكرت عن النار المخبر عنها أيضاً كما سكرت عن الخبر، فذوقوا فتنتكم، هذه النار التي كنتم بها تكذبون!.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٤٠.
(٢) سورة الزخرف، الآية: ٨٣.
(٣) سورة الحجر، الآية: ١٥.

توحي الآية أن حجة القرآن باهرة للبصائر كأنها مبصرة، فإذا نكروها وسخروا منها فلتمسسهم النار: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾[1].

ولو أن صبروا على حرها ناظرين إلى رحمة الله أن يخفّف عنهم أو يخرجهم فهل ينفعهم صبرهم فيأملون؟ كلا!:

﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾:

دون ما أنتم تأملون! فالعذاب واقع لا محالة، ما له من دافع بأية حالة، فالصبر وعدمه سواء، فإنه الجزاء العدل ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ليس من الله هناك شيء انتقاماً أو سواه، وإنما الجزاء النار صورة حقيقية عما عملته الكفار، فالخوض في آيات الله دعًّا لها، حقيقته الخوض في النار دعًّا إليها، فهم بذواتهم الشريرة يوقدون ناراً: ﴿ٱصْلَوْهَا﴾ فما الصلي إلا الإيقاد، فلا وقود لها إلا أنفسهم: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾[2] فالكافر وهو في الدنيا يخلق وقود النار بما يحتمل، ومهما كان غافلاً عنه فسوف ينتبه: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[3]!.

إلى هنا سمعنا إلى سيرة أهل النار، وعرفنا مصيرهم، تقدموا على المتقين، لتقدم الطغوى على التقوى من حيث الدافع فالواقع، ثم نسمع ما للمتقين:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾﴾:

كما كانوا يوم الدنيا في جنات العقائد والأعمال، فهم كذلك يوم الدين

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٣٤.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٩٨.
(٣) سورة ق، الآية: ٢٢.

في جنات ونعيم، إنما يجزون ما كانوا يعملون عدلاً وإحساناً، مهما كان جزاء الفاسقين عدلاً وليس إحساناً.

﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾﴾:

نعمتان اثنتان، إيجابية: ﴿فَٰكِهِينَ﴾ من الفكاهة: حديث ذوي الإنس: مستأنسين ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ وسلبية: ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ بما اتقوها بتقواهم.

وينضاف إلى نعمتيهم هاتين كل تبجيل وتجليل، وتهنئة وتكريم:

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾:

فالتنعم الناتج عن العمل مهنئ بالذات، وقد أضيف إليه أمر المضيف فازداد رحمة على رحمة.

وفيما إذا سئلنا: ما هو الفرق بين جزاء الكافر والمؤمن - إن جزاء المؤمن ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لا نفس العمل، وجزاء الكافر ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

فالجواب: أن المؤمن كذلك يجزى نفس عمله الصالح، ولكنه بزيادة عما عمل ويفضل الله وإحسانه، فليس جزاؤه إذن قدر عمله، ولكن الكافر لا يجزى إلا قدر ما عمل: وهذا عدل من الله هنا، فضل منه هناك.

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾:

هذه النعم الثلاث مزودة برابعة هي اتكاؤهم على سرر مصفوفة: منسّقة هي فمنسّقة جموعاً من أهل الجنة، متمتعين بلذة التجمع بإخوان على سرر متقابلين، ومصفوفة كذلك: مرمولة: مزينة بالجواهر والذهب والفضة.

وخامسة بعد اكتمال هذه النعم روحية وجسمية، تجعلهم غارقين في بحر النعيم:

﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٢٠)﴾:

كأمتع ما يتمتع به الإنسان جسدياً، إضافة إلى أزواجهم المؤمنات، اللاتي يدخلن معهم الجنة أزواجاً لهم فيجعلهن الله كحور عين كما توحي آية المشية[١] وروايتها[٢].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١)﴾:

آية فريدة في نوعها تضم أهم المباحث في باب الجزاء العدل والفضل، تتطلب بحثاً وتنقيراً فصلاً، فإنها ضابطة شاملة ترجع إليها فروع عدة وتجاوبها دعاء الملائكة حملة العرش ومن حوله: ﴿... وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨)﴾[٣] فلو أن الآباء والأزواج والذريات كانوا على درجات الذين آمنوا وتابوا واتبعوا سبيل الله، لم يكن لفصلهم عنهم ورجاء لحوقهم من معنى.

ثم وآية الذرية تلك تقول: ذراري المؤمنين، التابعون لهم بإيمان، يلحقون بهم دون ألت ونقص من أعمالهم، والنفوس كلها رهينة أعمالها، فمن هم هؤلاء الذراري؟ وما هو اتباعهم بإيمان؟ وأين الإلحاق؟ وما هو مداه؟ ولماذا مظنة الألت: النقص - من أعمالهم وليس من جزائهم؟ وما هو دور ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ هنا؟.

---

(١) ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥] ومن أفضل ما تشاؤه النساء أن يصبحن كحور عين فأزواجاً لأزواجهن.

(٢) روضة الكافي عن أبي حمزة قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول لرجل من الشيعة: أنتم الطيبون ونساؤكم الطيبات كل مؤمنة حوراء عيناء..

(٣) سورة غافر، الآيتان: ٧، ٨.

الذرية في الأصل من الذر: الصغير ومنهم صغار الأولاد والأهل، فهم الأتباع - أياً كانوا، بطبيعة الحال - لمن يعولهم ويربيهم ويدير شؤونهم، فيتبعونه فيها، وكذلك في الإيمان أو الكفر، وإذ نتوسع في معناها نعممها لكافة الأتباع: من بنين وأهلين وآباء وأمهات وسواهم، أقارب وشعوباً ما هم أتباع، وكما يعبر عنهم الرسول ﷺ بالرعية: «ألا كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته».

فالذرية مضمّن فيها معنى الضعف والقصور، ولو أحياناً: ﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾[1] مهما كانوا كباراً في الأعمار، أو لم يكونوا من أولاد رعاتهم، وأخرى تتحلل عن ذلك متمحضة في التنسل فحسب، فقد تفوق الآباء والجدود، كما النبيون على آبائهم غير النبيين، أو من هم دونهم في النبوة، وكخاتم النبيين على بني الإنسان كافة، إلا أن ذلك بدليل، كما وأن الضعف والقصور في المكانة والاستعداد يعرف بدليل كما هنا.

فالذرية هنا من القبيل الأخير، بدليل اتباعهم رعاتهم الأصول بإيمان، فهنا مؤمنون متفوقون في الإيمان، وآخرون يتبعونهم من ذريتهم بإيمان، فلو كانوا كآبائهم أو فوقهم لم يكن لاتّباعهم لهم من معنى! كما وأن في إلحاقهم بهم في ثواب الإيمان، أو حكمه، أو درجاته: مكاناً أو مكانة، إن في ذلك دلالة ثانية على قصورهم عنهم، وإلا فلماذا الإلحاق؟ لو أنهم كآبائهم أصلاء في الإيمان، فليكونوا في ثواب الإيمان ودرجاته أيضاً أصلاء.

ثم اتباعهم بإيمان، أنه - ولا بد - من فعلهم، مهما ساعدته توجيهات من المتبوعين، كما يوحيه الاتّباع، فهنا شروط مثلثة تتجاوب في إيمان

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٣.

الذرية الأتباع: توجيهات من الأصول تهيئ ظروف الاتّباع وأجواءها، ومحاولات من الفروع استجابة لأصولها، وتوفيقات من الله تربط بين الضلعين ليكمل مثلث الهداية الإيمانية.

ولماذا «بإيمان» منكراً، وليس «بالإيمان» معرفاً؟ لأن الإيمان في أية درجة كان يبرر ذلك الإلحاق، فالمعرف منه يوحي أنه كإيمان الأصول، إذاً فلا معنى للإلحاق لأنهما على سواء، فإيمان مصيره الجنة، مهما خالطه ما يُستحق به النار، إنه يُلحق صاحبه بالأصول على أية حال، رأى صاحبه النار أم ما رآها.

ثم الاتباع الإيماني ينفي ما عداه من الاتباعات والانطباعات، أية انطباعات وأية اتباعات، اللهم إلا الإيمانية فحسب.

إذاً فهؤلاء الذرية هم المكلفون المؤمنون، دون القصّر ولا الكافرون، إذ لا اتباع لهؤلاء ولا هؤلاء بإيمان، فالقصّر غير مكلفين، فلا يطلب منهم إيمان، ولا يتأتى منهم اتباع بإيمان، الذي هو فعل اختياري من الذرية: ﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ وأما الإيمان الفطري والتشريعي فهما من فعل الخالق المشرع دون المخلوق المتشرع، فماذا تكون إذاً حال القصّر من أولاد المؤمنين وأولاد الكافرين؟ انتظر الجواب في أخريات البحث.

وأما الإلحاق، فهل يشمل الآخرة والأولى جزاءً في الآخرة وحكماً في الأولى؟ علّه يشمل حيث تتحمله الآية، ولا سيما بإيحاء الماضية: ﴿أَلۡحَقۡنَا﴾ ولكنما الأخرى هي الأولى، استيحاءً من رهانة النفوس بأعمالها، إذ لا تظهر تماماً في الدنيا.

وأما عن مدى ذلك الإلحاق في الآخرة؟ فقد يتحقق بكافة الدرجات في جنات المعرفة والرضوان بسائر المكانات، فضلاً عن الأمكنة والماديات، وهذا مخصوص بالآباء والذريات القريبي الدرجات كما بين الرسول

الأقدس محمد ﷺ وذريته الأئمة الأوصياء[١] فإنهم قلوب واحدة بقوالب عدة، دون اختلاف في الدرجات، اللهم إلا في كرامة الوحي الخاصة به ﷺ دونهم عليهم السلام، وإلا ف «أولنا محمد - آخرنا محمد - أوسطنا محمد: وكلنا محمد» وكما توحيه آية التطهير وأضرابها، وفيما تكون الدرجات بين الآباء والذريات شاسعة بعيدة، فالمتيقن من هذا الإلحاق، هو الحظوظ المادية، أو ومعنوية أحياناً حسب متطلبات الآباء، فاللحوق إذاً يشمل قسميه، طالما التسوية المطلقة بمفردها لا تناسبه فإنها ليست لحوقاً، وإنما بمناسبة الجمع، الذي تبرره الأكثرية الساحقة من غير المسوين تماماً.

وكيف تلحق الذريات بالآباء وهم أتباعهم ودونهم في الإيمان، أليس يقتضي ذلك الإلحاق نقصاً من أعمال الآباء ليزيد في أعمال الذرية حتى يستحقوا التسوية بالإلحاق؟ وهذا ظلم بالآباء! وزيادة للذرية دون عمل! حتى ولو زيد في أعمالهم دون نقص عن الآباء، ومظنة الألت هذا يقتضي سلباً وإيجاباً في الجواب: فسلباً ﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾: نلحق بهم

---

(١) الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: الذين آمنوا النبي ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام وذريته الأئمة الأوصياء عليهم السلام «ألحقن بهم» ولم تنقص ذريتهم الحجة التي جاء بهم محمد ﷺ في علي عليه السلام وحجتهم واحدة وطاعتهم واحدة.

البرهان ٤: ٢٤١ محمد بن العباس مسنداً إلى علي بن زيد قال عبد الله بن عمر: كنا نفاضل فنقول: عمر وأبو بكر وعثمان، ويقول قائلهم فلان وفلان، فقال رجل: يا أبا عبد الرحمن فعلي عليه السلام فقال: على من أهل بيت لا يقاس بهم أحد من الناس على مع النبي في درجته ثم استدل بهذه الآية.

وفيه عنه بإسناده المتصل عن ابن عباس في الآية قال: نزلت في النبي ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام.

وفيه الشيخ في أماليه بسند متصل عن محمد بن مسلم قال: سمعت أبا جعفر وجعفر بن محمد عليهما السلام يقولان: إن الله أعوض الحسين عليه السلام من قتلته أن جعل الإمامة في ذريته والشفاء في تربته وإجابة الدعاء عند قبره ولا تعد أيام زائريه جائياً وراجعاً من عمره، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: هذه الخلال ينال بالحسين فما له في نفسه؟ قال: إن الله تعالى ألحقه بالنبي ﷺ فكان معه في درجته ومنزلته ثم تلى عليه السلام هذه الآية.

ذريتهم دون أن ننقص من أعمالهم شيئاً، وكما عن النبي ﷺ قوله: وما نقصنا الآباء بما أعطينا البنين[1] وإيجاباً: ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ فقد تختص رهانة النفوس بطالحات الأعمال دون صالحاتها، كما توحيه الرهانة نفسها فإنها القيد والحصر، وكذلك آيتها الأخرى: ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ۝٣٨ إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ۝٣٩﴾[2] فإنهم لا يرهنون إن لم تبق لهم سيئات، بين ما لم يقترفوها وما كفروا عنها، فنفوسهم ليست رهينة طالحات وسجينتها.

وقد تدل رهانة النفوس بأعمالها أنها باقية معها، وكما تدل عليه ﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم﴾ دون «من ثوابهم» فإمكانية النقص من العمل ليست إلا ببقاء العمل، إذاً فالمستفاد من هذه الضابطة: أن السيئات هي الراهنة لأصحابها، تقدر عقوبتها بقدرها، أو ويعفى عن بعضها في ظروفها، وأما الحسنات فهي لا ترهن وتقيد أصحابها بقدرها، فإن الثواب دوماً يزيد على الطاعة، في أصلها إذ لا تحقق جزاءً إلا بفضل من الله، وفي قدرها فـ ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾[3] ثم هناك مزيد عند الله بغير حساب ﴿وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾[4] إن الله يرزق من يشاء بغير حساب!

فآية الرهانة حين ترهن وتأسر السيئات بقدرها في العقوبات عدلاً أو بأقل منها فضلاً، فهي تحرر الحسنات عن حدودها في الثواب، كما في كافة المؤمنين، بل وتحرر الثواب كذلك عن قيد الحسنات فيما لم تكن سيئات ولا حسنات كأطفال المؤمنين والكفار، وكذلك فيما كانت سيئات مكفرة وحسنات لا تستحق إلا قدرها من الثواب الفضل، كدخول الذرية التابعين بإيمان، الجنة، ثم إلحاقهم بآبائهم في درجاتهم أو بعضها فإنهم يستحقونها

---

(١) الدر المنثور ٦: ١١٩ - أخرجه البزار وابن مردويه عن ابن عباس رفعه إلى النبي ﷺ.
(٢) سورة المدثر، الآيتان: ٣٨، ٣٩.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٦٠.
(٤) سورة ق، الآية: ٣٥.

إذ لم يعملوا لها ولكن الله يلحقهم بالآباء تقريراً لعيونهم[1]، رغم أن الذرية أنفسهم لا يستحقونها لا عدلاً ولا فضلاً!، فإذ يلحقهم الله بآبائهم، ليس ذلك إلا إكراماً للآباء حيث تقر عيونهم، فتقدر - إذاً - درجات الإلحاق هذا بما تقر به عيونهم، دون أن يألتهم وينقصهم من أعمالهم من شيء، فكما زاد في ثوابهم أن رفعهم درجات فوق أعمالهم، كذلك يزيد لهم أن يقر عيونهم بإلحاق ذرياتهم المؤمنين بهم، وهذا لا يتنافى والجزاء العدل، فإنه طرف من تكريم الآباء.

ومن وجهة أخرى إن الذريات التي أقرت عيون الآباء، إن اتبعتهم بإيمان، كذلك تقر عيونهم بهذا الإلحاق، فضلاً من الله وإحساناً، دون فوضى لا في العدل ولا في الفضل، فإنه نتيجة عمل ثنائي: منهم إذ قرّروا باتباعهم الآباء عيونهم وبآبائهم إذ أنهم من عملهم ولادة وتربية، وأن ذلك مما يشاؤونه والجنة: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[2].

صحيح أن الذرية ما عملوا كما عمل الآباء، إلا أن في لحوقهم جزاءً على عمل الآباء، فلا ظلم على الآباء في ذلك بل هو فضل، ولا فوضى في الفضل على الذرية إذ ليس إلا مغبة تقرير عيون الآباء، طالما الفوضى وخلاف العدل في إلحاق غير الذرية إلى هؤلاء في درجاتهم أو بعضها، فإنهم لا يستحقونها ولا فضلاً، وهذه التسوية خلاف العدل إذ لا تقرير لعيون المسوى بهم.

لذلك - وفي توسع من معنى الذرية أو حكمها - بإمكاننا أن نتخطى

---

(١) الدر المنثور ٦: ١١٩ - أخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وذريته وولده فيقال: إنهم لم يبلغوا درجتك وعملك فيقول: يا رب! قد عملت لي ولهم فيؤمر بإلحاقهم وقرأ الآية. وفي معناه، رواه في الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: قصرت الأبناء عن عمل الآباء فألحقوا الأبناء بالآباء لتقر بذلك أعينهم.

(٢) سورة ق، الآية: ٣٥.

الأولاد والأهلين إلى كل التابعين لرعاتهم بإيمان، ما كان في إلحاقهم بهم تقرير لأعينهم، وإن كانوا آباءهم التابعين لهم بإيمان وأمثالهم من الأقارب غير الأولاد وكما يروى عن الرسول ﷺ [(١)] أم وغير الأقارب كما في كل مأموم لإمامه، هذا، وكما يتضمنهم دعاء الملائكة للمؤمنين الأصول: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[(٢)].

ثم وفي وجه آخر لآية الرهانة: أن يشمل الرهن فيها صالح الأعمال أيضاً.

نقول إن الذرية وإن لم تعمل ما يؤهلها لهذا الإلحاق، إلا أنهم في اتباع الإيمان من مكاسب الآباء ولو في زاوية من مثلث الاهتداء، وإن الآباء عملوا لهم كما عملوا لأنفسهم، وعلى حد المروي عن الرسول الأقدس ﷺ [(٣)] فكما للإنسان أن يعمل لنفسه، كذلك له أن يعمل لمن هو كنفسه إن ساعدت ظروفه، واتبعه بإيمان كما تقدم حسنات للأموات مهما كانوا غير مخصوصين بالعاملين، وأن لا يصلهم إلا بعض ما يقدم لهم، فكذلك وبأحرى للذريات، وأن لا يصلون بذلك درجة الآباء، فهم بحاجة إلى الإلحاق، فضلاً من الله وإحساناً ثم ولا ينقص من أعمال الآباء شيء لأنها باقية معهم دون مزايلة، وهم مرهونون بها دون فكاك، فكيف ينقص منها؟ بل ويزاد عليها حسنات فسواء اختصت الرهانة بالسيئات، أو عمت الحسنات، فالتابعون لآبائهم بإيمان يلحقون بهم بإحسان دون نقص من أعمالهم شيئاً، ودون منافاة لرهانة الأعمال أياً كانت.

---

(١) الدر المنثور ٦: ١١٩ وقد سبق قوله ﷺ هنا: إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وذريته وولده فيقال: إنهم لم يبلغوا درجتك وعملك، فيقول: يا رب قد عملت لي ولهم فيؤمر بإلحاقهم به وقرأ الاية.

(٢) سورة غافر، الآية: ٨.

(٣) في المجمع روى زاذان عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: إن المؤمنين وأولادهم في الجنة، وروي عن الصادق عليه السلام قال: أطفال المؤمنين يهدون إلى آبائهم يوم القيامة.

وأخيراً ما هو دور القصّر من أولاد المسلمين، صغاراً ومجانين، وكذلك هما من الكافرين؟. . نقول: إن الذراري القصر المسلمين، وأن لا يشملهم صدر آية الذرية، إذ اختصت بالمكلفين، إلا أنهم مشمولون لذيلها: ﴿كُلُّ ٱمْرِي بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ في الوجه الأول، كما يشمل القصر من الكافرين وإن كان بينهما فرق بان في إدخال الأولين الجنة تقريراً لعيون آبائهم دون الآخرين، فالعقاب والعقاب فقط لزامه السيئة، وأما الثواب فلا يتطلب حسنة ولا سيما ممن لا تتأتى منه ولا تأتي من راعيه، فأولاد المؤمنين يدخلون الجنة وكما يروى عن الرسول ﷺ والأئمة من آله عليهم السلام وعلَّ مصير أولاد الكفار ومجانينهم خطيرة بين الجنة والنار إذ لا طاعة لهم ولا عصيان ولا رهانة خيرة لآبائهم حتى يدخلوا الجنة تقريراً لعيونهم ولا شريرة لكي تدخلهم النار، وليس بذلك البعيد من رحمة الله أن يدخلهم أيضاً الجنة ولكن أدنى من قصَّر المسلمين.

وهناك رواية يتيمة تؤجج النار للقصار أياً كانوا امتحاناً لهم هل هم مؤمنون فيدخلوا الجنة، أم كافرون فيدخلوا النار امتهاناً[1] ولكنها لا مصير لها إلا النار!.

فهنا نتساءل مختلقي هذه اليتيمة المخالفة للكتاب والسنَّة: أليس من الضروري انقضاء التكليف بالموت؟ فكيف يتكلف الأطفال بعد الموت وهم قصر بهذا التكليف العضال، الذي قلّما يكلف به المكلفون الأقوياء: أن يدخلوا النار!.

ثم وما بال البعض منهم يعصون، والقيامة يوم ظهور الحقائق دون

---

(١) نور الثقلين ٥ : ١٣٩ عن الكافي عدة من أصحابنا عن سهل بن زياد عن غير واحد رفعوه أنه سئل عن الأطفال! فقال: إذا كان يوم القيامة جمعهم الله وأجج لهم ناراً وأمرهم أن يطرحوا أنفسهم فيها فمن كان في علم الله أنه سعيد رمي بنفسه فيها وكانت عليه برداً وسلاماً ومن كان في علمه أنه شقي امتنع فيأمر الله بهم إلى النار، فيقولون: يا ربنا! تأمر بنا إلى النار ولم تجر علينا القلم؟ فيقول الجبار: قد أمرتكم مشافهة فلم تطيعون فكيف لو أرسلت رسولي بالغيب.

استثناء، ولو للكفار الذين عاشوا حياتهم كفراً وعصياناً، فهم يرجون هناك أن لو نفعهم إيمانهم فيؤمنوا: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾[1]، فكيف يعصي هؤلاء الصغار وهم أعرف بالحقائق هناك من الكفار، لصفائهم وعدم كفرهم؟ أم وإذا خالفوا أمر دخول النار كيف يستحقون به النار؟ ألأنهم عصوا الله مشافهة؟ فهو إلحاد في الله أنه يشافه و﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[2]! أم عصوه إذ أغروا بجهلهم فهم إذاً معذورون، والإغراء بالجهل واستغلاله ظلم سبحان العزيز الجبار، أو أنه من المعاصي الصغار، لو تأتي العصيان من الصغار، فكيف يحكم عليهم بدخول النار؟ أو يحكم لمن أطاع منهم هناك وآمن بدخول الجنة خلافاً لسنّة الله التي قد خلت في عباده: إن الإيمان عند رؤية البأس لا ينفع!

إذاً فلا مرد لهذه اليتيمة إلا النار، ولكي نزحزح القصر المبتلين بها من النار، كما هو مرد كل ما يخالف الكتاب والسنّة مهما كثرت روايته وكبرت رواته فضلاً عن هذه الوحيدة الهزيلة، المرفوعة الشاذة الذليلة، المتناقضة في نفسها، رغم أنها رائجة في أسواق تجار الإسلام المفترى عليه.

ومثلها يتيمة أخرى تفصل بين أولاد المؤمنين - فإلى الجنة وبين أولاد الكفار - فإلى النار![3].

---

(١) سورة غافر، الآية: ٨٥.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٠٣.

(٣) تفسير روح البيان ج ٩ ص ١٩٣ نقلاً عن عين المعاني: سألت خديجة رضي الله عنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن ولدين لها ماتا في الجاهلية، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: هما في النار، فكرهت فقال صلى الله عليه وآله وسلم: لو رأيت مكانهما لأبغضتهما، قالت: فالذي منك؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: في الجنة، إن المؤمنين وأولادهم في الجنة وإن المشركين وأولادهم في النار.

ومثلها ما في الدر المنثور ٦: ١١٩ - أخرجها عبد الله بن أحمد في زوائد المسند عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن المؤمنين وأولادهم في الجنة وإن المشركين وأولادهم في النار ثم قرأ الآية.

وهذا التفسير يتصدى لأمثالها من المخلقات الزور الغرور، فإنه لها بالمرصاد.

﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤)﴾:

إن المتقين والمؤمنين - بعد هذه المكرمات - يمددهم ربهم بفاكهة ولحم مما يشتهون، وهما من أفخر وألذ المآكل، مما يتطلب كأساً مثلها، وإذا هم يتعاطونها بما فيها من خمر، لكنها ليست كخمر الدنيا إلا في اسمها إذ ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ لا في الجنة ككل، ولا في الكأس، ولا في خمرها، لغو القول ولا لغو الفعل، وكذلك التأثيم، طالما هما في الدنيا وكأسها وخمرها من سكر فعربدة وهذر وهدر وإيذاء واستئذاء وهتك للحرمات وكل لغو وتأثيم، ولكنهم في الجنة يتعاطونها ويتجاذبون متلاعبين متفكهين بلا أي لغو أو تأثيم، كمتنازعين وليسوا متنازعين.

وكما أنها فيها ليست خمراً تخمر العقل فتخلف كل لغو وتأثيم، وإنما التنازع هنا تلاعب، زيادة في الإيناس ولذة النعيم[1] ثم ويزيدهم لذة تطواف غلمان لهم، قد يكونون من ذريتهم القصر الملحقين بهم، أم سواهم المختصين لهم في الظرافة والصفاوة ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾: محفوظ، فكما اللؤلؤ المكنون في كنه الصدفي أو الذهبي والفضي أم سواها، باقٍ على نظافته وطراوته، كذلك هؤلاء الغلمان، فهم على ما خلقهم الله في أكنان تصونهم عن أي عيب أو ظنة، . . ترى إذا كان الغلمان الخدم كاللؤلؤ المكنون فكيف بالمخدوم؟ هنا يجيب الرسول ﷺ: «والذي نفسي بيده إن فضل ما بينهما كفضل القمر ليلة البدر على سائر النجوم»[2].

---

(١) راجع ج ٣٠ الفرقان «بين خمر الدنيا والآخرة».

(٢) الدر المنثور ٦: ١١٩ - أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في الآية قال: بلغني أنه قيل: يا رسول الله ﷺ هذا الخدم مثل اللؤلؤ فكيف بالمخدوم؟ قال: . . .

ولكي يتصارحوا ونسمعهم بوحي القرآن، لماذا ألحقت بهم ذريتهم وغلمان لهم؟ واستكمالاً لأنفسهم بأهلهم:

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾:

يوحي الجواب أن أتساءل لا يخص أسباب دخولهم الجنة، بل ولحوق ذريتهم بهم وهم يعملوا عملهم، فهؤلاء المؤمنون الأصول كانوا في مثلث من دوافع هكذا رحمة: ﴿... كُنَّا... مُشْفِقِينَ﴾ و﴿فِي أَهْلِنَا﴾ و﴿كُنَّا... نَدْعُوهُ﴾ وهذه هي جذور الإيمان.

فالإشفاق من الشفق: اختلاط ضوء النهار بسواد الليل عند الغروب، فهو عناية مختلطة بخوف، طالما المعدى منه بمن أظهر في الخوف، وبفي أظهر في العناية، وبالباء خاص بالشفقة.

إلا أن ﴿مُشْفِقِينَ﴾ هنا لم يعد بشيء فهو يوحي بحالة لهم بين الخوف والرجاء، خوفاً من أعمالهم، ورجاء بآمالهم في رحمة الله، إشفاقاً من الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾(١) من عذاب الله: ﴿وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾(٢) وإشفاقاً في رحمة الله وإشفاقاً بأهليهم، إذ كانوا يراعونهم ويحافظون عليهم بشفقة، فقد كانوا غرقى في مثلث الإشفاق: من الله، وفي الله، وبأهليهم وهم فيهم!.

وإذا كان هذا الإشفاق في كافة الحالات وكما تقتضيه ﴿كُنَّا﴾ الدالة على دوام كما ويشكرهم الله على هذا الدوام: «وكانوا مني على كل حال مشفقين»(٣)

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٥٧.
(٢) سورة المعارج، الآية: ٢٧.
(٣) نور الثقلين ٥: ١٤٢ في كتاب سعد السعود لابن طاوس نقلاً عن مختصر كتاب محمد بن=

في الخلوات والجلوات، بين الأغارب والأهلين، كان - إذاً - كاملاً للمشفق، ومكملاً لمن فيهم يشفق وبهم، إذ عاشوا كذلك وفي أهليهم، حيث الأمان الخادع ولكنهم لم ينخدعوا، وحيث المشغلة الملهية، ولكنهم لم يلتهوا وينشغلوا، وهم بذلك الصمود في صبغة الإيمان أحالوا حول أهليهم بهالة مشرقة من الإيمان، وحالوا بينهم وبين اللاإيمان، فإن حالة الرعاة تؤثر في الرعية على أية حال، وبذلك فذريتهم اتبعتهم بإيمان، فحق لهم أن يلحق بهم ذريتهم دون أن يؤلت من أعمالهم من شيء، فـ ﴿كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾.

والزاوية الثالثة لمثلث الإيمان، أنهم لم يكتفوا بإشفاقهم في أهلهم «بل وكانوا يدعون الله ويلتمسون من بِره ورحمته»: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ والدعاء مخ العبادة.

فلم يفدهم إلا ما قدموه من قبل - «كنا قبل» ﴿كُنَّا مِن قَبْلُ﴾ -، وأما بعد فوات الأوان بوفاة الإنسان فلا موقع لإيمان، ولات حين مناص، إذ فات أوان الخلاص.

هنالك يصف أمير المؤمنين علي عليه السلام حالهم في الله وابتهالهم إلى الله: «أما والله لقد عهدت أقواماً على عهد خليلي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنهم ليصبحون ويمسون شعثاء غبراء خمصاء، بين أعينهم كركب المعزاء يبيتون لربهم سجداً وقياماً، يراوحون بين أقدامهم وجباههم، يناجون ربهم ويسألونه، والله لقد رأيتهم مع هذا وهم خائفون مشفقون»[(١)].

---

= العباس بن مروان بإسناده إلى جعفر بن محمد عليه السلام عن أبيه عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حديث طويل يذكر فيه شيعة علي عليه السلام ودخولهم في الجنة - إلى قوله صلى الله عليه وآله وسلم عن الله: «فمرحباً بعبادي الذين حفظوا وصيتي في أهل بيت نبيي ورعوا حقي وخافوني بالغيب وكانوا مني على كل حال مشفقين».

(١) نور الثقلين ٥: ١٤١ عن أصول الكافي بإسناده إلى معروف بن خربوذ عن أبي جعفر عليه السلام قال: صلى أمير المؤمنين بالناس الصبح بالعراق فلما انصرف وعظم فبكى وأبكاهم من خوف الله عزّ وجلّ ثم قال:...

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾

هذه الآيات، سريعة الإيقاعات، تطارد المتطاولين على أم الرسالات في تحديات قوية، واحتجاجات عقلية وواقعية، لا يثبت لها الإنسان أيّاً كان، فلا طريق له إلا الإيمان أو يسامح عن عقله.

إنها تستعرض ستة عشر أمراً، بين ما يرجع إلى النبي ﷺ تثبيتاً له، أو

دفاعاً عنه، لولاها لانتفت صلاحيته للرسالة[١] وما يرجع إلى المكذبين أنفسهم[٢] فتزيح كافة أعذار العصيان من البين، عن الرسول كمتبوع، وعنهم كأتباع، ليبقى المكذبون به مدَحضين.

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾:

عليك التذكير ما نفع، وإن كان كحجة قاطعة العذر على الشاردين، مهما تقولوا عليك بتهمة الكهانة أو الجنون[٣] فلا يثنك عن واجب التذكير فريتهم الحمقاء السوء التي ترجع إليهم بكل فضيحة وتبوء.

ترى أن نعمة الوحي الرباني المحمدي، وهي أنعم النعم الروحانية، اللائحة من أقواله وأفعاله، هل إنها تسبب الكهانة أو الجنون، أو تصاحبهما[٤]؟ إذاً فنقمة الوحي الشيطاني الواضحة في المفترين هي التي تعارضهما وتفاصلهما؟ فما أجن وأكهن هؤلاء الحمقى، فإذ لا يجدون مناصاً عن حجته البالغة، يتهمونه بالكهانة والجنون، اللذين يطاردهما بالوحي الحنون، وإن العجب ليأخذ كل من درس شيئاً عن سيرة الرسول ﷺ من تقولهم هذا، وهم الذين عرفوه برجاحة العقل والأمانة بينهم حتى لقبوه بمحمد الأمين، ثم إذ بعث بما لا يلائم شهواتهم وحرياتهم اتهموه وبهتوه.

والفرق بين الكهانة والجنون، أن الثاني فقدان العقل فلا تنضبط أفكاره وتصرفاته، والأول الإخبار بالأخبار الخفية الماضية والمستقبلة بضرب من الظن، الصادرة عن الشياطين المسترقين السمع المرجومين ويُعرفان بمناقضة

---

(١) كتهمة الكهانة والجنون والشعر والتقول على الله وسؤال الأجر على الرسالة.
(٢) ككونهم خالقين أو خلقوا من غير شيء، أم عندهم الغيب، أم أن لهم إلهاً غير الله أم. .
(٣) راجع سورة القلم ج ٢٩ من الفرقان.
(٤) الباء هنا محتمل الوجهين: السببية والمصاحبة، بسبب النعمة أو مصاحبتها.

كلٌّ مع نفسه، ومع الواقع والعقل، فأين المناقضة من هذه وتلك في مقالات الرسول ﷺ وأفعاله لكي يستحق تهمة الكهانة أو الجنون؟!

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾:

شاعر لا مخلص منه إلا أن نتربص به اضطراب الموت، فإنما بموته، ويموته فقط، يموت ذكره، وتموت دعوته، فالمنون من المن: النقص، يعبر به عن المنية: الموت، لأنها تنقص العدد وتقطع المدد.

ترى كيف لا يشعرون - وهم من مواليد الشعر - أن الشعر له وزن خاص، وليس القرآن مثله، وأنه يخلط الغث بالسمين والقرآن كله سمين، وأنه في أزواجية التناقض، مع نفسه والواقع، ولا تناقض في القرآن، وأن لكل شعر دوراً ودور القرآن مدار الزمن ما طلعت الشمس وغربت، فآخر كيدهم أن يتربصوا به اضطراب الموت، ولكي يختلقوا لأنفسهم عذراً ردحاً من الزمن، ولكن ترى من هو الناجح بموت الرسول ﷺ؟:

وقد يعني ﴿رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ حوادث الدهر، أن يتربصوا به لتأخذه كوارثه القاصمة، وحوادثه الحاسمة، لكي يتخلى عن دعواه، أو تأخذه نكبة دعوته بما تتهافت كل دعوة باطلة، وتتساقط على مدعيه فاضحة إياه، أو يلاحقه من يتربص به الدوائر، بما عندهم من أساليب تسقطه عن مكانته، وتفضحه في ذعرته، أم ماذا؟.

﴿قُلْ تَرَبَّصُوا﴾ ولكي يفتضحوا هم وهو غالب الحجة ﴿فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ ولكي تستبين لكم سبيل المجرمين، فلا يزدادكم التربص إلا حسرة، ولا يزداده إلا نمواً وكثرة.

﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾:

فسوف تعلمون أن بموتي لا تموت دعوتي، ولا ينتهي دور شعري!

فإنما يبقى ما بقي الدهر وكما قال وحيدكم بعدما فكر وقدر: ﴿إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾[١]: يبقى ولا يزول، مما يدل أنه لا سحر ولا شعر! ألا فتربصوا، فستعلمون من تكون له عاقبة الأمور، ومن ينتهي به التربص إلى النصر والظهور؟ هذا هو القرآن اللامع، والتبيان الصادع، الذي لا يزداده مرور الدهور إلا زيادة النور والبهور.

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾﴾:

تبكيت لهم وإزراء عليهم، ما الذي يدفعهم إلى هذه الأقاويل الزور: أنه كاهن أو مجنون أو شاعر أم ماذا؟ هل هو أحلامهم؟: عقولهم الحكيمة كما يدّعون؟ وقد علموا بعده عنها ومباينته لها! وأي عاقل يرمي معدن العقل ويحبوحته بالجنون؟ فما هذا أمر الأحلام، وإنما أمر الجنون!.

أم أن الأحلام هنا تعني رؤيا المنام، فأحلام العقل لا تأمرهم بهذا وإنما أضغاث أحلام، التي يحكم ضعفاء عقول الأحلام.

أم لا هذا ولا ذاك ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾[٢]: على عقولهم لو كانت لهم عقول، وطاغون على الله، وعلى رسالات الله، ولكي يتحللوا عما يأسرهم عن البربريات والحريات في الشهوات، تسامحاً عن عقولهم، وسماحاً لشهواتهم.

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾:

- ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾[٣].

---

(١) سورة المدثر، الآية: ٢٤.
(٢) سورة الذاريات، الآية: ٥٣.
(٣) سورة الحاقة، الآيات: ٤٤-٤٧.

والتقول هو تكلف القول الكذب المختلق، والقرآن بنفسه في مربع حصين يدل على وحيه الصادق الأمين:

١ - عدم الاختلاف فيه. لا مع بعض في أي من الجهات، ولا مع العقل أو الواقع ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[1].

٢ - وترى لو كان هذا القرآن من عند غير الله، فما هي إذاً صفة قول الله، التي يفقدها القرآن؟ ما هي إلا قمة الرصانة والمتانة المتواجدة في القرآن!.

٣ - ثم ولو أمكن التقول فيه، فما لله لا يأخذ من محمد باليمين، ولا يقطع عنه الوتين، ذوداً عن كرامته، ودفعاً عن فريته، بل وزوده فيه وفي قرآنه بأقوى المعجزات وأخلدها! إذاً فما هو تقوّل ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾!.

٤ - وأخيراً لو كان تقولاً من كاهن شاعر مجنون، فأتوا أنتم العقلاء الشعراء النبلاء بمثله:

﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾:

- ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[2] أو ﴿بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾[3] وأقلها ثلاث آيات كالكوثر، فكيف بالقرآن كله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[4].

﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾، لا صدفة أو لعدم المحاولة، وإنما الاستحالة ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَٱتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾[5].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٨٢.
(٢) سورة هود، الآية: ١٣.
(٣) سورة يونس، الآية: ٣٨.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٤.

إن في القرآن سراً إلهياً يدركه كل من يواجه نصوصه بصفاء ورواع، متحللاً عن سلطان التعصب، ثم يزيده مهما زاد تعمقه وتأنقه، ميزة في سبك الألفاظ وسكب العبارات وحتى في موسيقاها، فضلاً عن معانيها وملامحها التي تأخذ من القلوب شغافها، ومن الألباب أعماقها، ومن الحواس ألبابها. وهو يخاطب العقول والفطر بأسلوب لا يعهد بين البشر[1]:

فلو كان هذا القرآن من مفتر شاعر كاهن مجنون فأتوا أنتم العقلاء وفيكم الشعراء البلغاء، والكهنة الأذكياء، والأدباء الأقوياء فأتوا بمثله ولماذا لا تأتون! وإذ أنتم عاجزون صاغرون، فلماذا لا تؤمنون؟ ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾[2] ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3].

ومن ثم لم يبق مناص إلا الإيمان به، أو تكذيبه ككلام الله، فالتكذيب بالله، أو نكران توحيد الله أو وجوده، وإذا كان هذا داؤكم فإليكم دواؤكم:

﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾:

قد توحي ﴿أَمْ﴾ هنا بحذف شيء مسبق، هي بديل عنه ودليل عليه ك: - أليسوا هم مخلوقين؟ ﴿أَمْ خُلِقُوا۟...﴾ أسئلة تقريع وتبكيت بهؤلاء الناكرين، وقد حولت الأجوبة إلى عقولهم حتى ولو سامحوا عنها، لأنها من أوضح البديهيات، وفي قمتها أنه مخلوق، ولذلك لم يذكر في عداد المحتملات، إذ لا أحد - حتى ولو كان مجنوناً، أو أصغر حشرة - ينكر كونه مخلوقاً، مهما غبي وطغى!.

---

(١) راجع بحث الإعجاز في سورة البقرة تجد فيها قولاً فصلاً عن إعجاز القرآن، وكذلك سورة الإسراء.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨٥.

(٣) سورة القلم، الآية: ٤٤.

فهنا في بساط البحث عن الله يكفى الإنسان نفسه دليلاً ومصدراً، تتدفق عليه المحتملات المسرودة:

﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾: من لا شيء، مهما تسمى بصدفة عمياء أم ماذا، أم اللاشيء المطلق عن الأسماء، فهل هناك شيء غيرك خلقك؟ فهو الذي نسميه الله، أم لا شيء هناك إلا أنت، وسائر الخلق، دون أي خالق؟: مخلوق بلا خالق!.

وفيما إذا سئلنا: إذا كان الخلق من غير شيء محالاً، فكيف خلق الله الأشياء من غير شيء؟

والجواب: إن هنا خلطاً بين الشيء الخالق - هو شيء الأشياء، وهو الذي شيّأ الأشياء، وبين الشيء المخلوق به، ففرق بين الأشياء لو خلقت من غير شيء: دون خالق، أو من غير شيء: بخالق دون مخلوق به،: لا من شيء، ثم لا نقول، إنه خلق الأشياء من لا شيء، بل لا من شيء، فالمادة الأم خلقت لا من شيء كان قبلها، وإنما بإرادة الله الذي خلق كل شيء، ثم وخلق التراكيب التالية للمادة الأم، خلقها منها، وهو خلقٌ من شيء.

فقد يكون هنا شيء ليس إلا هو، وهو الله قبل أن يخلق أي شيء، وقد يكون شيئان، فالشيء الأول الإله خلق الثاني لا من شيء، لا من لا شيء، وقد يكون ثالث خلقه الله من الشيء الثاني: المادة الأم، كسائر التراكيب المخلوقة منها، فالأشياء كلها مخلوقة من خالق، خلقها لا من شيء، أو من شيء، لا من اللاشيء، فإنه محال كما المخلوق بلا خالق.

فالله تعالى شيء لا كالأشياء، خلق المادة الأم لا من شيء، وخلق سائر الخلق من هذا الشيء، وهذه كلها تختلف عن خلق الأشياء من غير شيء، من لا شيء بمعنيه، حيث المخلوق بحاجة ذاتية إلى الخالق، ولا يمكن صدوره من مادة العدم.

﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾: بعدما ثبت أن لك خالقاً، فهل أنت الخالق نفسك، فلتكن كائناً قبل كونك حتى تخلقه، ولتكن غير كائن حين تُخلق، فأنت إذاً كائن ولا كائن في حالة واحدة لكي تكون خالق نفسك!

هذه خطوات ثلاث إلى الله، إنك مخلوق - إن لك خالقاً - إن خالقك غيرك، ومن ثم إذ تعترف أن لك خالقاً غيرك، فهل هو الخالق للسماوات والأرض أم أنت؟:

﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾: -؟ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[١].

ثم يبقى أن الخالق للكون أجمع هل هو حكيم لطيف عليم، أم جاهل غير حكيم؟ والكون بنظامه البارع الموحد يدل على أن منظمه حكيم عليم: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[٢]: خطوات خمس من نفسك إلى الله تلجئك أن تمشي سوياً على صراط مستقيم، صراط الله الذي له ما في السماوات والأرض وإليه ترجعون، فهل إنكم بعد ذلك تكذبون؟!

﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾: لا يدقون أبواب الإيقان، ولا يحاولون الوصول إلى الإيمان، رغم توفر أدلة الإيمان والإيقان، فاليقين من صفة العلم فوق المعرفة والدراية، وهو سكون الفهم بعد ثبات الحكم، فلقد ثبت الحكم بأدلته القاطعة على وجود الله، ولكن لما يسكن الفهم بهذا الحكم، ولما يجتاز العقل إلى القلب واللب، فإدراك العقل شيء ويقين القلب شيء آخر، هم بعاد عنه بما يستنفرون من حصوله، ويعرقلون الطريق دون وصوله.

وإذ يثبت أن هناك رباً ولا بد له من وحي وخزائن رحمة فهم إذاً بين طريقين، ثانيهما:

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦١.
(٢) سورة الملك، الآية: ١٤.

﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ ۝٣٧﴾:

فخزائن الرب معنوية ومادية، ليست إلا عنده، دون خلقه وحتى المرسلين: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾[1] ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ﴾[2] ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾[3].

فإذ أنتم تتضايقون من الرسالة المحمدية وتضنون بها هل أن خزائن رحمة الله عندكم حتى ترزقوا النبوة من تشاؤون، وتحرموها من تشاؤون، وتعزلوا عنها من تشاؤون: ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ﴾[4] ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾[5] فكيف بالرسالة وهي الحياة العليا؟! فمن ذا الذي يدعي أنه فوق النبيين، ووكيل أو مثيل لرب العالمين! ولا يشرك في حكمه أحداً، إلا أن يدعوا أنهم الغالبون على الله، يحتلون خزائنه بقوة:

﴿أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ﴾: فهل من أحد تدعي السيطرة على سلطان الله؟!.

أن يصارعه فيصرعه فيأخذ ملكه ويتصرف فيه كما يشاء!.

ومن ثم لا يبقى لهم إلا دعوى الاستقلال في الوحي باستغلاله دون رسول:

﴿أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ يَسۡتَمِعُونَ فِيهِۖ فَلۡيَأۡتِ مُسۡتَمِعُهُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ۝٣٨﴾:

هذه الآية تدلنا على إمكانية استماع الوحي عبر السلاليم، فضلاً عن

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٠.
(٢) سورة المنافقون، الآية: ٧.
(٣) سورة الحجر، الآية: ٢١.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ١٠٠.
(٥) سورة الزخرف، الآية: ٣٢.

استماع الأصوات البشرية البعيدة في سلاليم، فما هي الصلة بين السّلم وبين الاستماع فيه؟ والمعروف للسلم هو الصعود به إلى السطوح، أو الاستماع عليه، وأما التحدث به، وأما الاستماع فيه، فلم يك معروفاً مسبقاً، حتى كشف العلم بعد جهود طائلة عن إمكانية الإذاعة والاستذاعة عبر سلاليم خاصة، وكما هي الآن في دور الإذاعات الراديوئية والتلفزيونية.

نقول: هذه الآية تحمل ملاحم غيبية كشف العلم عن بعضها اليوم، وهو الإسماع والاستماع عبر الأثير بواسطة سلاليم خاصة، وعلّه مما دفع مخترعي الإذاعات للكشف عنها وقد وفقوا لحدٍّ ما.

ومهما يتوصل الإنسان إلى اختراع سلاليم يستمع فيها، الآخذة للأصوات، وإلى سلاليم يُسمع ويذاع بها، المرسلة للأصوات، فهو لن يتوصل إلى سلاليم الوحي الرسالي، النورانية الروحانية، فإنها بيد الله، يختص بها من يشاء، ولا إلى سلاليم الوحي غير الرسالي، وإن كان الجن المؤمنون - وقبل الوحي الأخير - كان لهم مقاعد للسمع، ولكن ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾[1] فلو كان استماع الوحي غير الرسالي من الملأ الأعلى، بإمكان الإنسان قبل الآن. آن الرسالة المحمدية - فليس هو بالإمكان بعد هذا الآن وإلى انقراض الزمان.

وهذه الآية تصريحة التبكيت بناكري وحي القرآن، وإشارة التأكيد بإمكانية اصطناع سلاليم تستمع فيها أصوات بشرية أم ماذا، دون تحميل ولا تأويل، رغم من يفسرون «في» هنا بـ«على» علهم يوجهون الآية إلى وجه مقبول، حيث السلم للاستماع يرقى عليه حتى يستمع من علٍ، لا فيه.

وليتهم اصطبروا حتى يأتي تفسير الآية علمياً وواقعياً كما أتى بسلاليم

---

(١) سورة الجن، الآية: ٩.

الإذاعة والاستذاعة، فالقرآن بنفسه وجيه لا يحتاج إلى توجيه العقول والعلوم إلى حقائقه الرقائق «وإن للقرآن آيات متشابهات تفسرها الزمن» متشابهات علمية كهذه أو عقلية كسواها، أم ماذا[١].

فيا لآية السلم - وبعد تطور العلم - من دلالة واضحة: أن القرآن ليس إلا من وحي الرحمان، إذ لم يخطر بخلد أحد، قبل أربعة عشر قرناً، أن من السلاليم ما يسمع فيه ويسمع به، كما أن منها ما يرقى به إلى السطوح.

... فإذ ليس عندهم خزائن الله، فهم بحاجة إلى استماع الوحي، فهل لهم سلم يستذيعوا به ويسمعوا فيه الوحي؟ ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ فإن سلطان الوحي مبين، يظهر أنه من الله، فهل عندهم هكذا وحي كوحي القرآن؟ الذي يملك كل سلطان على أنه من عند الله!.

ومن ثم يناقش البعض من تقولاتهم التافهة على الله، إذ يفضلون عليه أنفسهم فيما يفترون:

﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾﴾:

فرغم أنهم كانوا يعتبرون البنات أدنى من البنين، بل ولا اعتبار لهن عندهم في شيء فهم ينسبون إلى الملائكة أنهم إناث: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾[٢] ثم جعلوهم بنات الله: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾[٣] في حين لهم بنون وبنات: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ

---

(١) إنني أذكر أول لقاء برئيس الإشراف الديني بالمسجد الحرام ووزير القضاء سماحة الشيخ عبد الله بن حميد بمكة المكرمة أنه سألني عن شغلي، فقلت له: أنا مشتغل بالقرآن، قال: تعني تفسيره؟ قلت: نعم - قال: وعندك جديد من ملاحم غيبه - قلت: وكله جديد، وما أذكر هل هو قرأ آية السلم أم أنا، ففسرتها كما في المتن، فطلب مني تكراره وأعجب به قائلاً: والله لهي أشرف وأفضل جلسة أجلسها طول حياتي العلمية مستفيداً، أشكرك يا سماحة الشيخ، فقدم لي عدداً كثيراً من مختلف الكتب.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ١٩.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٤٠.

﴿وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ﴾[١] فهذه إهانة فوق إهانة: أن لله ولداً - أياً كان - وأنه يصفي عباده بالبنين، ويصطفي لنفسه بنات، كما وأن آخرين ﴿وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ﴾[٢] وأن الجن هم البنون ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ﴾[٣] مهما كان هذا أهون من ذاك، وأقل مهانة.

ومن ثم وبعد أن خفت وطأة الأعذار في الربوبية والرسالة، أو زالت، هل هناك ثقل آخر يثقلهم عن تصديق الرسول كسؤال الأجر؟:

﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾:

الغرم ما ينوب الإنسان في ماله أو ماله، من ضرر لغير جناية منه أو خيانة، والمغرم مصدر ميمي تعني الغرم نفسه.

فطالما لم يكن هناك غرم فطري ولا فكري ولا عقلي يثقلهم عن تصديقك، فهل هنالك غرم مادي لأنك تسألهم أجر الرسالة، فهو يثقلهم فيتثاقلوا عنك؟! كلا: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾[٤] فـ ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾[٥] إذ لا عائق معنوياً كالضلال، ولا مادياً كالأجر، فما لكم لا تؤمنون!.

ولئن سئلنا: كيف لم يسأل أجراً وقد سأل أكبر الأجر: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾[٦] وقد يكلف جلب المودة في قربى الإنسان أموالاً طائلة؟ فالجواب: أنه ليس في الواقع أجراً يرجع لصالح المأجور وإن أتي بلفظ الأجر، فإنه يرجع لصالح المسؤول دون السائل: ﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾[٧] فإن المودة في القربى من السبل

---

(١) سورة النحل، الآية: ٥٧.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٠٠.
(٣) سورة الصافات، الآية: ١٥٨.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٩٠.
(٥) سورة يس، الآية: ٢١.
(٦) سورة الشورى، الآية: ٢٣.
(٧) سورة سبأ، الآية: ٤٧.

إلـى الله: ﴿قُل مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾(١) فهؤلاء القربى الذين جعلت مودتهم كأنها أجر الرسالة إنهم يقربونهم إلى الله زلفى، فمودتهم مودة للرسول ومودة لله، وهم استمرارية للرسالة الإسلامية لأنهم السبل إلى الله كخلفاء للرسول ﷺ، فليس الرسول ممن يدخل مودة قرباه في مصالح رسالته لحدّ الأجر لأنهم قرباه، وإنما لأنهم يمثلونه في رسالته، فمن شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً هي استمرارية السبيل المحمدية إلى الله، فالرسول ﷺ يسأله المودة في قرباه فحسب، لهذه الغاية الراجعة لصالح المسلمين.

إن هذا الأجر - بخلاف الأجور المادية المثقلة المغرمة - إنه يخفف الوطأة عمن يتخذ إلى ربه سبيلاً، ويسهل له الوصول إلى درب الحقيقة ومدينة العلم، وكما تواتر عن الرسول ﷺ: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»

ومن ثم فهل لهم مرجع يرجعون إليه - إلى الله - من غير الرسول؟:

﴿أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ﴿٤١﴾﴾:

وليس الغيب كله إلا عند الله، ولا يظهر على غيبه أحداً: إلا من ارتضاه من رسول: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴿٢٧﴾﴾(٢) فمن ذا الذي يدعي أن عنده غيب الله كما عند الله، أو أنه ممن ارتضاه الله فيظهره الله على غيبه، فليأت بسلطان مبين؟.

أو ليس هذا ولا ذاك، فلا حق ولا حقيقة لديهم هنا ولا هناك، وإنما:

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٥٧.

(٢) سورة الجن، الآيتان: ٢٦، ٢٧.

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾﴾:

﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾(١) فالذي يمكر الله ورسل الله وأهل الله، إنما يمكر بنفسه ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾(٢) ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾(٣).

فالكافر مكيد بكيده نفسه، ويكيده الله بما كاد ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾(٤) فمهما كان مكرهم عن عجز وطغيان، فمكر الله ليس إلا جزاءً وفاقاً، فمكره خير وإلى خير، بخلاف مكرهم.

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾:

فهم عندما يعملون هذه الأعمال الماكرة الكافرة، وبعدما ثبت لهم أن الله هو الحق المبين، فعلامَ يعتمدون، أم لهم إله غير الله يتولونه فيردّ عنهم عذاب الله؟: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا...﴾(٥)؟ فـ ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وكما تسبحه الفطرة والكون كله يسبحه عن أي ند أو شريك.

ولقد وصلت عمايتهم عن الحق، وغوايتهم لحدّ يعتبرون كسف العذاب سحاباً:

﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾:

فمثلهم كمثل عاد لما رأوا ريح العذاب: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٦).

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٤٣.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٣.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٤٦.
(٤) سورة الأنفال، الآية: ٣٠.
(٥) سورة الأنبياء، الآية: ٤٣.
(٦) سورة الأحقاف، الآية: ٢٤.

فإن يروا هؤلاء كسفاً: قطعة - من السماء ساقطاً عليهم يقولوا سحاب مركوم: متراكم بعضه على بعض، ملء من الماء يمطرنا ويسقينا، فهؤلاء لا دواء لدائهم العضال إلا أن تذرهم يخوضوا ويلعبوا:

﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾﴾:

فإذا انقطع عنهم كل الآمال، فاتركهم في غيهم يعمهون، وقد أديت ما عليك، ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟﴾ يوم الصعقة في قيامة التدمير وقيامة التعمير، وبعد ذلك ما دامت النار، فإنه كل يوم الصعقة: الهدة الكبيرة، مهما اختلفت دركاتها، فعند الموت وهو القيامة الصغرى تكون الصعقة الصغرى، وفي القيامتين الصعقة الوسطى والكبرى.

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾﴾:

فكما لم يغن عنهم كيدهم يوم الدنيا، فكذلك يوم الدين، ثم لا نصير لهم ولا عاذر، فالكافرون لا مولى لهم ولا نصير.

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾:

وهنا يعمم العذاب للظالمين أجمع، ولكنه دون ذلك العذاب الشديد، لأشداء الكافرين، وهذا العذاب يعم ما في الدنيا تنبيهاً وتطهيراً، وما في البرزخ جزاءً مؤقتاً أو حتمياً، وما تبقى ففي النار على مختلف دركاتها حسب دركات المظالم، ثم يخرج منها قبل انخمادها الظالمون دون ذلك، ويبقى رؤوس الكفر والضلالة ما بقيت النار وبئس القرار ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ الظالمين ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كذلك يعذبون كالكافرين.

وأخيراً يؤمر الرسول بالصبر ويُكرم بضمان أعظم تكريم، بما ليس له مثيل.

﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (٤٩)﴾:

﴿وَاصْبِرْ﴾ عن جدالهم وقتالهم ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بقتالهم، وحكمه بعذابهم بعد موتهم.

﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾. الرقابات الخاصة الإلهية كلها، فإن كان موسى يصنع على عين الله: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾(١) وإن كان نوح يصنع سفينة النجاة بأعين الله ووحيه: ﴿أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾(٢) فأنت أنت يا محمد كلك بأعين الله، لا صنعك فحسب، ولا بعين واحدة فحسب، وإنما أنت ككل: منذ الولادة حتى الممات كمحمد، ومنذ ابتعاثك حتى القيامة كرسول، أنت بأعيننا، لا على عيني كموسى! بـ «أعين» كافة الرقابات الإلهية «نا» على ضوء كافة الأسماء والصفات الإلهية - ف «أعيننا» توحي بجمعية الرقابات والصفات الإلهية للرسول الأقدس محمد ﷺ لا سواه، مما يدل على مدى الرحمات الخاصة الإلهية لمحمد ﷺ تلكم العنايات التي لم تتوفر هكذا لأي من القديسين، من الملائكة والناس أجمعين!. . فيا له من تعبير عبير، ويا له من تصوير فيه كل تقدير، لهذا الرسول البشير النذير، مما يمسح عن قلبه غبار المعرقلين الكافرين، فيستحم هو في بحر من النور، ويأخذه يمّ من السرور!.

ثم وليزيد في نورانيته وانقطاعه إلى ربه، يأمره فما فرض عليه كنبي خاصة:

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (٤٩)﴾

تسبيح بالحمد، أن ينزه الله في حمده لله، عما لا يناسب وساحة الربوبية، و﴿حِينَ تَقُومُ﴾ لا يحن إلى حين خاص، فما دام قائماً لله نهاراً في

---

(١) سورة طه، الآية: ٣٩.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٢٧.

الدعوة إلى الله: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾[١] ليسبح الله في سبحه الطويل نهاراً في بحر المجتمع المتلاطم، وكلما هو قائم غير نائم[٢]، كذلك ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾ بعض الليل: قبل منتصفه ﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ بعد منتصفه، فإن النجوم تأخذ في إدبار النور منذ نصف الليل، فالمجموع من «من الليل» و﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ أكثر من نصف الليل إلى ثلثيه كما قرر له في سورة المزمل، إلا أن «من الليل» يشمل العشاءين بنوافلهما، كما وأن ﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ يشمل صلاة الفجر بنافلتها، فقد شملتا فروض الليل والفروض بنوافلهما[٣].

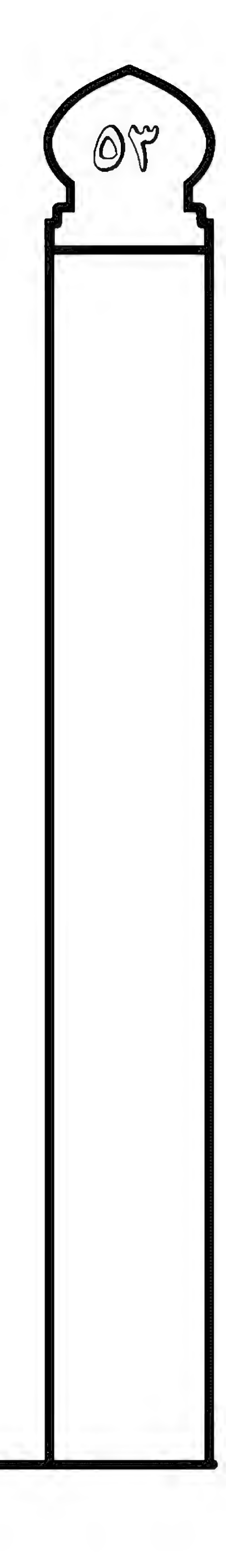


(١) سورة المزمل، الآية: ٧.

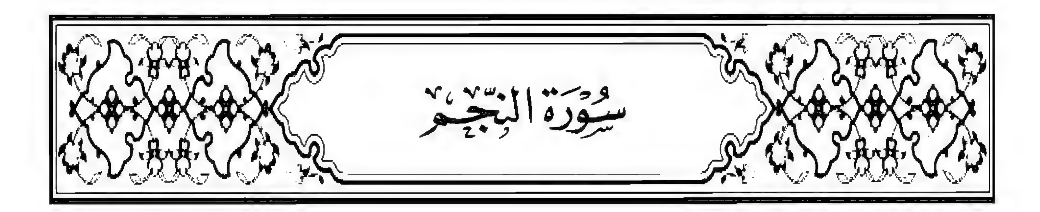
(٢) الدر المنثور ٦: ١٢٠ - أخرج عبد الرزاق في جامعه عن أبي عثمان الفقير أن جبريل علم النبي ﷺ إذا قام من مجلسه أن يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

وفيه أخرج جماعة آخرون عنه إنما كان يقولها كفارة لما يكون في المجلس.

(٣) القمي عن ابن أبي نصر عن الرضا عليه السلام «و إدبار النجوم ركعتين قبل صلاة الصبح»، وهو المروي عن الصادقين عليهما السلام أيضاً - أقول: وهذا من التفسير ببعض المصاديق المقصود إبرازها وكما رواه القمي قال: صلاة الليل في ﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ [الطّور: ٤٩].




# سُورَةُ النَّجْمِ




## مكية - وآياتها اثنتان وستون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ
﴿٣﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ
﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ
﴿٩﴾ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾
أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ
﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ
وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ
﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلۡكَ إِذٗا
قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ
بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن
رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمۡ لِلۡإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ وَكَم مِّن
مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن
يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ
﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ

شَيْئًا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾

هذه السورة المكية كيانها الرئيسي كسائر المكيات موضوع العقيدة في أصفى أعماقها، وأهمها موضوع الربوبية والوحي والرسالة، وإنها نجم في سماء القرآن في عرضها مهمة المعراج بتفاصيل لم تذكر في سائر القرآن، وهي كمنظومة موسيقية تناسب في نغمتها نغمات الوحي بمعانيها.

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾﴾:

أصل النجم هو الكوكب الطالع، ويستعمل اسماً، ومصدراً بمعنى الظهور، يقال: نجم لي أمرٌ: ظهر ولاح، فقد يقصد بها كل ظاهر باهر، مادياً كالشهب والنيازك النارية التي تهوي من جانب من السماء إلى آخر، أم إلى الأرض، ناحية منحى شياطين السماء أو الأرض، وكالأجرام النورانية التي قد تهوي إلى الأرض، وكما في أحاديثنا: أن نجماً هوى في بيت الإمام علي عليه السلام تدليلاً على خلافته بخبر مسبق[1].

---

(١) أمالي الصدوق بإسناده إلى ابن عباس قال: صلينا العشاء الأخرة ذات ليلة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلما سلم أقبل علينا بوجهه ثم قال: إنه سينقض كوكب من السماء مع طلوع الفجر فيسقط في دار أحدكم، فمن سقط ذلك الكوكب في داره فهو وصيي وخليفتي والإمام بعدي - فلما كان قرب الفجر جلس كل واحد منا في داره ينتظر سقوط الكوكب في داره، وكان أطمع القوم في ذلك أبي العباس بن عبد المطلب، فلما طلع الفجر انقض الكوكب من الهوى فسقط في دار علي بن أبي طالب عليه السلام فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي عليه السلام: يا علي! والذي بعثني بالنبوة لقد وجبت لك الوصية والخلافة والإمامة بعدي، فقال المنافقون: عبد الله بن أبي وأصحابه: لقد ضل محمد في محبة ابن عمه وغوى، وما ينطق في شأنه إلا بالهوى، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ يعني في محبة علي بن أبي طالب ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾.
أقول: وروى ما في معناه الصدوق بإسناده إلى الصادق عن أبيه عن آبائه ومحمد بن العباس بإسناده إليه عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: وذكر مثله.

أو معنوياً كالقرآن المنجّم: النازل نجوماً على قلب الرسول الأقدس ﷺ فإنه من أوقع مواقع النجوم، لحدّ لا يقسم الله به لمزيد الاحترام: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾[1].

فنجم القرآن إذا هوى من سماء الوحي يصبح ناجماً لائحاً لأهل الأرض، فقبل الهوي هو كوكب غير طالع، غيب في علم الله.

وكالرسول محمد ﷺ الذي أنزله الله وأهواه إلى أرض البشرية لكي يصاحب الضالين ويهديهم: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ﴿١٠﴾ رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ...﴾[2] فهو نجم نزل وهوى ليرشد الناس إلى الهدى[3].

وكالرسول ليلة المعراج إذا هوى حاوياً وحياً دون واسطة من الله[4].

فالنجم الهاوي هنا تتحمل كل هذه المصاديق الناجمة عن كلمة النجم دون هوادة، اللهم إلا الشهب والنيازك النارية التي لا صلة لها بعدم ضلال

---

(١) سورة الواقعة، الآيات: ٧٥-٧٩.

(٢) سورة الطلاق، الآية: ١٠، ١١.

(٣) القمي حدثني أبي عن الحسين بن خالد عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: النجم رسول الله ﷺ وقد سماه الله في غير موضع فقال: والنجم إذا هوى، ومثله في روضة الكافي عن أبي جعفر عليه السلام في الآية قال: أقسم الله بقبض محمد. أقول: يعني موته، فهم النجم وهويه موته.

(٤) روي أن محمداً ﷺ نزل من السماء السابعة ليلة المعراج ولما نزلت السورة أخبر بذلك عتبة بن أبي لهب فجاء إلى النبي ﷺ وطلق ابنته وتفل في وجهه وقال: كفرت بالنجم ورب النجم فدعا ﷺ وقال: اللهم سلط عليه كلباً من كلابك، فخرج عتبة إلى الشام فنزل في بعض الطريق وألقى الله عليه الرعب فقال لأصحابه ليلاً: أنيموني بينكم ليلاً ففعلوا فجاء أسد وافترسه من بين الناس.

أقول: في الدر المنثور ٦: ١٢١ - أخرجه عبد الرزاق وابن جرير عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه عنه ﷺ وأبو الفرج الأصبهاني في الأغاني عن عكرمة وأبو نعيم في الدلائل وابن عساكر من طريق عروة عن هبار بن الأسود.

الرسول أو غوايته، وأما النجم الهاوي في بيت الإمام علي عليه السلام فقد يكون من ضمن المعني من النجم هنا وكما في أحاديثنا، طالما نجم القرآن ونبي القرآن يحتلان القمة في المعني منه، فيقسم بالقرآن الذي يحمله نبيه، أنه ما ضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى فإن كمال الهداية ناجم في هذا النجم الهاوي على قلب الرسول الهادي صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾﴾:

إن النجم المنقض في دار علي عليه السلام [1] دليل على براءته عن مثلث الفرية: الضلالة والغواية والهواية، في هامة الخلافة، وكما أن نجم ذات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم المقدسة، الهاوي ليلة المعراج عن الأفق إلا على بعد صعوده، دليل على صدقه في الأنباء التي هوى بها إليهم بعد هويه، كما وأن نجم قرآنه المبين، ومعه وبه نجم كيانه المتين، شاهد صدق على أنه ما ضل في رسالته وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إضافة إلى صحبته لكم أميناً عاقلاً طوال سنين: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[2]: لقد صحبتكم سنين، بعقل رزين، وحكم رصين، لحدّ سميتموني محمد الأمين، ولم تأخذوا علي مأخذاً من ضلالة أو غواية أو هواية، ثم بعد إذ جئتكم بما يعجز عن مثله العالمون، تقولون: إنه ضل وغوى، وهو ينطق عن الهوى؟!.

إن الضلالة مقابل الهداية، فيها دركات، كما لهذه درجات، وتلك في دركاتها كلها بعيدة عن الهدى، دون سبيل لها إليها، بجهل أو تجاهل.

---

(١) القمي والكليني بإسنادهما إلى أبي جعفر عليه السلام: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ ما يتكلم بفضل أهل بيته بهواه وفي أمالي الصدوق بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «إن رضى الناس لا يملك وألسنتهم لا تضبط وكيف تسلمون مما لم يسلم منه أنبياء الله ورسله وحجج الله صلى الله عليه وآله وسلم ألم ينسبوه إلى أنه ينطق عن الهوى في ابن عمه علي عليه السلام حتى كذبهم الله عز وجل فقال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: ٣-٤].

(٢) سورة يونس، الآية: ١٦.

والغواية مقابل الرشد؛ قد تجتمع مع الهداية، وهي غير الرشيدة منها، فالغاوي قد يكون مهدياً ولكنه غير رشيد، إذ قد يجد سبيلاً إلى الحق، إذاً فالغاوي أخف ضلالاً من الضال.

والهوى هنا هي الميل عن الحق، فقد تكون ميلاً بشهوة تميل بالإنسان إلى خلاف الحق، وهو الأكثر استعمالاً: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا﴾[1] وقد تكون ميلاً بعقل غير معقول بالوحي، فقد تخطىء وقد تصيب، وهو الأقل استعمالاً: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾[2] إذ توحي بأن اتباعها بهدىً من الله هدى خالصة.

فالهوى تعم هوى النفس وهوى العقل، المنفيتين عن النبي في وحيه - فـ:

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝﴾:

وإنها أهم صيانة وأتمها للرسالة المحمدية، إنها بكاملها سماوية، لا تأخذ من الأرض إلا بلاغها كذريعة: فـ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾: هوى النفس، فإنه غلب شيطانه منذ كان فطيماً، فكيف به إذ بعث نبياً، وكما قال ﷺ: «شيطاني أسلم بيدي»: و: «جزناها وهي خامدة» فلا تجد في أحواله وأقواله وأفعاله، في حله وترحاله، في قلبه وقالبه، لا تجد، ولا قيد شعرة من هوى النفس.

و﴿وَمَا يَنطِقُ﴾ كذلك عن هوى عقله، متحللاً عن وحيه، طالما هو عقل العقول! فالعقل المتحلل عن الوحي قد يخطئ، وهو جل عن أن يخطئ، كيف وهو رسول ربه الأمين.

كذلك و﴿وَمَا يَنطِقُ﴾ عن هوى عقله المتصل بالوحي، في قرآنه المبين، فإنه وحي في وحي، في ألفاظه ومعانيه: ﴿إِنْ هُوَ﴾: نطقه ﴿إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٣٥.

(٢) سورة القصص، الآية: ٥٠.

هذا - وإن كان ينطق في سنته بعقل الوحي، وحياً في معانيها، وعقلاً متصلاً بالوحي في نضد ألفاظها، وهذا هو الفرق الفارق بين الكتاب والسنَّة القطعية، إذ يشتركان في وحي المعنى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ ويختلفان في اللفظ: إن القرآن كذلك ﴿وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾: في لفظه، كما هو ﴿وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ في معناه، ولكن السنَّة في لفظها - فقط - ليست وحياً، وإنما عقلاً من صاحب السنَّة الرسول الأقدس ﷺ، ثم هي تشارك القرآن في وحي المعني مهما اختلفت درجاتهما.

إن الحصر في آية الوحي ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ ينفي عن النبي أن ينطق عن أية هوى، لا هوى النفس فقط، فإن هوى العقل أيضاً ليست وحياً يوحى، فنطقه ﷺ محصور في وحي يوحى: وحياً خالصاً كما في القرآن، أو وحياً مزدوجاً كما في السنَّة، فإن ألفاظها ليست إلا منه مهما كانت مقرونة مصونة بالوحي، مسنودة إلى الوحي، فالرسول الأقدس ﷺ كله - كرسول - وحي، ولا أقول إنه في مآربه البشرية غير الرسالية، أيضاً وحي، وإنما في شؤونه الرسالية.

وفيما إذا سئلنا: كيف تعم نطقه سنته بعد قرآنه، والحصر المستفاد من «إن..» يحصر نطقه بوحي يوحى، والسنَّة ليست وحياً إلا في معناها؟.

فالجواب: إن آية الوحي تحصر نطقه في وحي يوحى، لا قرآنه فحسب، وبما أن هامة الوحي هي المعنى، فوحي السنَّة أيضاً وحي يوحى، وإن كان - فقط - في معناها، وإن كان القرآن أفضل منها وأعلى، لأنه بلفظه ومعناه - وحي يوحى، ليس من النبي ﷺ فيه شيء، وإن من عقله المتصل بالوحي، فطالما يكون نطق النبي ككل: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ وإن لم يكن في لفظ السنة وحياً، ولكن قرآنه - بين نطقه - ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ ليس فيه إلا وحي، جملة وتفصيلاً، معاني وجملاً، نضداً وترتيباً وفي كل شيء.

ترى وما هي النكتة في ﴿وَحْىٌ﴾ وفي ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ﴾ كفاية لتأدية المعنى؟ أقول: علها لكي لا يزعم أنه وحي ذاتي، وحي الضمير الصافي، وحي منه إليه، وإنما: وحي يوحى إليه من خارج الذات، فوحي الضمير لا يوحى إلى صاحب الضمير، إنما هو وحي يتكون فيه نتيجة صفاته.

ومن ثم فمن ميزات هذا الوحي، ولا سيما في قرآنه المبين، أن ليس معلمه إلا الله:

﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾:

علّمه الوحي أو علم الوحي إياه شديد القوى: ربه لا جبرئيل.

تُرى إذ يراد التعريف بمتعلم الوحي الأخير وجاءه كلّ معارض نكير، هل يؤتى باسْم معلمه الأصيل وهو الله، أم باسم الوسيط في وحيه جبرئيل؟ لو صحّ أنه علّمه! وليس تعليمه هو موضع بحث بين مثبت ونكير! لا ريب أن المقام يقتضي ذكر المعلم الأعلم - فـ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ هو الله لا جبرئيل.

ثم جبريل، مهما كان وسيطاً في الوحي المفصل أو معلمه فيه، فلم يكن وسيطاً في محكمه، ولا سيما وحي المعراج، وقد عرج عنه الرسول ﷺ وحيداً إلى سدرة المنتهى، وما فوقها، ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾. ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ وهذه الآيات تخص وحي المعراج ضمن ما يعم وحي القرآن كله، مفصله ومجمله، فلم يكن هناك جبرئيل حتى يكون معلمه، إذ تركه ﷺ عند السدرة وقبل العرش قائلاً: تقدم يا رسول الله ﷺ! ليس لي أن أجوز هذا المكان ولو دنوت أنملة لاحترقت»[1] فشديد القوى هو الله وليس جبرئيل.

ولئن كان جبرئيل معلمه ﷺ وحتى في وحي المعراج، فليس الرسول

(١) تفسير روح البيان ج ٩ ص ٢٢٤ في رواية، ورواها في المناقب ابن عباس قال: فلما بلغ إلى سدرة المنتهى وانتهى إلى الحجب قال جبرائيل: تقدم يا رسول الله ﷺ! ليس لي أن أجوز هذا المكان ولو دنوت أنملة لاحترقت.

كمتعلم عبداً لجبرئيل، إذاً فماذا يُعنى من: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ ولا مرجع مسبق لضمير الغائب هنا إلّا شديد القوى، فهل أصبح جبرئيل الوسيط في الوحي معبوداً للرسول ﷺ، وليس هذا الإيحاء إلّا ذلك التعليم: فمن المستحيل هنا أن يكون شديد القوى هو جبرئيل.

ثم لا نرى تصريحاً في القرآن ولا تلويحاً أن جبرئيل كان معلم الرسول ﷺ. وإنما نازلاً بالوحي إلى قلبه المنير نجوماً طوال البعثة، بعد الوحي المحكم النازل عليه ليلة القدر دون وسيط: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[1] ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه وكما الرسول محمد ﷺ كان أفقه من جبريل وكما عنه ﷺ: «روح القدس في الجنان الصاغورة قد ذاق من حدائقنا الباكورة» ثم ولم يكن نزوله بالوحي المفصل لحاجة ذاتية من الرسول إلى الوسيط، وهو أفضل من موسى الذي أنزلت عليه التوراة دون وسيط، وإنما ليثبت الذين آمنوا: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[2] وإنما يحصل بالتنزيل النزول التدريجي: الوحي المفصل، لا لحاجة الرسول إلى الوسيط، كيف ولم يحتج إليه في الوحي المُجمل إذ عُرج به إلى العرش! وإنما لتثبيت الذين آمنوا على أنه بشر رسول، فلا يقولوا فيه ما قيل في المسيح عليه السلام.

ترى أن الوسيط في رسالة إلى رسول - وإن كان يعلم شيئاً منها أو يعلمها كلها - هل أنه معلم للرسول؟ أم رسول إلى الرسول، ثم لكل كيانه، فقد يكون الوسيط أدنى من الرسول كجبريل بالنسبة لمحمد ﷺ وقد يكون أعلى، كالرسول بالنسبة للمرسل إليهم أجمع، وقد يكونان على سواء، وكما قد لا يعرف الوسيط شيئاً عما أرسل به، فليكن شديد القوى هو الله لا جبرئيل.

---

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ١٩٣، ١٩٤.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٠٢.

ثم لو كان جبرئيل كمعلم للرسول ﷺ! شديد القوى، فهلّا يكون الله أيضاً شديد القوى؟ وهذه تسوية بين الله وخلقه في القوى، والكل بجنبه ضعفاء فقراء أخفّاء، اللهم إلّا ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾[١] سواء أفسَّرته بمحمد الأمين وهو الحق، أم فسّرته بجبريل الأمين وليس به[٢] ولو كان، فكيف هو مرة شديد القوى كما الله، وأخرى ذو قوة كعبد الله، وبينهما من البون ما ترى!.

٧ - ونرى في أحاديثنا أن الله تعالى يوصف بشديد القوى دون خلقه[٣] فكيف لخلقه أن يوصف بما وصف به الله، وهذا من الإلحاد في أسماء الله ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾[٤].

٨ - ثم الذي دنا إليه الرسول فتدلى، فكان منه قاب قوسين أو أدنى، ليس هو جبرئيل حتى يكون هو أيضاً شديد القوى، إذ لم يكن لجبرئيل في عمق المعراج مجال. ولا أن لدنوّ الرسول ﷺ إليه كمال، كما وأن مقام أو أدنى مع غير الله ضلال ومحال، لأنه فناء ولا يجوز أو لا يمكن الفناء في غير الله، وإنما هو الله، المدنوّ منه والمتدلى به في مجال المعرفة لا المجاورة.

٩ - ثم جبرئيل كان الرسول ﷺ يراه بعينه وهو في الأرض بصورة دحية الكلبي أم سواه، دون أن يراه بفؤاده فقط وهو بالأفق الأعلى ﴿مَا كَذَبَ

---

(١) سورة التكوير، الآيتان: ٢٠، ٢١.

(٢) راجع ج ٣٠ الفرقان في تفسير الآيات ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ . . .﴾ [التكوير: ١٩-٢٠].

(٣) علي بن إبراهيم القمي في تفسيره نقلاً عن الإمام عليه السلام ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥] يعني الله عزّ وجلّ . وفي نهج البلاغة مثله، وفي دعاء الندبة «فأغث يا غياث المستغيثين عبيدك المبتلى وأره سيده يا شديد القوى». وفي دعاء آخر «يا شديد القوى ويا شديد المحال». هذا ولم يوجد وصف غير الله - جبرئيل أم سواه - بهذا الوصف في أي حديث إطلاقاً - اللهم إلا في أقاويل جماعة من المفسرين دون أي برهان.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٨٠.

ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾[١] ولم يماره أحد في دعوى رؤيته جبرئيل، فما كان موضوع النبوة بالرؤية حتى يكذبوه فيها، وإنما في ادعاء رؤية الله ببصيرة القلب ونور اليقين ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾[٢]؟، ثم وماذا يكسب الرسول ﷺ من رؤية جبريل ببصره أم بصيرته، وهو عليه السلام دوماً كان يتشرف بحضرته ﷺ وينزل بالوحي على قلبه ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[٣].

١٠ - ثم القسمة الضيزى: الظالمة، ليست في نكران رؤية جبرئيل، في حين أنهم يرون اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، وإنما هي بين ربه وأربابهم، أنهم يرونهم كما يمكن، وهو لا يرى ربه كما يتمكن، ولم يكن جبرئيل في وقت من الأوقات موضوع الرسالة، ومدار النفي والإثبات، ولا يثبت له كيان إلّا بعد ثبات الرسالة، فماذا يفيد الإصرار في أنه علمه الوحي، وأنه رآه! وتلك عشرة كاملة تحيل أن يكون شديد القوى هو جبرئيل.

إذاً فلا موقع لجبرئيل في هذه الآيات المعراجية، ولا قيد شعرة، ولا سيما أنها تركز على القرآن المحكم، الذي كان نزوله عليه ﷺ دون وسيط، ولا تلمح هذه الآيات إلى جبرئيل أبداً، إذاً فشديد القوى هو الله.

ثم لا يُعنى من القوى ما تعنيه الفلسفة في صلاحاتها، أنها قبال الفعليات، وإنما هي القدرات، ولام الاستغراق الداخلة على الجمع «القوى» تجعلها تستغرق كافة القدرات الإلهية، غير المحدودة، إنها شديدة متينة وليست ضعيفة وهينة، ومن شدتها لا محدوديتها، ومنها أزليتها وأبديتها، ومنها وحدتها في حين كثرتها، وكثرتها على وحدتها، فالله تعالى علّم هذا الرسول ﷺ وحيه بكل القوى، فما أبقى ما يمكن وحيه إلا

---

(١) سورة النجم، الآية: ١١.
(٢) سورة النجم، الآية: ١٢.
(٣) سورة الشعراء، الآيتان: ١٩٣، ١٩٤.

أوحى، علّمه ما لم يعلّمه أحداً من العالمين، من الملائكة والجنة والناس أجمعين، وما لن يعلّمه أحداً من العالمين، فإنه خاتمة الوحي، الذي بالإمكان تعليمه لأفضل الخلق أجمعين.

ففي وحي القرآن من الشدة والقوة الربانية ما ليس في غيره من وحي، فالقرآن النازل من شديد القوى، إنه شديد في كافة القوى، مشدود بالقدرات الربانية كلها، متحلل عن كلّ وهم ووهن، عزيز بعزة الله، ومجيد بمجد الله: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾(١) - ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾(٢).

فنجم القرآن الهاوي على قلب الرسول ﷺ الهادي الحاوي ما يمكن هديه من سماء الوحي، إنه فقط، وبطلائعه دليل من أنه كتاب الله، وأن حامله النجم المحمدي رسول الله ﷺ. ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى. علّمه شديد القوى:

﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧﴾:

المريرَ والممرّ: المفتول، وذو مرة هو محكم الفتل. وصيغته الأخرى «ذو قوة» ولكن المرة مضمّن فيها المرور فهل أنه من أوصاف شديد القوى المعلّم، أو صاحبكم المتعلم؟.

إن شديد القوى، ولو كان جبريلاً، لا يصح توصيفه مرة ثانية ودون فصل بمثل وصفه، أو نازلاً عن وصفه: «شديد القوى: ذو قوة» ولكنه هو الله، لا يوصف بمحكم الفتل، الموحي إلى رخوة المسبق، ولا أن له فتلاً، ولا أنه يمر ولا أنه يستوي، لا في ذاته ولا مكانته.

فليكن «ذو مرة» هو «صاحبكم» رغم الفصل بين الصفة والموصوف، حيث الفصل هنا هو بقول فصل يذود عنه وصمات، ثم يزوّده بخالص من

(١) سورة فصلت، الآية: ٤١.
(٢) سورة البروج، الآية: ٢١.

نسمات وحيه من معلمه شديد القوى، ثم يبدأ بأوصاف له وحالات تخلق له جوّ وحي المعراج، بعد مقام ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾، وأولى صفاته هنا أنه: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾: ذو قوة، وكما وصف بها في نظيرتها: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾[1] [2].

إنه لا بد من تدان معرفي بين المعلم والمتعلم حتى يتحقق التعليم كما يُرام، فإذا كان الله المعلم لمحمد ﷺ شديد القوى، فليكن هو أيضاً ذا قوة تجعله قريباً إلى شديد القوى علميّاً ومعرفياً، ولكي يتلقى ما يُلقى إليه تماماً دون نقصان.

«صاحبكم. . . ذو مرة: ذو قوة في عقله ورأيه، ذو قوة في مروره إلى الآفاق، وإلى الأفق المبين الأعلى، فليكن طائر المعراج هنا مزوّداً بجناحين: قوة الطيران، وقوة العقل والرأي، وبهاتين القوتين المتينتين:

﴿فَاسْتَوَىٰ﴾: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ. . .﴾ ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ﴾:

إذاً فاستواء صاحب المعراج يشمل الجانبين: الاستيلاء الروحي العلمي بما علّمه شديد القوى، والاستيلاء في البنية الجسدانية لأنه ذو مِرة: فتلة واستقامة في عقله وجسمه، فمروره الجسداني والروحاني في عمق الفضاء إلى سدرة المنتهى وما فوقها من نتائج هذه الثنائية السامية الربانية الموحاة إليه، المفاضة عليه، أنه في رحلته الفضائية، هذه، المنقطعة النظير، كان بين تجاذب: جذبة إلهية، وانجذاب له ذاتي بما علمه الله، وبما فتل جسمه

---

(١) سورة التكوير، الآيات: ١٩-٢٤.

(٢) القمي في تفسيره عن أبيه عن النضر بن سويد عن يحيى الحلبي عن ابن سنان قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «أول من سبق إلى (بلى) رسول الله وذلك أنه كان أقرب الخلق إلى الله تعالى وكان بالمكان الذي قال له جبرائيل عليه السلام لما أسري به إلى السماء: تقدم يا محمد لقد وطأت موطئاً لم يطأه ملك مقرب ولا نبي مرسل. . .».

كما فتل عقله، لحدّ لم يصطدم بتلك السرعة الخارقة التي تخطت سرعة الضوء - علّه - بملايين الأضعاف! وكما سيمر عليك بحثه بعد قليل.

﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾: ولأنه ذو مرة فاستوى، ولأنه علّمه شديد القوى فاستوى: حال أنه بالأفق الأعلى، فهنا استواء أول، قد حصل بما علمه شديد القوى، وإنه ذو مرة، واستواء ثانٍ إذ عرج بهذا الاستعداد المطلق إلى أعلى الآفاق الممكنة لسائر الكائنات: قلباً وقالباً، ثم ارتقى إلى أفق أعلى هو مقام «ثم دنا» ثم إلى أعلى منها وهو مقام «أو أدنى» وهو الأفق المبين الذي بان له فيه رب العالمين، إذ رآه بنور اليقين: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾[(١)] فقد «علا فاستعلى فجاز سدرة المنتهى وكان من ربه قاب قوسين أو أدنى»[(٢)]: في مثلث من أعلى الآفاق مختلف السياق، فلم يشاركه في الأعلى الأول أحداً من العالمين، فأنّى لهم بالثاني، ثم الثالث وهو الأفق المبين!.

والأفق هو مد البصر في الدائرة المحيطة بالمبصر، بصر العين أو بصيرة اليقين، فالأفق الأعلى هو أعلى الامتدادات للبصائر والأبصار في أعلى الأماكن أو المكانات، فقد خطا في معراجه ﷺ ثلاث خطوات، إلى الأفق الأعلى قياساً لسائر الممكنات، ثم إلى أفق «ثم دنا» وأخيراً إلى أفق أعلى منهما: «فتدلى» حيث لم يشاركه في تخطيه أحد من الروحانيين، وحتى جبرئيل الأمين.

﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾:

دنوّاً واقتراباً من العلي الأعلى -[(٣)]، - دنوّ معرفي إلى الله، وتدل

---

(١) سورة التكوير، الآية: ٢٣.

(٢) الاحتجاج للطبرسي حديث طويل عن الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام أنا ابن من عَلا . . . فالعلو الأول هو الأفق الأعلى الأول ثم واستعلاؤه هو الثاني في سدرة المنتهى، وجوازه سدرة المنتهى هو الأفق الثالث.

(٣) من فقرات دعاء الندبة.

معرفي بالله «دنا بالعلم»[١] وتدلى بالتجاهل عن نفسه «ولولا أن روحه ونفسه كانت من ذلك المكان لما قدر أن يبلغه»[٢] فـ «لم يزل عن موضع ولم يتدّل ببدن»[٣] (ليس بدنو حد، وإنما دنو النبي ﷺ من ربه وقربه منه، إبانة عظيم منزلته، وتشريف رتبته، وإشراق نور معرفته، ومشاهدة أسرار غيبه وقدرته، ومن الله له مبرة وتأنيس وبسط وإكرام)[٤] وكما يروى من صاحب المعراج أيضاً «لمّا عرج بي إلى السماء دنوت من ربي حتى كان بيني وبينه قاب قوسين أو أدنى»[٥] «قربني ربي حتى كان بيني وبينه كقاب قوسين أو أدنى»[٦] وفي هذه الحالة التجردية «رفع له حجاب من حجبه»[٧] وهو الحجاب الأخير الممكن رفعه، وهو حجاب ذاته ﷺ المقدسة، وبقي حجاب ذات الله سبحانه وتعالى، المستحيل رفعه لمن سوى الله.

فهنالك دنوّ، ثم تدلٍّ، ثم وحي، وأهم من كل ذلك رؤية الله: أقرب القرب إليه معرفياً: دعائم أربع تدعم مكانة صاحب المعراج، وتتبنى كيانه الروحي لأعلى الدرجات المعرفية بالله، حيث لا خبر عنه لا لملك مقرب، ولا نبي مرسل، فإنها من خصائص صاحب المعراج!، وكما تتبنى سفرته الفضائية لمنتهاها حيث رأى من آيات ربه الكبرى:

(١) الاحتجاج للطبرسي عن موسى بن جعفر عن آبائه عن الحسين بن علي عليهما السلام في حديث قال: «دنا بالعلم».
(٢) تفسير القمي بإسناده عن الصادق عليه السلام أول من سبق إلى «بلى» رسول الله ﷺ وذلك أنه أقرب الخلق إلى الله وكان بالمكان الذي قال له جبرائيل لما أسري به إلى السماء: تقدم يا محمد! فقد وطئت موطئاً لم يطأه ملك مقرب ولا نبي مرسل ولولا أن روحه...
(٣) الاحتجاج للطبرسي عن موسى بن جعفر عليه السلام في آية التدلي.
(٤) تفسير روح البيان ج ٩: ٢٢٠ رواه عن الإمام الصادق عليه السلام.
(٥) أمالي الطوسي بإسناده إلى ابن عباس قال رسول الله ﷺ:
(٦) روح البيان ج ٩: ٢١٩ عنه ﷺ.
(٧) علل الشرائع عن الإمام موسى بن جعفر في حديث طويل: فلما أسري بالنبي وكان من ربه كقاب قوسين أو أدنى رفع له حجاب من حجبه.

﴿ثُمَّ دَنَا﴾ أن خرق كافة الحجب الظلمانية والنورانية، بينه وبين ربه، وخرق حجاب الصحبة بما سوى الله، إذ عرج عنها بقالبه كما كان عارجاً بقلبه، فلم يبق هنالك أي حجاب اللهم إلا حجاب نور الأنوار: نفسه المقدسة، متحللاً عما سواها واقعياً وباختياره، حيث لا مجال لصحبة غير الله، والأنس بما سوى الله، ومثاله في دنوه هذا:

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ فإن الحليفين من العرب كانا إذا أرادا عقد الصفاء الخالصة خرجا بقوسيهما فألصقا بينهما، يعنيان بذلك أن لا شيء هنا يفصل بينهما، فهما متحدان في كل مقصد ومرمى.

وكما أن القوسين المتلاصقين يشكلان قاباً وملتقى واحداً، كذلك الرسول ﷺ في دنوه هذا إلى الله لصق قاب قوسه بقاب قوس ربه، فتلاصق القوسان: قوس الوجوب وقوس الإمكان في قاب واحد، لا يحول بينهما حائل من جانب الإمكان إلا عجزه عن اكتناه ذات الواجب، ولا حائل من جانب الوجوب إلا حجاب ذات الألوهية الذي لن يرتفع أبداً، حجابان في قاب واحد، فهما إذاً حجاب واحد، ولم يبق هناك أي حجاب إلا هذا الذي لن يرتفع، اللهم وإلا حجاب ذات النبي عليه السلام وقد ارتفع أيضاً إذ تدلى:

﴿فَتَدَلَّىٰ﴾: بيني وبينك إني ينازعني فارفع بلطفك إني من البين أنه بعد أن دنا هكذا إلى الله، تدلى أيضاً بالله فكان مثاله من القوسين:

﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾: فقد انمحى قوس الإمكان، وتدلى بقوس الرحمان، فأصبح:

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾(١).

(١) إن الآية من اللف والنشر المرتب، فكان قاب قوسين إذ دنا، أو أدنى إذ تدلى، فـ «أو» هذه للترتيب، لا الإبهام أو التشكيك.

وكما يروى عنه ﷺ: «قربني ربي حتى كان بيني وبينه كقاب قوسين أو أدنى»[(١)].

فالتدلي هو التعلق، فقد يكون مشوباً وقد يكون محضاً خالصاً، وصاحب المعراج بعد أن دنا إلى الله خالصاً، كذلك تدلى بالله خالصاً، متناسياً ما سوى الله وحتى نفسه، متحللاً متخلياً عن الكائنات إلى رب الكائنات، وهذا هو الفناء في الله، أن يصبح العبد كأنه لا شيء، أو أنه لا شيء ويرى ربه أنه الشيء وليس سواه شيء، هذا! لا الذي يدعيه من يتسمون أرباب الكشف والشهود، أن الفناء في الله هو أن يصبح العبد إلهاً من شدة قربه أو خلطه بربه، كما يصبح الفحم ناراً إذ تشمل كيانه كله، وهذا إلحاد في الله، ترفيعاً للعبد إلى درجة الألوهية، وتنزيلاً للرب إلى منزلة العبودية!

وإنما الحق شعور العبد في سيره إلى الله أنه لا شيء، ثم التدلي بالله وهو مقام أو أدنى، فكما الله أدنى إلينا منا علمياً وقيومياً، فلنكن نحن أقرب إليه منا إلى أنفسنا، وهذه المرحلة من المعرفة لا تتيسر إلا لصاحب المعراج محمد ﷺ.

لقد كان الرسول ﷺ - وقبل معراجه - أقرب المقربين إلى الله، لا يحجب بينه وبينه حجاب وهو في الأرض، إلا أن طبيعة الحال تقتضي في معراج هكذا، وإلى الأفق الأعلى، واضعاً قدميه على كاهل الكون، تاركاً ما سوى الله تحت قدميه ويقالبه، بعد أن كان تاركاً لها بقلبه، منعزلاً وحتى عمن أرسل إليهم، إن هذه الحالة التجردية تقتضي أن يكون هناك من ربه قاب قوسين أو أدنى، دون أن يبقى أي حجاب وحتى حجب النور: من صحبته المرسل إليهم، ومن ممارسته حاجيات الأرض، ومن نفسه المقدسة، حيث

---

(١) تفسير روح البيان لإسماعيل حقي ج ٩: ٢١٩.

خرقها كلها متناسياً لها، فاتصل بمعدن العظمة فرأى ما رأى، ومن آيات ربه الكبرى[١] ولو إن بقيت هذه الحالة التجردية في مقام «أو أدنى» أو وحتى في «دنا» لاشتغل عن الكون وعن رسالته وعن نفسه وقضى نحبه، وهذا باب من المعرفة الإلهية لن يعرفها إلا صاحب المعراج، وهي التي استدعاها موسى عليه السلام فأجيب ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾[٢] لم يكن في وسعه العروج إلى الأفق الأعلى وهو موسى، كما لا يتسع الجبل فوق ما يتحمل.

وفي هذه المرحلة النهائية من الزلفى إلى الله، أوحى إليه الله ما أوحى:

﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ۝١٠﴾:

وحي خاص في وقت خاص وكما يروى عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «لي وقت مع الله لا يطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل»[٣] «أوحى إلى عبده ما أوحى بلا واسطة فيما بينه وبينه سراً إلى قلبه لا يعلم به أحد سواه»[٤].

سر مستسر عمن سوى الله وسواه، لم يوحَ إلى أحد من المرسلين، ولا

---

(١) علل الشرائع عن زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام سئل عن الله جل جلاله هل يوصف بمكان؟ فقال: تعالى عن ذلك، قيل: فلم أسرى بنبيه صلى الله عليه وآله وسلم إلى السماء؟ قال: ليريه ملكوت السماوات وما فيها من عجائب صنعه وبدائع خلقه، قيل: فقول الله عز وجل: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ...﴾ [النجم: ٨] قال: ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دنا من حجب النور فرأى من ملكوت السماوات ثم تدلى فنظر من تحته إلى ملكوت الأرض حتى ظن أنه في القرب من الأرض كقاب قوسين أو أدنى.

أقول: ذيل الحديث مردود إلى راويه أو يؤول إلى ما يناسب الدنوّ إلى الله والتدلي بالله، وعلّ منه أن ذلك الدنوّ والتدلي كشف له ملكوت السماوات والأرض كما كشف له عن المحجوب من غيب معرفة الله، الممكن كشفه - تأمل.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٤٣.

(٣) تفسير روح البيان ج ٩: ٢٢٠ عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام.

(٤) تفسير روح البيان ج ٩: ٢٢١ عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام.

الكروبيين، اللهم إلا إلى صاحب المعراج، إلى قلب محمد ﷺ ومن ثَمّ إلى قلب محمدي، إلى قلوب الطاهرين من عترته، الذين رباهم بتربيته، وطهرهم الله كطهارته، وأذهب عنهم الرجس أهل البيت كما أذهب عنه ﷺ.

إن هناك وحياً نطق به، في قرآنه وسنّته، يحمله ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥)﴾ ثم وحي ثانٍ، علـه نطق ببعضه واعرض عن بعض، يحمله ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ وعلّ الأول يشمل الثاني في رموزه بغموضه، أسرار تختص بصاحب المعراج، ثم ومن نحا منحاه.

﴿إِلَىٰ عَبْدِهِ﴾ كأنه هو فحسب عبده لا سواه، إذ وصل إلى أعلى درجات المعرفة بربه وعبوديته، وكما كان أول العابدين: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾[١].

ترى ماذا الذي أوحى إلى عبده؟ هل هو القرآن المفصل؟ ولم ينزل كله ليلة المعراج وإنما طوال البعثة! أو القرآن المجمل؟ وقد نزل ليلة القدر وقبل المعراج! أو علّه القرآن المحكم مع رموز غيبية، وبرقيات رمزية، وعلّ منها مفاتيح كنوز القرآن، تأويل الحروف المقطعة، الذي اختص به محمد ﷺ دون سواه، اللهم إلا من حذا محذاه من عترته المعصومين المحمديين، ولقد كان من ملحقات هذا الوحي انتصاب علي عليه السلام بإمرة المؤمنين[٢] كما

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٨١.

(٢) أمالي الشيخ الطوسي قال: قال رسول الله ﷺ: لما أسري بي إلى السماء كنت من ربي كقاب قوسين أو أدنى فأوحى إلي ربي ما أوحى ثم قال: يا محمد اقرأ: علي بن أبي طالب أمير المؤمنين، فما سميت بهذا أحداً قبله ولا أسمي بها أحداً بعده.

أقول: قوله ﷺ ثم قال: يوحي أنه لم يكن من أصل «ما أوحى» وإنما من ملحقاته.

وفي أصول الكافي العدة بإسناد متصل عن علي بن أبي حمزة قال: سأل أبو بصير أبا عبد الله عليه السلام وأنا حاضر فقال: جعلت فداك كم عرج برسول الله ﷺ؟ فقال: مرتين فأوقفه جبرئيل عليه السلام موقفاً فقال له: مكانك يا محمد! فلقد وقفت موقفاً ما وقفه ملك ولا نبي - إلى قوله - فنظر في سم الإبرة إلى ما شاء الله من نور العظمة فقال تعالى: يا محمد! قال: لبيك ربي - قال: =

وإن منها آيات مفصلات من قرآنه المبين(١) أم وماذا بعد؟ لا يعلمه إلا من أوحي إليه، ولا توحي آيته بشيء منه إلا: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾، وقد تلمح أنه أوحى إليه كل ما أوحاه طوال بعثته، من قرآنه وسنّته، ولكنه بصورة مجملة فيها كل التفاصيل!. ومن ملحقات هذا الوحي تكشّفه ﷺ عن أسماء أهل الجنة والنار(٢) فهذا وأشباهه من مخلفات انكشاف ملكوت السماوات والأرض له، حين تصفّى عن كل كدر عارضي وإن كان من حجب النور، فأصبح يرى بعين الله، ويسمع بإذن الله، منكشفاً له كل خلق الله اللهم إلا ما اختص بعلمه الله.

ولقد كان في معراجه ﷺ تشريف له أن يخترق حجب النور إلى معدن العظمة، وكما «أراد أن يشرف ملائكته وسكان سماواته بمشاهدته، ويريه من عجائب عظمته ما يخبر به بعد هبوطه»(٣).

---

= من لأمتك بعدك؟ قال: الله أعلم، قال: علي بن أبي طالب أمير المؤمنين وسيد المسلمين وقائد الغر المحجلين، ثم قال أبو عبد الله عليه السلام لأبي بصير: يا أبا محمد والله ما جاءت ولاية علي من الأرض، ولكن جاءت من السماء مشافهة.

(١) القمي عن أبيه عن ابن أبي عمير عن هشام عن أبي عبد الله عليه السلام أن قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ...﴾ [البَقَرَة: ٢٨٥] مشافهة الله لنبيه ﷺ لما أسري به إلى السماء. وفي احتجاج الطبرسي عن الحسين بن علي عليه السلام في الآية: «فكان فيما أوحي إليه» الآية التي في سورة البقرة: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٤] وكانت الآية قد عرضت على الأنبياء من لدن آدم عليه السلام إلى أن بعث الله تبارك اسمه محمداً ﷺ وعرضت على الأمم فأبوا أن يقبلوها من ثقلها وقبلها رسول الله ﷺ وعرضها على أمّته فقبلوها.

(٢) بصائر الدرجات عن الصادق عليه السلام في إسراء النبي ﷺ حتى انتهى إلى سدرة المنتهى، فقالت السدرة: ما جازني مخلوق قبل. قال: ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى، قال: فدفع إليه كتاب أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، فأخذ كتاب أصحاب اليمين بيمينه وفتحه فنظر إليه فإذا فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم، ثم طوى الصحيفة فأمسكها بيمينه وفتح صحيفة أصحاب الشمال فإذا فيها أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم نزل ومعه الصحيفتان فدفعهما إلى علي بن أبي طالب عليه السلام.

(٣) التوحيد للصدوق عن موسى بن جعفر في علل المعراج.

ولأن هذا الدنوّ وهذا التدلي ثم ذلك الوحي، هذا المثلث النوراني المعرفي كان من عمل الفؤاد، من رؤية البصيرة لا البصر، وقد كان محمد ﷺ حينه في مثلث الرؤية النورانية المعرفية لربه، وهذا ما لا يسع فهمه العالمون فكيف بالجاهلين، لذلك كذبوه فصدقه الله تعالى في رؤية الدنوّ والتدلي والوحي:

﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ (١١) أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ (١٥) إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ (١٨)﴾:

فلولا أن الدنوّ فالتدلي والوحي هنالك، لولا أنها رؤية الفؤاد والبصيرة، لا رؤية البصر، لم يكن لهذا الاستدراك من معنى ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ ومهما رأى ببصره أيضاً ﴿مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ فلقد زوّد برؤية البصر لآيات الله، وبرؤية البصيرة لله. !

فإن ذلك التدلي ووحيه لزامهما الرؤية المعرفية القمة، مهما كانت هناك رؤية أخرى حين النزلة عن الأولى، عنده سدرة المنتهى، أو كان في هذه الأخرى وحي آخر علّه أدنى من الأول، أم ماذا؟..

ولماذا الفؤاد هنا في موقف أعلى مدارج المعرفة، لا القلب، أو الصدر، أو الروح، فما هو الفؤاد؟.

الفؤاد هو القلب المتفئد: المتوقد، وهو وسط القلب ولبّه، ولأنه ﷺ رأى ربه في مقام التدلّي: بقلب متوقد بوقود المعرفة، ملتهب بلهيب الشوق والإيمان، ويلبابه، لذلك يذكر هنا الفؤاد، أنه ما كذب ما رآه، فمهما أخطأ البصر في مبصره، أو بصيرة الإحساس والفهم والعقل والصدر والقلب في مبصراتها المناسبة لها، ولكنما اللباب من القلب الملتهب المحمدي، الهائم الشغف في الوصال، إنه لا يكذب، فهذه الرؤية لا تقبل المماراة والمحاجة:

﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ هل لكم أن تحاجوه فيما يرى ببصره؟ فكذلك وأحرى لا تماروه فيما يرى ببصيرته، بلب قلبه الملتهب[١] ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾: ربّه هكذا أو أدنى ﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾..

ومما نستوحي من «رأى» مرتين و«يرى» أنه حصلت له الرؤية المعراجية مرتان في معراجيه، ثم هو كان يرى ربه طوال رسالته، فإن ﴿يَرَىٰ﴾ توحي بالاستمرار دون «رأى» والفرق بين الرؤيتين: المعرفيتين، أن المعراجية منهما مزوّدة بزاد التدلي، وليست الدائمة هكذا، فإن الحياة الرسالية وفي الأرض وبين الناس، تتنافى والتدلي، الذي هو تحلّل عن كل شيء، وتغافل حتى عن نفسه فضلاً عمن سواه، إلا الله والله فقط.

إن صاحب المعراج رأى ربه هناك بنور اليقين، وعلى حدّ المروي عنه ﷺ: «لم أره بعيني ورأيته بفؤادي مرتين» جواباً عن سؤال: هل رأيت ربك؟ ثم تلا ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾[٢] وقال: «نوراني أراه»[٣]: أن «خرق له في الحجب مثل سمّ الإبرة فرأى من نور العظمة ما شاء الله أن يرى» على حدّ المروي عن الإمام الرضا عليه السلام [٤] وما نور العظمة بعد خرق الحجب إلا نور المعرفة النهائية، الممكنة لمن سوى الله.

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾: وقد توحي أن الرؤية الأولى كانت عند النزلة

---

(١) التوحيد للصدوق بإسناده إلى محمد بن الفضيل قال: سألت أبا الحسن عليه السلام هل رأى رسول الله ﷺ ربه عز وجل؟ فقال: نعم بقلبه رآه، أما سمعت الله عز وجل يقول: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾، لم يره بالبصر ولكن رآه بالفؤاد.

(٢) الدر المنثور ٦: ١٢٤ - أخرجه جماعة عن كعب القرظي عن بعض الأصحاب عنه ﷺ..

(٣) الدر المنثور أخرجه مسلم والترمذي وابن مردويه عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال:...

(٤) القمي بإسناد متصل عن علي بن موسى الرضا عليه السلام في حديث.

الأولى، وبعدما وصل إلى عمق من المعراج: سدرة المنتهى، وأنه ﷺ عرج هكذا مرتين[1]: فلكل نزلة عروج، وعلّ الرؤية هنا وهناك كانت بين النزلة والعروج، حينما كانت المعرفة بالغة الذروة، والتدلي إلى النهاية، . . ولماذا عند النزلة؟ إذ هي النهاية في سير المعراج فهي أعلى المعراج، ولأن النزلة قد تعني نزوله عن كافة الإنيات، وخروجه عن جميع الحجابات، ولحدّ الصفر واللاشيء، إذ يترك وراءه كل شيء، فلا يرى أي شيء، وإنما يرى خالق كل شيء، وقد أصبح بتمامه عيناً وبصيرة، فرآه في هذه النزلة وبين منتهى المعراج ومبتدأ النزول، رآه كما يمكن أن يراه.

وترى أين رآه؟ - لو صح هنا - «أين»؟ وهل أن الرؤيتين هما في مقام واحد؟ . . . إنه رآه ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦﴾.

فهناك أفق أعلى، ثم دنوّ، ثم تدلٍ، ثم وحي، وبهذا الأخير تتم الرؤية عند سدرة المنتهى وما فوقها، فما هي السدرة؟ وما هو منتهاها؟ وما هي غشاءها؟.

قد توحي ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ أن سدرة المنتهى فوقها، أو تحيط بها، وإلّا فلماذا لم يقل «عند الجنة المأوى»؟ . . فهذه العندية توحي تماماً بما استوحيناه.

فقد وصل الرسول ﷺ وهو حي لم يمت، وصل إلى أشرف وأعلى من الجنة المأوى، وهنالك ليس إلّا مقام صاحب المعراج، إذ تركه صاحبه جبرئيل عند سدرة المنتهى قائلاً: «يا محمد! إن هذا موقفي الذي وضعني الله عزّ وجلّ فيه، ولن أقدر على أن أتقدمه، ولكن امض أنت أمامك إلى السدرة

(١) كما في أحاديث عدة، مثل ما مضى عن الصادق عليه السلام في جواب أبي بصير عن قوله: كم عرج برسول الله ﷺ؟ فقال: مرتين.

فقف عندها، فتقدم رسول الله ﷺ وتخلف جبرئيل عليه السلام [١] وقال: «تقدم يا رسول الله ﷺ! ليس لي أن أجوز هذا المكان ولو دنوت أنملة لاحترقت»[٢].

وقد تلمح ﴿رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ إن هناك مقاماً فوق السدرة عله العرش، أو حجب النور، أو هما واحد[٣] فالرؤية الثانية كانت عند السدرة حين النزلة، فهي إذاً منزل هذه الرؤية، فلم يكن فوقها مقام أعلى حتى ينزل منها إلى السدرة، ولكي تتحقق الرؤية الثانية في النزلة عند السدرة، وكما يروى عن صاحب السدرة: «فلما جاوزت السدرة انتهيت إلى عرش رب العالمين جل جلاله»[٤]

---

(١) علل الشرائع بإسناده إلى حبيب السجستاني قال: قال أبو جعفر عليه السلام: يا حبيب ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾ يعني عندها وافى به جبرئيل حين صعد إلى السماء فلما انتهى إلى محل السدرة وقف جبرئيل دونها وقال: يا محمد!...
وفي بصائر الدرجات عن الصادق عليه السلام حتى انتهى إلى سدرة المنتهى فقالت السدرة: ما جازني مخلوق قبل.
وفي تفسير القمي إسماعيل الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام قال: فلما انتهى به إلى سدرة المنتهى تخلف عنه جبريل عليه السلام فقال رسول الله ﷺ: في هذا الموضع تخذلني؟ فقال: تقدم أمامك، فوَ الله لقد بلغت مبلغاً لم يبلغه خلق من خلق الله قبلك فرأيت من نور ربي وحال بيني وبين السبحة، قلت: وما السبحة جعلت فداك؟ فأومى بوجهه إلى الأرض وأومى بيده إلى السماء وهو يقول: جلال ربي ثلاث مرات.
أقول: على السبحة هي تنزهه تعالى عن المكان. فاللامكان حال بينه وبين ربه، أي لم يبق فصل وحجاب إلا حجاب الذات اللامكان.

(٢) المناقب عن ابن عباس في حديث المعراج: فلما بلغ إلى سدرة المنتهى وانتهى إلى الحجب...

(٣) نور الثقلين ٣: ٩٩ عن توحيد الصدوق عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام سئل: لأي علة عرج الله عز وجل نبيه إلى السماء ومنها إلى سدرة المنتهى ومنها إلى حجب النور وخاطبه وناجاه هناك» أقول فالعرش في حديث آخر لغير عرش المعرفة ومنتهاها لغير الله.

(٤) الخصال للصدوق عن علي عليه السلام أن الرسول ﷺ قال في وصيته له عليه السلام: يا علي: إني رأيت اسمك مقروناً باسمي في أربعة مواطن فأنست بالنظر إليه - إلى قوله - فلما انتهيت إلى سدرة المنتهى وجدت مكتوباً عليها: إني أنا الله لا إله إلا أنا وحدي، محمد صفوتي من خلقي، أيدته بوزيره ونصرته بوزيره، فقلت لجبرئيل: من وزيري؟ فقال: علي بن أبي طالب عليه السلام فلما جاوزت السدرة انتهيت إلى عرش رب العالمين جل جلاله.

فقد «على فاستعلى فجاز سدرة المنتهى وكان من ربه قاب قوسين أو أدنى»[١].

هذا، ولكنما الأعلى هذا قد لا يتطلب وحياً ورؤية أعلى، فإنها معرفية وفي المكانة، لا لشرف المكان فقط، أو أن تلقّي الوحي وإدراك الرؤية، إنما كان عند النزلة، إذ إنه ﷺ قبل النزلة كان في واقع الرؤية ولمّا يدركها، لأنه انمحى عن كونه وكيانه بما تدلى في مقام أو أدنى، ثم عند النزلة رأى الرؤية، وتلقى الوحي أم أوحي إليه فيهما، وكما أوحي في سائر السماوات[٢].

ثم ما هي سدرة المنتهى؟ هل هي فقط المكان الأعلى فوق السماء السابعة العليا؟ فبمجرد أنه مكان لماذا لم يسمح لجبرئيل ولا لأحد ممن سوى رسول الله ﷺ أن يدنو منها! فلا بد أن تكون مكانة عليا، وإن كانت في مكان أعلى فإن عندها جنة المأوى، فلن تصل أهل الجنة إليها مكاناً ولا مكانة.

ولأن الرؤية المعرفية لاحت عندها، وليس لهذه الرؤية مكان، فلتكن مكانة فيها تتكشف الحجب، فيتحقق مقام «دنا فتدلى» لكي يوحي إلى عبده ما أوحى!.

نجد هنا تجاوباً تاماً بين ما يتطلب موقف السدرة، وما تعنيه لغة السدرة.

فالسدرة واحدة السدر، أو هيئة خاصة منه، من سَدِر البصر: لم يكد يبصر، والبعير تحير من شدة الحر، والسادر المتحير، والسدر: اسدرار البصر وتحيره، وكل هذه تجمعها صيغة واحدة: الستر والظل، سميت بها

---

(١) الاحتجاج للطبرسي حديث طويل عن الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام: أنا ابن من علا..

(٢) كما يدل عليه الحديث رقم (١) «و منها إلى حجب النور وخاطبه وناجاه هناك».

شجرة السدر لكثرة غنائها في الاستظلال بسعة أوراقها، فهي من شجر الجنة: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾[١].

وبما أن ورقها تظل ظلاً واسعاً، وتنظف عن الدرن، عبر عن مقام التدلي بسدرة المنتهى: منتهى السدرة: منتهى السترة والحجاب عما سوى الله، وغاية النزاهة عن أدرانها، وإنما سميت المنتهى لذلك، ولأنها منتهى علم الخلائق، ثم ليس لأحد ورائها علم، فإنه من الغيب المخصوص بالله، فلما تستر وتحجب في ذلك المقام عمن سوى الله، رأى الله ببصيرة صافية دون حجاب، اللهم إلا حجاب الذات، وبما أن السدرة - كذلك - هي الحيرة، أصبح الرسول ﷺ في منتهى الحيرة لما وصل إلى منتهى المعرفة الإلهية الممكنة له دون من سواه، فاحتجب عمن سوى الله، فاخترق الحجب بينه وبين الله: احتجب حتى عن نفسه فتدلى، بعدما احتجب عن غيره إذ دنا ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ وعلى حد المروي عن صاحب السدرة: «انتهيت إلى سدرة المنتهى وإذا الورقة منها تظل أمّة من الأمم فكنت من ربي كقاب قوسين أو أدنى»[٢] إذاً فأوراقها تظل وتحجب كافة الأمم من كائنات العالم، وقد استظل صاحب السدرة في ظلها واحتجب عن الكائنات كلها، وأحرى منها ما في رواية أخرى: «إن الورقة منها تظل الدنيا»[٣]. فإذا ورقة منها تظل الدنيا، فأوراقها كلها تظل الآخرة والدنيا، دون أن تبقي ظلاً إلا ظل الذات المقدسة: !

و﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ تصريحة على كونها فوق السماء السابعة، محيطة بها، فتجاوب الآيتين الصريحتين أن سعة الجنة سعة السماوات والأرض:

---

(١) سورة الواقعة، الآيتان: ٢٧، ٢٨.

(٢) القمي: حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن هشام عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال النبي ﷺ:

(٣) قرب الإسناد للحميري بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: . .

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾[(١)] ﴿... كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[(٢)] فيسقط سؤال: إذا كان عرض الجنة السماوات والأرض فأين النار؟ وبما أن الجنة الآن موجودة فلتكن السماوات والأرض الآن كلاهما الجنة؟ فإن آية السدرة تجيب عنهما: أن الجنة المأوى هي عند سدرة المنتهى، فوق السماء السابعة وتحت العرش، فلتكن النار تحتها، ثم لا جنة الآن في هذه السماوات والأرض! إلا البرزخية لأهل البرزخ، وليست هي جنة المأوى.

﴿إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ﴾: فهناك السدرة مغشية كما هي غاشية، مغشية بحجاب الذات المقدسة الإلهية، وغاشية كل ما سوى الذات المقدسة وعلى الكل، فكما السدرة خرقت كل الحجب بينه وبين الله، كذلك لم تبق مكشوفة دون حجاب، وإنما غشيها ما يغشى: الذات المقدسة الإلهية التي تغشى دوماً إلا دون ذاتها.

فهناك في مقام التدلي لم يبق أيّ حجاب إلّا خرقتها السدرة، اللهم إلّا حجاب الذات، الدائبة دوماً أمام العارفين ﴿إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ﴾[(٣)] ونعم ما ينشد الشاعر الفارسي عن هذه الحالة المعراجية:

خيمة برون زد زحدود وجهات    پردهء أو شد تُتُق نور ذات
تيرگى هستى أز أو دور گشَت    پردگى پردهء آن نور گشت
كيست كز آن پرده شود پرده ساز    زمزمه اى گويد از آن پرده باز

ويقول آخر:

در آن ديدن كه حيرت حاصلش بود    دلش در چشم وچشمش در دلش بود

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣.
(٢) سورة الحديد، الآية: ٢١.
(٣) القمي في تفسيره قال عليه السلام: لما رفع الحجاب بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم غشي نور السدرة.

فلقد أصبح كله بصراً روحياً دون زيغ ولا غواية فيما رأى:

في هذا المقام حصل له من الزلفى ما لم يحصل لأحد من الخلق، ولا لجبرئيل وإسرافيل، إذ «إن بينهما وبين الله أربعة حجب: حجاب من نور وحجاب من ظلمة وحجاب من الغمامة وحجاب من الماء»[١].

﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾

إلى هنا كانت الرؤية المعراجية نصيب البصيرة والفؤاد، و﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ ثم نصيب البصر أنه رأى من آيات ربه الكبرى.

فالبصر ما زاغ: لم يمل عن جهة المبصر إلى غيره ميلاً يدخل عليه به الاشتباه، حتى يشك فيما رآه، وما طغى: أن يجاوز المبصر ويرتفع عنه، فيكون مخطئاً لإدراكه، ومتجاوزاً لمحاذاته، فلم يقصر البصر عن المرئي فيقع دونه، ولم يزد عليه فيقع وراءه، ولم يتجاوز الحد المحدود في عمله: أن يبصر الرب أو يحاول في إبصاره، أو أن يتعدى بعض الآيات الكبرى إلى كلها، وإنما ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ فـ ﴿مِنْ﴾ توحي بالتبعيض، كما وأن ﴿رَبِّهِ﴾ يلمح بأنها الآيات الكبرى الربانية، فالصيغة الجامعة هنا «فرأى محمد ﷺ ببصره من آيات ربه الكبرى»[٢] كما رأى ببصيرته ربه سبحانه وتعالى.

وإذا كانت الآيات الآفاقية الكبرى مشمولة لما رآه صاحب المعراج،

---

(١) تفسير القمي بسند عن الصادق عليه السلام حديث المعراج الطويل، فحجاب النور هو حجاب ذات الألوهية، وحجاب الظلمة ظلمة المحدودية والإمكان فيهما كما في الكائنات كلها، إلا من دنا فتدلى، وحجاب الماء والغمامة، علهما حاجيات الحياة، التي تناساها صاحب المعراج كما تناسى نفسه.

(٢) علل الشرائع للصدوق بإسناده إلى حبيب السجستاني عن أبي جعفر عليه السلام في حديث طويل...

فأحرى بالآيات الأنفسية: الكروبيين الكرام، وأنبياء الله العظام وأولياءه: أن يكونوا ممن رآهم في المعراج، وكما وردت بذلك كله أحاديثنا[1].

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾:

فما أظلمها قسمة بينهم وبين الله، أن أربابهم المزيفة الثلاثة تُرى، ولكن الله تعالى لا يرى، مهما اختلفت الرؤيتان بصراً وبصيرة، أو أن لهم الذكر وله الأنثى، إذ يجعلون لله ما يكرهون، ولهم ما يحبون ﴿تِلْكَ﴾:

---

(١) المصدر بإسناده إلى حفص بن غياث أو غيره قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن هذه الآية - قال: رأى جبرئيل على ساقه الدر مثل القطر على البقل، له ستمائة جناح قد ملأ ما بين السماء والأرض، وأخرج مثله أبو الشيخ عن ابن مسعود (الدر المنثور ٦: ١٢٥). أقول وهذه صورته الحقيقة الملكوتية.

وفي التوحيد للصدوق عن علي عليه السلام في الآية: «رأى جبرئيل في صورته مرتين هذه المرة ومرة أخرى، وذلك أن خلق جبرائيل عظيم فهو من الروحانيين الذين لا يدرك خلقهم إلا رب العالمين.

وفي أحاديث عدة أنه صلى الله عليه وآله وسلم أري النبيين عليهم السلام أجمع فصلى بهم وسألهم عن أشياء كما قال الله:

﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥] كما رواه فيمن رواه القمي في تفسيره بسنده عن أبي عبد الله عليه السلام.

وفي تفسير القمي بإسناده إلى أبي بردة الأسلمي قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول لعلي: يا علي! إن الله أشهدك معي في سبعة مواطن، أما أول ذلك فليلة أسري بي إلى السماء قال لي جبرائيل: أين أخوك؟ فقلت: خلفته ورائي، قال: ادع الله فليأتك به، فدعوت الله وإذ بمثالك معي، إلى قوله: وأما السادس لما أسري بي إلى السماء جمع الله لي النبيين فصليت بهم ومثالك خلفي، وفي أصول الكافي بسند متصل عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: ما لله عز وجل آية هي أكبر مني، أقول: يعني بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم فحين رأى من آيات ربه الكبرى فعلي عليه السلام من أكبر آيات الله، فليكن مثاله الحقيقي مما رآه صلى الله عليه وآله وسلم مع أمثلة سائر النبيين وسائر الكروبيين، وأحاديثنا متظافرة أن علياً عليه السلام كان ممن رآه النبي ليلة المعراج.

القسمة في الرؤية وفي الذكورة والأنوثة ﴿إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾: ظالمة جائرة، فإن ضاز بمعنى جار وظلم.

فإذ قد ترون أنتم آلهتكم، فلماذا تمارون الرسول إذ يقول: رأيت ربي بقلبي، ولو أن الرؤية المماري فيها كانت رؤية جبرئيل، انتفت الصلة بينها وبين رؤيتهم أربابهم، فالمجال هنا وهناك مجال رؤية الأرباب، دون الملائكة وأضرابهم!.

وهذه الأرباب: الأصنام الثلاثة، كانت كأن لها الزعامة بين معبوداتهم، وعلها - كما يقال - كانت تماثيل عن ملائكة ثلاث، اعتبروهم بنات الله وأخذوا يعبدون تماثيلهم، وكما توحي به ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ إذ لا صلة لها باللات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى، إلا إذا كانت تماثيل لها يعبدونها، إذاً فلها صلة بأسطورة أنوثة الملائكة، وكما يلمح من أنوثة هذه الأصنام أيضاً.

ثم الأخرى في مناة الثالثة الأخرى، علها صفة ذم كما في أمثالها، أي: مناة الآلهة: الثالثة الذليلة المتأخرة في المعبودية، إذ كانت الأصنام طبقات كما كانوا هم طبقات طبقية عارمة في العابدين والمعبودين.

﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾:

إنّ هذه الأسماء، ليس تحتها من معاني الألوهية شيء، لا أصالة: أن تكون آلهة مستقلين، ولا وكالة أن ينزل الله بها من سلطان، فتكون آلهة موكّلين، وهم لا يتبعون في هذه التسميات إلا الظن: كل وهم أسطوري لا يملك أي برهان، ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ وهم يرفضونها إلى الهوى، وإنما تقودهم ظنونهم وما تهوى الأنفس.

## أسئلة مطروحة حول:

### الغزوة المعراجية المحمدية ومركبتها العجيبة

### الرحلة الفضائية في نطاق العلم: في عمق الزمان والمكان:

ترى هل كانت الرحلة بالروح القدسية المحمدية دون جسم؟ كما تقوّلها بعض! أو جسمياً دون روح؟ كما تخرصها آخرون! أو بكلا الجسم والروح كما يقول الله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ في الإسراء، و﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ و«صاحبكم.. هو.. فأوحى إلى عبده» كما هنا في النجم، فيا ترى أن الرسول ﷺ صاحبنا ببعضه؟ أم بروحه وجسمه؟ أو أن «عبده» هو روحه فقط أو جسمه؟ فلماذا لم يقل: بروح عبده! أو جسمه؟ وإنما ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ الشامل كليهما، أو أن البصر المنفي عنه الزيغ والطغيان في السدرة، هو بصر الروح؟ وليس إلا بصيرة! أو بصر الجسم بلا روح؟ وهو ميت لا يبصر! أم كيف رأى ربه بنور اليقين عند السدرة التي عندها الجنة، بجسم بلا روح، أو روح بلا جسم! وهي دوماً في سدرة المعرفة وقد رأى هناك من آيات ربه الكبرى ببصره وهو في جسمه كما رآه هو ببصيرته وهي قلبه، فإنما المعراج بكِلا الروح والجسم.

فما يروى عن عائشة: «ما فقدت جسد رسول الله ﷺ ولكن الله أسرى بروحه»[1] يعارض هذه الآيات من عدة جهات، وأنه ﷺ بنى بها بعد الهجرة بزمان، وكان الإسراء بمكة قبل الهجرة بزمان من المسجد الحرام،.. كلا لا ذا ولا ذاك، وإنما عرج النبي بكله، وكما كان في الأرض، أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم عرج به من

(١) الدر المنثور: أخرجه ابن إسحاق وابن جرير عن عائشة قالت:..

الأقصى إلى أقصى السماوات وإلى سدرة المنتهى وما فوقها! لو لم تقصد من الأقصى نفسها[١].

وعلى ما يروى لم يشغل المعراج ذهاباً وإياباً ووقفة هناك إلا زهاء ثلث الليل ولنفرضه أربع ساعات، فأين البليارات البليارات من السنين الضوئية لاجتياز قطر السماوات وأين أربع ساعات، فهل إن العلم يتحمل تصوره فضلاً عن تصديقه؟!.

أقول: المعراج، حسب المستفاد من آيات الإسراء والنجم في وجه[٢]، له رحلتان: الرحلة الأرضية، والرحلة الفضائية في العمق، فالأولى: هي سري النبي ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، والثانية: عروجه من المسجد الأقصى إلى أقصى الآفاق، وكما يوحي بهما أيضاً «نبوئت هيلد» في النص الانقلوسي: «وِأَرُيِل كِسْها» «.. إن محمداً سوف يذهب ويطير» فذهابه سرية، وطيرانه عروجه.

ثم لا ريب أن الرحلة الفضائية المعراجية بمقدماتها وخلفياتها، أنها من المعجزات، ورغم عجز العلم عن تحقيق عملية الإعجاز وعن تفهمها أيضاً، فمن الثابت أن المعجزة لا تنافي العلم، فقد يفسرها العلم، وقد يعجز عن تفسيرها، إلا أنه لا يحيلها، فإن الآية المعجزة ليست لتخرق وتبطل القوانين الكونية - ما وصل العلم إليها وما لم يصل - وإنما تخترق - مطلة عليها - أسبابها الخفية، ومدى تأثيراتها، وزمن الحصول على مفعولاتها، لحدّ يعجز

---

(١) بحار الأنوار ج ١٨ الطبعة الحديث ص ٣٣٩ من الاحتجاج للطبرسي عن علي عليه السلام قال: «لقد أسري برسول الله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في أقل من ثلث ليلة» أقول: لا يعني أنه وقت المعراج الأرضي فحسب، وإنما المدة التي شغلته حتى رجع إلى مكة، وقد يعني من المسجد الأقصى - وهو أقصى المساجد وأبعدها إلى المسجد الحرام - قد يعني المسجد الذي هو في سدرة المنتهى، فليس الذي في القدس هو الأقصى وإنما مسجد الكوفة، وإن سمي أقصى فعلّها لكونه مواجهاً للأقصى الذي في السدرة.

(٢) أن يكون المسجد الأقصى هو الذي في القدس.

عنها من سوى الله، إلا من يجريها الله على يديه أو لسانه أم ماذا. . كآية تدل على أنه رسول من الله.

فالآية المعجزة ليست بلا أسباب، أو بما تقصر عن التسبب، وإنما بأسباب خفية عن العلم، أو ظاهرة له بعيدة عن القدرة غير الإلهية، أو أنها بإرادة مسبب الأسباب، دون أسباب تعودناها، فليس إذاً بإمكاننا تحليل عواملها، مهما تمكننا من تحليل كيفية وقوعها، أو إمكانيتها علمياً، وقد لا نتمكن من الحصول على الإمكانية العلمية، ولكنه ليس ليدل على عدم الإمكانية الواقعية أو العقلية.

لقد كانت الهيئة البطليموسية تحيل المعراج الجسماني لاستلزامه الخرق والالتئام، إذ كانت تعتبر الأرض مركزاً للكون، والفضاء الخارجي أفلاكاً زجاجية مركبة من طبقات تسع، سبعة منها مدارات خاصة للسيارات السبع التي تنزلق داخلها كما تنزلق الكرة على صفحة الزجاج، وأما الفلك الثامن فكان مسرحاً للنجوم الثوابت، بينما كان الفلك التاسع خالياً عن النجوم.

فبحساب هذه الهيئة، تكون الأفلاك التسعة على الشكلية البصلية كالزجاج: لا تقبل الخرق والالتئام.

ولقد نُسفت هذه الهيئة بأسطوراتها منذ زمن بعيد، بالناسفات القرآنية والعلمية معاً، ثم خلفتها بعض النظريات في غزو الفضاء، إذ ما كانت تعرف سرعة أكثر من مائة ك. م في الساعة، وغزو الفضاء يتطلب - لأقل حدوده - ١١ ك. م في الثانية، حتى نسفها اختراع الأغلفة المختلفة التي يحافظ على طائرات وصواريخ تسير بسرعة **٢١** ك م في الثانية.

ثم بقيت هناك في السرعة المعراجية مشاكل تحول دون تصديقها علمياً، كمشكلة السرعة والحرارة، فالسرعة - ولا سيما الخارقة المعراجية - تخلق حرارة تناسبها، لحدّ تصبح المركبة كأنها الحرارة نفسها، وفي القمة التي لا يبقى أي عنصر كنفسه، وكذلك تصطدم بالشهب والنيازك النارية، وبنيازك

الهواء نفسها، فالمركبة المعراجية إضافة إلى تبدلها بحرارة فوق التصور، تُقصف ببليارات من قاذفات النيازك الشهابية، والهوائية، مما تقلل عن حركتها وتعرقل دون سرعتها وتفجرها في طريقها، فهذه من ناحية.

ومن جهة أخرى، فإن النظرية النسبية لآينشتاني تفيد: أن أقصى سرعة ممكنة في الكون هي سرعة الضوء: ٣٠٠٠٠٠ ك. م في الثانية[١] ويبرهن هو وغيره على ذلك ببراهين علمية: أن أي جسم لا يستطيع أن يبلغ في سرعته سرعة الضوء، إلا أن يتبدل ضوء[٢].

فلنفرض أن جسم النبي في السرعة المعراجية أصبح ضوء، إلا أن أربع ساعات: التي قدرت للسفرة المعراجية، لا تكفي إلا لاجتياز ـ..... ٧٣٢ ك. م التي لا توصله إلى آخر الكواكب من المنظومة الأدنى (الشمسية) للمجرة الأدنى، وهو (بلوتون) حيث تفصل عن الأرض ٥ و٥ ساعات ضوئية، في حين أن قطر البعض من ملايين المجرات في السماء الأولى - فقط - ملايين من السنين الضوئية!، وبعض نجومها تبعد عنا أكثر من مائتي ألف مليون سنة ضوئية! فقطر السماء الأولى - سماء الأنجم - بليارات بليارات من السنين الضوئية، فكيف بالسماوات الست الأخرى!.

---

(١) يقول آينشتاني: «إن كتلة تصور مجموعة من الأجسام يمكن أن يعتبر دليلاً على مقدار طاقتها، وعلى ذلك يصبح قانون بقاء كتلة مجموعة ما مطابقاً لقانون بقاء الطاقة للمجموعة نفسها» (النظرية النسبية الخاصة والعامة لألبرت أنيشتين - ترجمة دكتور رمسيس شحاتة ص ٤٨).
ويقول: «إن طاقة الحركة هو لنقطة مادية تتحرك لم يحددها المقدار المعروف ك ع ٧ / ٧ بل يعبر عنها بالتعبير ك ح ٣/ ع ٣/ ح ٢ وهذا المقدار يقترب مما لا نهاية له كلما اقتربت السرعة - ع - من سرعة الضوء - ح - وعلى ذلك يجب أن تظل السرعة دائماً أقل من - ح - مهما كبرت العجلة» (المصدر ص ٤٦) والنتيجة أن: أي جسم مادي لا يمكن أن يساوي في سرعته سرعة الضوء.

(٢) يقول لينكلن بارنت: «إن أي جسم يبدو أنه يفقد طوله كلما اقتربت سرعته من سرعة الضوء فإنه يفقد طوله بمقدار ٩٠٪ ثم يزداد النقص بشكل أسرع حتى إذا وصل الجسم إلى سرعة الضوء فإنه لن يبقى له جسم طولي بتاتاً.

إلا أن النظرية الضوئية ما لبثت كثيراً إلا وقد نسفت، أولاً: بما يأتي من إمكانية تحقق هذه السرعة وأكثر دون تبدل بالضوء، على ضوء تقدم الطاقات في المركبات الفضائية، كما يقول بعض العلماء، وأن الفواصل بين النجوم ليس فيها الهواء أو يقل، فإنها خلأ لا تمانع وتعرقل السير هناك، فلا تخلق حرارة زائدة كذلك.

وثانياً: بأمواج الجاذبية، إذ يعتقد بعض العلماء أن باستطاعة أمواج الجاذبية أن تقطع المسافات من دون أن تستغرق أي وقت من الزمان.

يقول «كيوركيو»: بإمكان أمواج الجاذبية قطع المسافات التي تقاس بآلاف الملايين من السنين الضوئية في لحظة واحدة، فلو أن مجرة في آخر الكون تبدلت إلى أمواج، فإن الجاذبيات المتعادلة في الكون تغير من مواقفها فوراً، وهكذا يكون رد الفعل للجاذبية بلا زمان، ولو أن رد الفعل الجاذبي كان يحتاج في قطع المسافات إلى الزمان، لكانت نتيجة تبدل المجرة - السابقة الذكر - إلى أمواج يؤدي إلى تفجر كافة المجرات أيضاً، والتبدل إلى أمواج، وذلك بفعل المصادمات العنيفة التي تقع في الكون بين المجرات[١].

فهذه السرعة - إذاً - تنسف السرعة القصوى الضوئية، وإذا كانت أمواج الجاذبية تتحمل هذه السرعة دون زمان، فهل الجاذبية المحمدية - وفي معجزة إلهية - لا تتحمل سرعة أقل منها، أن يتم معراجه مرجّعاً في أربع ساعات؟!.

ومع الغض عن ذلك أيضاً، لنفرض أن سير المعراج يتطلب أشهراً، أن يتباطأ النبي في سيره أقل من الجاذبية بكثير، حتى يتطلب زماناً طويلاً، إلّا

---

(١) (محمد نبي يجب معرفته من جديد) ويعتقد العلماء أن سرعة الابتعاد تتناسب طرديًا مع مقدار بعدها عنا، فكلما كانت المجرة أبعد كانت سرعة ابتعادها أكثر.

أن الثابت قرآنياً، ومن ثم علمياً لحدّ ما: أن الزمان خارج منظومتنا يختلف تماماً عن زماننا، فقد يكون شهر من الزمان نقضيه خارج المنظومة، لا يساوي إلا ثانية بالنسبة لتوقيت أرضنا، وذلك لاختلاف الأوضاع والقوانين في مختلف المنظومات والمجرات، كما وأن لكلّ من كرات منظومتنا أيضاً قوانين خاصة.

إذاً فمشكلة السرعة والزمان، وهما أمّ المشاكل في هذه الرحلة الفضائية، أنهما نسفتا بأيدي العلم، فضلاً عن مشاكل أخرى هي دونها فأكثر نسفًا!.

## مشكلة الحرارة:

اختلاف درجات الحرارة في مختلف طبقات الجوّ، إضافة إلى حرارة فوق التصور، تخلّفها السرعة المعراجية[١] بين الضوء والجاذبية، أنها تشكل خطراً على حياة صاحب المعراج، لا فحسب، بل فليتحول طاقة بين النور والجاذبية حتى يتمكن من هذه السفرة الفضائية.

وأوّل ما يخمد هذه الحرارة الخارقة هو القدرة الإلهية التي تجعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم، إضافة إلى أن محمداً ﷺ ركب مركبة مغلفة فيها كل المعدات لتلك السفرة العجيبة - علّه: البراق، على حدّ ما سماها، وقد تدل أوصافها المروية على هذه الإعدادات، التي لا تتيسر لمن سوى الله، ولأنها معجزة الله وكما أشرنا مسبقاً: أن أهم ما يزيد في درجة حرارة المركبة هو الاصطدام بالفضاء، فوجود الخلأ في مسيرها بإرادة الله، يزيل مشكلة الحرارة، وكما يزيل مشكلة السرعة الخارقة التي تتطلبها الرحلة

(١) فإن السرعة من أهم العوامل لإيجاد الحرارة، لحدّ تجعل من الجسم أبسط الذرات (ئيدروجين) لكي تتحمل الحرارة الزائدة.

المعراجية، فعلى فرض الخلأ في مسيرها، وأنها تنجذب بجذبة القدرة الإلهية، ومعدّة بجهازات مكافحة، تنسف كافة العراقيل العشر، المتصورة، دون الرحلة المعراجية.

إن المسير الخلأ يساعد بآلاف الأضعاف على سرعة المركبة، والحفاظ على موقعها الحراري، وهذا الخلأ موجود فعلاً بين الكواكب، وكما يقول بعض العلماء: «بأن المركبات الجوية وصواريخها سوف تتمكن أن تسرع زهاء سرعة النور وما فوقها، لحدّ نتمكن أن نجول عمق الفضاء الشاسعة»...[١].

فإذ يتمكن الإنسان الضعيف الضعيف أن يصنع مركبات هكذا، فماذا تظن بخالق الإنسان القوي القوي!

ولا بأس هنا باستعراض بقية المشاكل العشر بصورة وجيزة كالتالي:

## مشكلة الجاذبية:

هذه المشكلة إنما هي بالنسبة لما يسرع أقل من ثمانية ك. م في الثانية: سرعة دوران الأرض حول محورها، وإذ تتخطى المركبات البشرية هذه المشكلة، بما تسرع أكثر من ٨ ك، م - فماذا على المركبة الإلهية التي تسرع كأمواج الجاذبية أو دونها؟ إضافة إلى تجاذب آخر بين صاحب المعراج وربه سبحانه وتعالى.

---

(١) ماذا أعلم - تأليف JEAN PELANDINI ص ١٣١: يقول: وإن المفكر الأخصائي الشهير الألماني (دكتور أوجن سانكر) هكذا يتنبأ، أن ميكانيك الطيران لصواريخ (يوني) أو (فوتوني) مما يشهد لتغيير مفهوم المسافة والزمان والفضاء والسرعة.
ثم يستمر المؤلف قائلاً: إن نظرية النسبية بالنسبة للصواريخ التي سوف تخرق الجو بسرعة الضوء أو ما فوق الضوء، أنها تجعلنا نفكر في تسخير عوالم جدد، فبموجب هذه النظرية نتأكد أننا سوف نجتاز مسافات بعيدة هي بالقياس إلى أرضنا لا نهاية: بأن نعد الصاروخ بقدر خاص من المواد المحترقة المحركة، المناسبة للصاروخ، فنصل إلى حدود الكون.

كما وأن مشاكل: انعدام الوزن[١] وتخطي الغلاف الجوي[٢] والتخلص من الشهب[٣] و انعدام الأوكسيجين[٤] والأشعة فوق البنفسجية والأشعة السينية[٥] والأشعة الكونية[٦] - هذه المشاكل كلها تندحر وتنسف، بعدما عرفنا المركبة المعراجية وراكبها، وجاذبها، وحركتها، وفوق كل ذلك القدرة اللانهائية الإلهية.

ومن ثم ننظر هل أن المركبة المعراجية هي الجذبة الإلهية، دون أية وسائط؟

كما قد توحي بها آية الإسراء: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾[٧] وآيات النجم خلوٌ عن التلميح بأيّة مركبة تحمله، وإن لم تعارض ما يدل على مركبة أخرى.

---

(١) حيث الوزن هنا ليس إلا نتيجة الجاذبية الأرضية، فالبعد الكثير عنها يفقد الوزن، ولكن المركبة المعراجية تحل هذه المشكلة وأحرى مما حلتها (أبولو) وغيرها.

(٢) يتشكل الغلاف الجوي من خليط من الغازات المحيطة بالأرض، ويحدث فيه خلط مستمر للهواء نتيجة التيارات الصاعدة والهابطة، ويمتد غلاف الأرض فيما وراءه ٥ و٩٦ ك. م، ويعتبر هذا الغلاف الجوي للأرض المركب من عدة عناصر، بمنزلة مظلة واقية للأرض من الشهب والنيازك النارية وسواهما، كما أنه من موانع الرحلات الفضائية، لأنه يؤدي إلى الاحتراق لو لم تكن سرعة المركبة متوازية مكافحة، ولكن مركبة المعراج، فيها كافة المعدات والمكافحات!.

(٣) وكما تكافح هذه المركبة بصلابة غلافها الشهب وما فوقها.

(٤) والأوكسيجين الضروري لصاحب المركبة موفرة في داخلها، وحينما يخرج صاحب المعراج فليس من الصعب أن يختصه الله بما يبقي حياته خارجاً عن المركبة، كما وأن المركبة ليست ضرورية لهذه وتلك كما قدمناه.

(٥) وأما الأشعة فوق البنفسجية وهي الأجزاء غير المرئية من أشعة الشمس، البالغة الخطورة، وكذلك الأشعة السينية (x) النابعة من الشمس أيضاً، هاتان الأشعتان مهما كانت أخطارهما، فليستا شيئاً بجنب المركبة المعراجية، بعد أن تكافحهما المراكب الفضائية البشرية.

(٦) وهي لم تعرف مصدرها، وتكافح في أخطارها بما كافحتها المركبة المعراجية، فكل هذه المشاكل الست تنحل بعدما عرفنا مركبة المعراج وراكبها وجاذبها ومدى سيرها - والله أعلم.

(٧) سورة الإسراء، الآية: ١.

أو أنه جبرئيل أو ميكائيل وإسرافيل[١] لحدّ ما، إلى سدرة المنتهى، ثم منها إلى ما فوقها لم تكن إلّا جذبة واصبة إلهية، كما لم يكن بينه وبين الله أحد حتى نفسه في مقام التدلي؟.

أو أنه أمواج الجاذبية بما قدر الله كما قد يشير إليها الحديثان: «فأتى بالمعراج... فعرج به إلى السماوات سماءً سماءً»[٢] «فوضع له مرقاة من ذهب ومرقاة من فضة وهو المعراج حتى عرج جبرئيل والنبي ﷺ إلى السماء»[٣] فلعل المرقاة الذهبية والفضية هي أمواج الجاذبية أو باب المعراج السماوي: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾[٤]: الباب التي عرج فيها الرسول ﷺ بالجاذبية التي عرج بها ومعه جبرئيل، فهي مرقاة جبرئيل وأمثاله من عارجي السماء دوماً، لا تفتح لغيرهم من العارجين.

أو أنه «البراق» في الرحلة الأولى من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم بغيرها إلى السماوات[٥] أو أنه الحامل في رحلتيه[٦] إلى موقف جبرئيل في السماء، ثم عرج الرسول وحده بما عرج.

---

(١) نور الثقلين ٣: ٩٨ - ح ٦ - احتجاج الطبرسي عن ابن عباس عنه ﷺ: وحملت على جناح جبرئيل..
وفيه عن الصادق عليه السلام أن جبرئيل احتمل رسول الله ﷺ حتى أتى به إلى مكان من السماء..
وفي تفسير العياشي عن أبي عبد الله عليه السلام لما أسري بالنبي ﷺ أتي بالبراق ومعه جبرائيل وميكائيل وإسرافيل... وفي تفسير القمي عنه عليه السلام جاء جبرائيل وميكائيل وإسرافيل بالبراق إلى رسول الله ﷺ... أقول: والأحاديث في حمل جبرائيل إياه أكثر.

(٢) الدر المنثور ٤: ١٥٦ - أخرجه ابن سعد وابن عساكر عن الواقدي عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي سبرة وغيره من رجاله عن رسول الله ﷺ..

(٣) الدر المنثور ٤: ١٥٧ - أخرج الواسطي في فضائل بيت المقدس عن كعب عن النبي ﷺ.

(٤) سورة الحجر، الآية: ١٤.

(٥) كالجاذبة الإلهية والمحمدية بما هيأه الله لها أم ماذا؟.

(٦) الدر المنثور ٤: ١٤٠ عنه ﷺ «ثم أوتيت بدابة.. فحملت عليه فانطلق بي حتى أتى بي السماء»..
=

ثم ترى ما هي مواصفات البراق، الذي تحمله عشرات الأحاديث؟ ولكي ننسف بها مشاكل المعراج نسفة أخرى:

(براق) اسم لم نعهده لأي حيوان أو أية مركبة من صنع الإنسان؟ مما يلمح أنه مركبة سماوية ومن صنع السماء، و«قد أتى بها جبرئيل من السماء»[١] «خلقت لأجله ﷺ ولها في جنة عدن ألف سنة»[٢].

كما ويشير أنه من البرق، تدليلاً على كونه في لمعانه وسرعته كالرعد والبرق.

ومن مواصفاتها التي تقربها إلى أمواج الجاذبية أنه: «أضاء له ﷺ كما تضيء الشمس»[٣] فكان «لها شعاع كشعاع الشمس»[٤] و«لو أن الله تعالى أذن لجالت الدنيا والآخرة في جرية واحدة»[٥] أو «كلمح البصر»[٦] كإمكانية السرعة القصوى لهذه المركبة المعراجية، وإن «كانت خطاه بمد بصره»[٧] فإذا كان مد بصر الإنسان بالعيون العادية وهو الأنجم التي ترى في السماء الدنيا، آلافاً من السنين الضوئية، فما هو إذاً مد بصر هذه المركبة العجيبة، التي كان «له عينان في أسفلها»[٨] «يمكن رؤية الأرض منهما واضحة جلية»[٩].

---

= وفي تفسير البرهان ٢: ٤٠٢ عن الصادق عليه السلام عنه ﷺ فلما صرت عليه (البراق) صعدت إلى السماء.. ورؤيت الجنة.

(١) الدر المنثور ٤: ١٤٠ عنه ﷺ: «فأتاني جبرائيل بدابة بيضاء»....

(٢) تفسير البرهان ج ٤: ٤٠٥ عنه ﷺ.

(٣) الدر المنثور ٤: ١٥٧ عنه ﷺ...

(٤) تفسير البرهان ٤: ٤٠٤ - ابن الفارسي عنه ﷺ...

(٥) تفسير البرهان ٢: ٤٠٤ في صحيفة الرضا عليه السلام قال رسول الله ﷺ..

(٦) في ٤٠٥ البرسي عن ابن عباس عنه ﷺ سأل جبرائيل ما سير هذه الدابة فقال: إن شئت أن تجوز بها السماوات السبع والأرضين السبع فتقطع سبعين ألف عام وسبعين ألف مدة كلمح البصر.

(٧) روضة الكافي عن الباقر عليه السلام خطاه مد بصره - وفي ذلك روايات كثيرة.

(٨) تفسير البرهان ٢: ٤٠٠ عن العياشي عن الباقر عليه السلام.

(٩) البحار ج ١٨ ص ٣٥٧ نقلاً عن علل الشرائع.

كما وأنها كانت مزودة بآليات موجية وضوئية مختلفة الألوان والكيان: إذ «كان فيها أربعون نوعاً من النور»[١] «وكانت مزمومة بسبعين ألف زمام»[٢]: علّها الأزمّة الموجية والضوئية أم ماذا! دون الأزمة الأخرى التي تزم بها الحيوان! فإن «حجمها كان بين حجم البغل والحمار» فلو أن براق كان حيواناً، فليكن سبعين ألف ضعف حيوان، ويحتاج إلى زمام واحد؟.

ثم هو «محمل له ألف ألف لون من نور»[٣] و«عليه ألف ألف محفة من نور»[٤]

و«كانت له مثل وَكر الطير»[٥] مما يشير إلى أن النبي دخل فيها ولم يركب عليها، فـ «ركبها» في جملة من أحاديثنا، تفسر بالدخول فيها، وهكذا يجب أن تكون المركبة المعراجية، محفظة تحافظ على صاحبها من عرقلات واصطدامات هذه السرعة الخارقة الجوية، ومع مليون محفة من نور!.

وقد تكون المحفات النورية في هذا المحمل هي المعدات الموجية أو الضوئية أم ماذا؟ التي تحافظ على غلافه الخارجي، وتسرع المركبة - علّها - ملايين أضعاف سرعة الضوء أم ماذا؟ ففي ساعة واحدة أرضية تسير هذه المركبة ٠٠٠، ٠٠٠، ٠٠٠، ٠٠٠، ٠٨٠، ١ كيلومتراً وإذا كانت الساعة السماوية آلاف أضعاف الساعة الأرضية، فلتكن المسافة التي اجتازتها المركبة لساعة واحدة أرضية آلاف أضعاف هذا العدد الهائل أم ماذا؟

---

(١) البحار ج ١٨ ص ٣٥٥.

(٢) البحار ج ١٨ ص ٣٧٨ نقلاً عن كتاب الخرائج وعن روضة الكافي عن الباقر عليه السلام.

(٣) العياشي عن عبد الصمد بن شيبة قال: ذكر عند أبي عبد الله عليه السلام بدو الأذان - إلى أن قال في قصة المعراج -: ثم وضع في محمل له ألف ألف لون من نور ثم صعد به حتى انتهى إلى أبواب السماء...

(٤) العياشي عن عبد الصمد.. سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: جاء جبرائيل رسول الله بالبراق.. عليه ألف ألف محفة من نور..

(٥) سعد السعود ص ١٠٠ - ١٠١ وبحار الأنوار ج ١٨ ص ٣١٧.

وطالما يكون سيرها بين سرعة الضوء وأمواج الجاذبية ليس علينا أن نقدر أي تقدير لهذا المسير، فالعلم عند الله العلي القدير.

ومما يساعد على سرعتها أنها «كانت لها جناحان يحفزانها من خلفها»[١] «وأذنان مضطربتان»[٢] فالجناحان للطيران، والأذنان للحفاظ على توازنها في السير، أم ماذا؟ «وفيها حلق وسلاسل كلما ارتفعت زادت»[٣] وعلّهما المعدات المناسبة لمختلف الارتفاعات والأجواء.

ولقد كان فيها إذ دخلها النبي ﷺ ملكان سلما عليه ورحّبا به فأجاب ودعيا له ﷺ ودعا لهما»[٤] علهما سائقاها أم ماذا؟.

فيا لها من مركبة منقطعة النظير، عرجت بالرسول البشير النذير ﷺ إن كان من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، أو كان إلى السماوات للحدّ الأقصى في أقصى الاحتمالات، إذ إن بإمكانها طي السماوات دنيا وعقبى في جرية واحدة، طالما كانت الرحلة المعراجية مدّ بصرها.

وإننا لنقضي عجباً من معداتها وآلياتها الموجية والضوئية! ترى أن شعاعاً كشعاع الشمس، وأربعون نوعاً من النور، ومليون لون ومحفة من نور، وسبعون ألف زماماً، هذه المعدات العجيبة التي نجهلها، أليس بالإمكان أن يعرج بمركبتها صاحب المعراج؟ وهو يملك أقوى من هذه الأنوار! وهو يعرج بإرادة الله! أليس هذا بالحق؟ وهذا الإنسان الضعيف الهزيل يعد لنفسه سرعة أقوى من سرعة الضوء!.

ثم لو أغمضنا النظر عن هذه المركبة ومواصفاتها، فهذه الرحلة الفضائية، لو أغمضت على العلم تحليلاً، فالقدرة اللانهائية الإلهية تحلّلها،

---

(١) البحار ج ١٨ ص ٣٨٧ نقلاً عن الخرائج.
(٢) روضة الكافي عن أبي جعفر عليه السلام في وصف البراق: مضطرب الأذنين.
(٣) البحار ج ١٨ ص ٣٥٥.
(٤) اليقين في إمرة أمير المؤمنين ص ٨٣ - ٨٧.

ما دامت خارجة عن الاستحالة الذاتية، وكما أن القرآن يذكر طرفاً من السرعات الخارقة للعادة وغيرها من الآيات المعجزات، التي قد يعجز العلم عن تحليلها، دون أن يحيلها، فقد يحللها وقد لا يحيلها إذا لا يحللها:

من ذلك عرش بلقيس، إذ أحضره الذي عنده علم من الكتاب: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ... قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾[1] ويما أن ارتداد الطرف يتحقق بأقل من ثانية، فقبل ارتداده قد يكون أقل منها بكثير.

فإذا كان بإمكان الذي عنده علم من الكتاب أن يسرع هكذا، فكيف للذي عنده علم الكتاب كله!.

ثم وأهم من سير العرش، سير اليوم الربوبي في المعارج، كما شرحناه فيها، فواحد الزمان عند الله يحمل مسيرة خمسين ألف سنة، وهذا الواحد حسب الأرض هو المناسب للحركة الأولى للمادة الأم، ولعلّها أقل من ثانية بمئات المئات، ثم الملايين الملايين من هذه الوحدات في بعض العوالم الأخرى، قد تكون بمقدار الواحد الأرضي، أن تمضي أنت في سفرتك عمق الفضاء أشهراً، ولا يكون حسب الأرض إلا ثانية أو أقل، فالرحلة المعراجية التي كانت زهاء أربع ساعات حسب الأرض وهي ١٤٤٠٠ ثانية إنها قد تكون ١٤٤٠٠ شهراً أو يزيد حسب السماوات، فإذ تسير المركبة المعراجية في كل آن من هذه الأشهر قدر خمسين ألف سنة، يصبح المعراج أبطأ من سرعة أمواج الجاذبية، بملايين أضعاف ما تتطلبه هذه المسافة.

فالاختلاف بين الزمن الأرضي وبين سواها من العوالم السماوية شيء ثابت، قدر اختلاف موازين الحركات والأوضاع والقوانين المتحكمة فيها.

---

(١) سورة النمل، الآيات: ٣٨ - ٤٠.

وكما أن هناك بين الزمن الأرضي، أو الدنيوي عامة، اختلافاً عكسياً مع الزمن البرزخي، فقد يساوي عمر الحياة الإنسانية هنا ساعة من نهار أو بعض يوم أو يوماً أو عشرة أيام، حسب الزمن البرزخي، كما نستوحيه من آيات عدة[١].

وبعد كل ذلك، إذا كانت المركبات الفضائية والصواريخ، تهتدي بقيادات بشرية، من دواخلها أو مركبات أخرى، أو من الأرض[٢]، فالمركبة تستمر في رحلتها الجوية كما يهديها قائدها في الأرض، وهي مصيبة في أهدافها المخططة المرسومة لها في القيادات الأرضية، إذاً فما ظنك بالمركبة المعراجية التي تقودها قدرة الله، خالق السماوات والأرض، التي تقود البلايين البلايين من المركبات الكوكبية، بمجراتها السماوية وبسرعات تفوق الزمان والمكان، كما في أمواج الجاذبية، تُرى أن جاذبية الخالق، وجاذبية وانجذاب محمد ﷺ أقل من الجاذبية التي تحلّق على الزمان والمكان؟!

## خلاصة عن الرحلة المعراجية:

هذه المركبة المعراجية مزدودة بما يكافح عراقيل السرعة والحرارة والزمان وسواها، إضافة إلى أن مسيرها بإرادة الله، وبالطبع في البعض من أجزائه - هذا المسير خلو من الأجزاء الهوائية، فالمصادمة الهوائية التي تقلل من حركة المركبة وتزيد في حرارتها، هي عديمة في مسير هذه المركبة، وقد يكون سيرها بسرعة زهاء سرعة أمواج الجاذبية، إضافة إلى اختلاف مقاييس الزمان بين الأرض والعوالم الأخرى، التي قد تجعل شهراً من الزمان السماوي ثانية أرضية أو أقل.

---

(١) راجع ج ٣٠ «زمن لبث البرزخ».

(٢) كالصاروخ الإنكليزي الحربي «جينديويك» jindivick فانها طائرة دون قائد، وهي سرعتها ٨٠٠ ك. م. في الساعة.

فهذه هي مركبة المعراج، وعلّ مسيره كذلك يختلف عن سائر المسير بقدرة الخبير البصير، فقد يكون باباً من السماء تخص هكذا عروج فلا تفتح لغير صاحب المعراج، وقد توحي له: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾[1] فإنها الباب التي يفتحها الله ﴿فَتَحْنَا﴾ دون الإنسان مهما بلغ من العلم! فالعروج فيه يحير عقول الناكرين فيلجئون إلى خرافة السحر إن اجتازوا واقعه.

إذاً فلم تبق مشكلة علمية أم سواها، تعرقل الرحلة المعراجية، فتشكك دون تصديقها، أو تكون حجة لغيره في تكذيبها.

## القرآن وتسخير الفضاء:

عشرات من آيات الله البينات توحي بإمكانية الرحلات الجوية وواقعها، بين آمرة بها بغية الاستطاع على المملكة السماوية لازدياد المعرفة بالله، وبين مبشرة بأنها سوف تتحقق أو مضت، بحثنا عنها في طيات آياتها التي تتحدث عنها، مما أضاءت للبشرية بريقات الآمال في تسخير الفضاء، فأصبحت تجاهد للتوصل إلى هذه البغية منذ مئات من السنين فأخذت تستوحي منها، ومن مختلف أنواع الطير دروساً، تتابع على أضوائها في محاولة بعيدة المدى، للرحلات المختلفة إلى أعماق الفضاء، وقد وفقت حتى الآن لشيء ما، عبر الطائرات، فالصواريخ، والمركبات والأقمار الصناعية التي نزلت على سطح القمر، وتحاول الوصول إلى الكرات الأبعد فالأبعد، واحدة تلوَ الأخرى.

فغزو الفضاء بشارة سماوية قبل أن تكون فكرة أو محاولة أرضية أو واقعاً منها، وكما نستبشرها من الآيات التالية:

---

(١) سورة الحجر، الآيتان: ١٤، ١٥.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾(١) يعني جمع الدواب المنبثة في الأرض والسماوات، إذا يشاء الله، و«هم» توحي على أقل تقدير بأن مجموعة من هذه الدواب عقلاء من هنا وهناك، فسوف يتحقق الجمع بين إنسان الأرض وإنسان السماء، وطبعاً بالغزو المتقابل.

وكما نؤمر في آيات بغزو الفضاء: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾(٢).

وليس مجال النظر المأمور به هو السماوات من بُعد فقط، حيث النظر إليها من قربها هو البالغ الأهمية في مجال المعرفة واستحكام الإيمان، مهما كان للنظر من بعيد علمياً كذلك نصيبه.

وقد تدل آية المرور، على غزو الفضاء في أعماقها: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾(٣)، فالمرور - ولا سيما بصيغة المضارعة: ﴿يَمُرُّونَ﴾ ما يوحي تماماً أن البشرية تستقبل المرور على الأجواء البعيدة، وآيات عظيمة في السماوات، كما في الأرض، مهما كان واقع المرور حين نزول الآية هو المرور البصري والنظري من بُعد، ولكننا - حسب تنبُّؤ الآية - وصلنا لحدّ المرور على القمر، ثم سوف نمرّ على سائر الآيات والكرات السماوية.

وقد مرت وتمرّ عليكم آيات غرو الفضاء في مجالاتها الأنسب والأحرى تفصيلاً.

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٢٩.
(٢) سورة يونس، الآية: ١٠١.
(٣) سورة يوسف، الآية: ١٠٥.

﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ :

تمنيات مسبقة في آيات من المشركين، من فرية الهوى على رسول الهدى وتكذيبه أنه رأى ما رأى، وأوحى إليه ربه ما أوحى، في حين أنهم يرون اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، وأن لهم الذكر وله الأنثى أم ماذا، تجرفها كلها بعد انجرافها بما مضى:

﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ : هل للإنسان ما تمنى؟ إن للإنسان أمنيات صادقة قد يتوصل إليها بما يتوسل بوسائلها إن أرادها الله وقد لا يتوصل، وأخرى كاذبة، فإذا كانت تلك حالة الصادقة، فماذا تظن بالكاذبة، فليس الإنسان هو المحور الرئيسي للكون حتى يكون له ما تمنى، مهما يصل في حمقه لعمقه إلى حد يتمنى ما لله لنفسه، وما لنفسه لله! ملحداً في الله محاداً له كأنه الله.

ثم مهما ملك الإنسان من تمنياته الصادقة بحجة أو سعي، فهو لا يملك أي تمن بمجرد التمني دون حجة أو سعي، والتمنيات المسبقة ونظائرها للمشركين لا تملك أية حجة أو إمكانية سعي، أسعيًا للتغلب على الألوهية، أو فرض أمر أو حالة على الله، أو فرض تحويل أو تحوير في رسالة الله، التي تجمعها صيغة واحدة: تمني المحال أو ما لا يجوز على الله!

هذا - وإن تمنيات رسل الله التي كلها حقة وبوحي من الله، أنها لا تتحقق ككلّ رغم أنهم على الحق والحجج البالغة التي يملكونها، والمساعي التي يبذلونها، إلا بتوفيق من الله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[١] والآيات التي يحكمها الله هنا هي تمنيات

(١) سورة الحج، الآية: ٥٢.

الرسل التي قد تعرقل بإلقاءات الشيطان - وطبعاً لا في قلوبهم - وإنما في قلوب غيرهم: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾[١].

وإذا كانت هذه حالة تمنيات المرسلين - الحقة - فكيف بمن دونهم، ثم كيف للكافرين؟!.. فـ «إذا تمنى أحدكم فلينظر ما تمنى فإنه لا يدري ما يكتب له من أمنيته»[٢] فإن هوى النفس ومناها لا تحوّلان الواقع، ولا تخلقان غير الواقع، فلتحصر أمنيات الإنسان في الحقائق وبتوفيق الله، فإن الأمر كله للّه:

﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾: مهما كنا مخيرين في الأولى بعض الشيء، فإن هذا الاختيار لا يملّكنا كلّ ما نتمنى، وفي تقديم الآخرة على الأولى هنا رعاية لموسيقى اللفظ على هامش المعنى، حيث السيطرة الإلهية ظاهرة واقعة في الآخرة تماماً، مهما خفيت في الأولى أو خفّت بإرادة الله، ولواقع الاختيار فيها دونها.

وهذا شيء ملموس من الأسلوب القرآني: أنه يجمع بين تنعيم اللفظ وتنعيم المعنى، دون إخلال بأحدهما على حساب الآخر، إذ لا تضيق الألفاظ والمعاني على الله، فليس تجريد التجميلات اللفظية عن جمال المعاني - أحياناً - إلّا من هرطقات القاصرين، كأن القرآن في أنظارهم كتاب شعر أو موسيقى قبل أن يكون كتاب حقيقة أو معنى!.

(١) سورة الحج، الآيتان: ٥٣، ٥٤.
(٢) الدر المنثور ٦: ١٢٧ - أخرج أحمد والبخاري والبيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

ونسفاً لأهم تمنيات المشركين في الآخرة - عن معبوديهم: بنات الله الملائكة: أنهم شفعاؤهم عند الله، تمنٍّ عاطل فوق تمنيات باطلة - تأتي التصريحة:

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ...﴾ فكيف بتماثيل ملائكة في الأرض؟!

فلنفرض أن الملائكة بنات الله! وأنهم معبودون من دون الله! ولكنهم - لو صدقت تمنياتهم فيهم - ليسوا بشفعاء عند الله، إلّا لمن ارتضاه الله، دون فوضى رغم تقولهم ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[1] فإنما الشفاعة كلها لله، وبإذن الله ﴿لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ من الشافعين والمشفّع لهم سواء، دون فوضى هنا أو هناك.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾:

## كلام في العلم والظن:

مما لا بد منه أن تكون كل حالة نفسية أمام الواقع، مسنودة إلى برهان مبين، سواء أكانت قطعاً أو علماً أو ظناً أو شكاً أو وهماً[2] وإن كان البرهان هو عدم وجود الدليل أو عدم وجدانه، فالظن غير المسنود إلى دليل وثيق مرفوض، فإنه ظن الهوى وليس ظن الهدى.

---

(١) سورة يونس، الآية: ١٨.

(٢) من الملاحظ أن القرآن قد يصف الشك بأنه مريب، مما يدل على أن من الشك ما لا يريب، فالشك المريب هو المسنود إلى برهان متين يسببه، وغير المريب ليس إلا شك الهوى، وكما أن من العلم واليقين ما هو نابع عن الهوى، ومهما لم يمكن ردع هذا القاطع عن قطعه ما دام قاطعاً، إلا أن بالإمكان تنبيهه على خطأ الطريق، وبذلك يزول قطعه، وهكذا قطع ليس بحجة لأن مقدماته الخاطئة اختيارية، مهما لم تكن إزالة القطع دون نظر ثانوي ثاقب إلى المقدمات خارجة عن الاختيار.

=

وهنا يندد بظن الهوى مرة أخرى بعدما مضى: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾.

فالظن ظنان: ظن من هوى وهو مرذول، وظن عن هدى وإليها وهو مقبول، فهنا تحرضنا الآيات على التمسك بالعلم، ولكنه ليس ليحصل دوماً وفي كل شيء، فليكتفَ بالظن المسنود إلى العلم، والنابع عنه، فإنه اتباع للعلم، كالأدلة والأصول، غير المفيدة للعلم، المستفادة من العلم: عقلاً ونقلاً: كتاباً وسنّة، فهي داخلة في اتباع العلم، خارجة عن الظن المرفوض.

ففي ساحات الحجاج لإبرام أمر أو نقضه: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾[١] تنديداً باتباع ظن الهوى، وإن كان اعتقاداً راجحاً، فضلاً عن الشك والوهم، بل وكذلك العلم الحاصل عن الهوى دون أصل وثيق أو هدى أو كتاب منير: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾[٢]. ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[٣]. ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[٤]. ﴿قُلْ هَلْ

---

= وقد يسمى القطع والعلم الحاصل عن الهوى ظناً ويراد به الوهم، كما يراد من الظن في الآيات الرادعة عن الظن والعمل به.

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤٨.

(٢) سورة الحج، الآية: ٨.

(٣) سورة الأحقاف، الآية: ٤.

(٤) سورة الفتح، الآية: ٢٥.

﴿عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾[١]. ﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[٢] ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾[٣].

فإنما المغني من الحق هو علمٌ أو أثارة منه، أو هدًى أو كتاب منير - ليس إلّا.

فالعلم هنا، لكونه قرن كتاب منير أو هدى، هو الحاصل عن غير وحي، علم وجداني أو عقلي أو حسّي، ومن ثم ف ﴿هُدًى﴾ هذه، هي وحي يوحى إلى صاحبه، فـ ﴿كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ كتاب يحمل وحي الله، فالأخير علم رواية صادقة قاطعة، والأولان علم دراية ذاتية، أو من وحي وهو أعلى منهما، وأثارة من علم هي رواية تحمل أثراً من العلم، مهما حصل منها علم أو دونه، وهو ظنّ مسنود إلى علم أو كتاب منير.

فإنما الظن المرفوض، الذي لا يغني عن الحق شيئاً، هو ظن الهوى كما مضى، وظن الجاهلية: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾[٤] ظن لا يستند إلى علم أو أثارة منه ولا هدًى ولا كتاب منير، وإنما إلى هوى جاهلية، مهما كانت دركاته ودركاتها، فقد يكون علماً كما يخيل، أو اعتقاداً راجحاً أو شكاً أو وهماً، وتشملها كلها صيغة الظن، تعني الوهم، إذ لا سناد لها كلها إلّا هوى جاهلية، مهما زينتها بما يخيل إلى صاحبها أنها علمٌ! ولكنها بدركاتها لا تغني من الحق شيئاً[٥].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤٨.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤٣.
(٣) سورة النور، الآية: ١٥.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.
(٥) كمن يتقولون ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] - فيردّ عليهم ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤] حيث اعتبر علمهم المدعى ظناً ووهماً - مهما كان علماً عندهم - إذ لا يستند إلا إلى الوهم.

كما وأن للأربعة المسبقة من منابع العلم والظن الحق، درجات، فمنها ما تغني من الحق كلّ شيء، كالعلم الخالص المصيب، وهدى الوحي، ثم نصوص الكتاب المنير، الحامل للوحي، وظواهرها المناهضة للنص، فإنها تصيب ولا تخطىء، فهي تغني من الحق كل شيء.

ومنها ما تغني من الحق بعض الشيء، كالظن الحاصل من أثارة من علم، من رواية تحمل الوحي وعليها أثره، وهو موافقتها له وعدم مخالفتها إياه، كأخبار الآحاد، التي لا تنافي الكتاب والسنّة القطعية، وتوافقهما إجمالاً.

وكظواهر الكتاب، والسنّة القطعية، فيما تختلف فيها الأنظار، وبعد تثبّت شامل، واجتهاد كامل، فإنها قد تفيد العلم، وقد لا تفيد إلّا الظن، ومن هنا يأتي اختلاف الفتاوى، مهما كانت الأنظار ثاقبة، والأفكار صائبة، فإنها ليست وحي مباشرة، أو نصاً قاطعاً.

فهذه الظنون النابعة عن ظاهر علم، أو أثارة من علم، إنها ليست مرفوضة، لأنها تنبع عن هدى، دون جهل أو هوّى، والآيات المندّدة باتباع الظن، الآمرة باقتفاء العلم، الناهية عن اقتفاء غير العلم، لا تعني إلّا التحرز عما يحصل عن جهل أو هوّى، فالظن الحاصل عن علم أو هدًى، هو علم وفي حساب العلم: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[١].

ثم الظن قد يكون ظن القلب، النابع عن علم من العقل، المتجاوب مع العمل، فهذا الظن أفضل من العلم غير المتجاوب مع العمل، غير الواصل إلى القلب: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾[٢]، فترى كثيراً من العالمين

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ٤٥، ٤٦.

بعقولهم غير خاشعين، فالخشوع حالة قلبية لا تحصل إلّا بعلم عقلي ممارَس عمليّاً، ولكي يتجاوبا في اعتقاد راجح قلبي.

ومنه: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾(١) ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾(٢) ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾(٣)، فإنها علم كلّها.

وأما الظن، بمعنى الاعتقاد الراجح العقلي - كما مضى - فهو ممدوح إذا لم يكن عن جهل أو هوًى، مهما لم يغن عن الحق كل شيء في أصول الدين وما ضاهاها، إلّا أنه في طريق الحق، فممدوح في هذه السبيل حتى يتحقق العلم فيغني من الحق كل شيء، حيث الحق لا يحصل، أو قليلاً ما يحصل، دون تدرج من اعتقاد راجح إلى أرجح وإلى جزم.

وأما الأحكام، فلا سبيل للجزم بها إلّا قليلاً من سبيل علم أو إثارة من علم أو كتاب منير، وكثيراً ما يحصل الظن كما في معظم الأدلة والأمارات، من رواية أو ظاهر أم ماذا، وكثيراً ما لا يحصل حتى الظن كالأصول، المضاهية للأمارات وسواها(٤).

---

(١) سورة الحاقة، الآية: ٢٠.

(٢) سورة الجن، الآية: ١٢.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.

(٤) كالاستصحاب وقاعدة الاشتغال والفراغ، فإنها لا تفيد الظن إلا قليلاً وإن كانت تشبه الأمارات، وكقاعدة الطهارة وأمثالها التي وضعت للخروج من موارد الشك بحجة وضابطة، فإنها لا تفيد الظن إطلاقاً، فإذا كنت على ظن من نجاسة شيء من دون حالة مسبقة، تجري هنا قاعدة الطهارة وتحكم بها، وفي اعتقادك الراجح أنه غير طاهر، وقد تمر عليك تفاصيل عن الحجج الشرعية في مجالاتها الأنسب والأوسع.

وأما الآراء الناتجة عن القياسات والاستحسانات وسواها مما لا أثر له في الدين، فكلها باطلة، ومن لطيف ما يروى ممن رأى آراء في الدين من هذا القبيل ما أخرجه ابن أبي حاكم عن عمر بن الخطاب قال: احذروا هذا الرأي على الدين فإنما كان الرأي من رسول الله ﷺ مصيباً لأن الله كان يريه وإنما هو ها هنا تكلف وظن، ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٨] (الدر المنثور ٦: ١٢٧).

فلو انحصرت السبيل إلى تحصيل الأحكام بالعلم، حصرت الأحكام في قليل من الضروريات الثابتة قطعياً، ورفضت الأكثرية الساحقة منها عن ميادين العمل، وبطلت الشريعة في قسم كبير من فروعها، وليس في سماح العمل بهذه الظنون تخصيص في عمومات الآيات الناهية عن العمل بالظنون، فإنها آبية عن التخصيص، وآئبة إلى ظنون الجهل والهوى فلا حاجة إلى تخصيص.

ومن وصمات الظنون المرفوضة أنها لمن تولى عن ذكر الله ولم يرد إلّا الحياة الدنيا، فهم يرفضون الهدى إلى الردى، والعلم إلى الظن، وقد جاءهم من ربهم الهدى:

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾:

﴿ذَٰلِكَ﴾: - الظن البعيد البعيد - ﴿مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾، يحسبونه علماً، وليس إلّا وهماً لا يملك برهاناً، فلا يغني من الحق شيئاً.

فإذا أصبحت الدنيا مبلغ العلم، وأكبر الهمّ، أصبح طالبها كالأنعام وأضل سبيلاً، اللّهم «لا تجعل الدنيا أكبر همنا ومبلغ علمنا»[1].

فأهل الدنيا، الراكنون إليها، المطمئنون بها، المريدون لها، الواقفون عندها، ليس لهم بالنسبة للأخرى وحقائقها، وللحق عامة، إلّا ظنوناً جاهلة هاوية، مهما كانوا علماء في علوم الدنيا، بشهواتها ولهواتها، فلا يليق لك

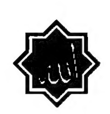
---

(١) الدر المنثور ٦: ١٢٧ - أخرج الترمذي وحسنه عن ابن عمر قال: قلما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه: «اللهم اقسم من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون علينا مصيبات الدنيا، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا، وقونا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثارنا على من ظلمنا وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا».

منهم، إلّا الإعراض عنهم، بعدما تولّوا عن ذكر الله، عن كتاب الله وسائر حجج الله، التي تذكرهم الله.

إن أصحاب المذاهب المادية، والمآرب الحيوانية، لا سبيل فيهم إلّا الإعراض عنهم، حيث لا يفهمون لغة الإنسان ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾[1].

والإعراض هنا على سبيل صيانة الاهتمام أن يبذل في غير محلّه، وعلى سبيل التهوين والاحتقار لمن هذا مبلغ علمه ومنتهى عقله ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾.



(١) سورة الصف، الآية: ٥.

# الفهرس

الموضوع | الصفحة

## سورة الفتح



## سورة الحجرات



## سورة ق

## سورة الذاريات



## سورة الطور



## سورة النجم